بسم الله الرحمن الرحيم

شعر الهجاء في مصر والشّام زمن الحروب الصليبيّة

إعداد

مفلح ضبعان الحويطات

١٩٩٩م

جامعة مؤتة

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

شعر الهجاء في مصر والشّام زمن الحروب الصليبيّة

إعداد

مفلح ضبعان الحويطات

بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها/ الجامعة الأردنية ١٩٩٠م

إشراف

الدكتور شفـيق الرقـب

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها في جامعة مؤتة

تاريخ تقديم الرسالة: ٢٤/٧/١٩٩٩م

تاريخ مناقشة الرسالة: ٢١ /٨ /١٩٩٩م

١٩٩٩م

لجنة المناقشة

الدكتور شفيق الرقب.....رئيساً ومشرفاً

الأستاذ الدكتور محمد الشوابكة.....عضواً

الدكتور فايز القيسي.....عضواً

المحتوى

الموضوع	الصفحة
- إهداء	
- ملخص باللغة العربية	
- مقدمة	١-٥
- مدخل: عوامل ومؤثّرات	٦-١٨
- الفصل الأوّل : الهجاء الشّخصيّ	١٩-٦٤
أ- هجاء الأفراد	٢٠
ب- هجاء الأهل والأقارب	٤٠
ج- التّهاجي بين الشُّعراء	٤٨
د- شواذّ الأهاجي	٦٠
- الفصل الثاني: الهجاء الاجتماعيّ	٦٥-١٢٧
أ- هجاء أعيان الدّولة ومستخدميها	٦٧
ب- هجاء أصحاب المهن	٨٤
ج- الهجاء المذهبيّ والطّائفيّ	٩٤
د- هجاء المدن وبعض المرافق	١٠٩
هـ- مظاهر أخرى	١١٨
- الفصل الثالث: الهجاء السّياسيّ	١٢٨-١٩٠
أوّلاً: في الصّراع الدّاخليّ	١٢٩

أ- نزعة تعميميّة ١٢٩
ب- هجاء أمراء الشّام ١٣٩
ج- شعر الهجاء والدّولة الفاطميّة ١٥٢
ثانياً: في الصّراع الخارجيّ ١٦٢
أ- هجاء الفرنجة ١٦٢
ب- هجاء التّتار ١٨٤

- الفصل الرّابع: الدّراسة الفنيّة ١٩١-٢٥٨
أ- شكل القصيدة ١٩٢
ب- اللغة والأُسلوب ٢١٣
ج- الصّورة الشّعريّة ٢٤٢
- خاتمة ٢٥٩
- ثبت المصادر والمراجع ٢٦١-٢٧٧
- ملخّص باللغة الإنجليزية ٢٧٨

إهداء

- إلى والديّ الكريمين
- إلى زوجتي وابنتيّ
- إلى إخوتي وأخواتي

أقدّم هذا العمل

-ملخص-

شعر الهجاء في مصر والشّام زمن الحروب الصّليبيّة

تتناول هذه الدّراسة شعر الهجاء في مصر والشّام زمن الحروب الصّليبيّة، بهدف تعرُّف اتّجاهاته الموضوعيّة، وسماته الفنيّة .

وقد جاءت الدّراسة في مدخل وأربعة فصول، خصّص المدخل للوقوف عند بعض العوامل التي من شأنها أن تدفع الشّعراء إلى القول في هذا الموضوع الشّعريّ.

وتناول الفصل الأوّل موضوع الهجاء الشّخصيّ، والصّور التي تمثّل بها؛ كهجاء الأفراد، وهجاء الأهل والأقارب، والتّهاجي بين الشّعراء أنفسهم.

وتناول الفصل الثاني موضوع الهجاء الاجتماعيّ الذي تبدّت من خلاله بعض الجوانب السّلبيّة للحياة الاجتماعيّة في ذلك العصر؛ كفساد بعض رجالات الدّولة من وزراء ومستخدمين وقضاة وغيرهم، وإظهار ما كان يحتدم-أحياناً- في الواقع من نزاعات مذهبيّة وطائفيّة متنافرة ، فضلاً عن كشف صور من الشّكوى والمعاناة، وما تبع ذلك من اختلال في القيم والسّلوك .

وخصّص الفصل الثالث لدراسة الهجاء السّياسيّ وذلك ضمن محورين رئيسين؛ الأوّل : تناول موقف الشّعراء (من زاوية شعر الهجاء) من بعض الأحداث الداخلية التي شهدتها مصر والشام في هذه المرحلة؛ كانشقاقات أمراء الشام، ومحاولاتهم الرّامية إلى تقويض أواصر الوحدة في عهد كل من نور الدين زنكي، وصلاح الدّين الأيوبيّ، وإبراز جوانب من خلافات بني أيّوب فيما بينهم، وما تركته من آثار سلبيّة على الموقف الإسلاميّ المهدّد - في الوقت نفسه - بأخطار خارجيّة داهمة، وتناول هذا المحور أيضاً ما شهدته السّاحة المصريّة من صراعات سياسيّة متكرّرة في أواخر الحكم الفاطميّ. والثاني : تناول موقف الشعراء من الصراع الخارجيّ، المتمثل تحديداً في الغزو الصليبيّ الذي تعرض له المشرق الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين.

أما الفصل الرابع، فقد جاء لمناقشة الخصائص الفنيّة التي تميّز بها هذا الشّعر، حيث تبين أن المقطوعة الشعريّة هي الشكل الغالب على قصيدة الهجاء في هذه الفترة، وتبيّن أن هذا الشعر آثر -في مجمله- اللّغة السهلة، والأسلوب الشعبيّ الميسّر، والصورة الجزئية البسيطة التي تقترب من مدركات الناس وحواسّهم .

مقدّمة

يعدّ شعر الهجاء من الموضوعات الرئيسة في ديوان الشّعر العربيّ، وقد حظي هذا الموضوع في العصور التي سبقت عصر الحروب الصليبية بعدد من الدراسات المتخصّصة، كدراستي محمد محمد حسين: «الهجاء والهجّاءون في الجاهليّة» و «الهجاء والهجّاءون في صدر الإسلام»، ودراسة قحطان التميميّ: «اتّجاهات الهجاء في القرن الثّالث الهجريّ»، بالإضافة إلى بعض الدّراسات التي تناولته في الأدب الأندلسيّ، كدراسة فوزي عيسى: «الهجاء في الأدب الأندلسي»، ودراسة نافع عبدالله: «الهجاء في الشعر الأندلسيّ». وغير ذلك.

وعلى كثرة شعر الهجاء وغزارته زمن الحروب الصليبية، فإنّه لم يظفر -في حدود علمي- بدراسة متخصّصة وافية، باستثناء بعض الدّراسات المتفرّقة التي تناولت أطرافاً متشتّتة من هذا الموضوع في إطار حديثها عن قضايا الأدب في هذه الفترة، وذلك كما يبدو -مثلاً- في دراسة عمر موسى باشا: «الأدب في بلاد الشّام، عصور الزّنكيين والأيوبيين والمماليك»، ودراستي محمد زغلول سلام: «الأدب في العصر الأيوبيّ» و «الأدب في العصر المملوكيّ» وغير ذلك. وهي دراسات -كما يبدو من عناوينها- عامّة، هدفت إلى التأريخ للأدب بشعره ونثره على طول هذه الفترة.

ولعلّ دراسة أستاذي الدكتور شفيق الرّقب الموسومة بـ: «شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة» هي الدراسة الأكثر تخصيصاً في تناول هذا الموضوع، وهي دراسة موجزة، لم تقصد استقصاء هذه الظاهرة، وتفصيل القول فيها، إذ نشرت في إحدى الدوريات المحكّمة[1] التي لا تحتمل صفحاتها مثل هذا الاستقصاء والتشعيب، فضلاً عن أنّها اقتصرت في عرضها للموضوع على جانبين منه هما: الهجاء الشخصيّ، والنّقد الاجتماعي، أمّا الهجاء السياسيّ فلم تعرض له. ومع هذا، فقد كانت هذه الدراسة -على إيجازها- ذات قيمة وأثر في توجّه هذا البحث، وهي تُعدُّ نواة صالحة لإقامة دراسة أكثر شمولاً واستيعاباً لأصل الموضوع، وهو ما حاولت أن أنهض به في هذا البحث المتواضع، ولكي يتمّ لي شيءٌ من ذلك، فقد ارتأيت -فضلاً عن تناول الموضوع بقدر من التفصيل والشّمول- إضافة الهجاء السياسيّ إلى موضوع

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع٥٥، السنة ٢٢، ١٩٩٨م

الدراسة، باعتبار أنّ عنوان البحث يقتضي استيفاء كلّ عناصره، ثم دراسة هذا الموضوع في شعر مصر والشام معاً، نظراً لما بين القطرين -على طول فترة الحروب الصليبيّة- من وشائج وصلات، نتج عنهما تشابه بيّن في كثير من الظروف والأحوال.

وبعد أن تحدّد لهذه الدّراسة إطارها المكانيّ، فلا بد من الإشارة إلى إطارها الزمني الذي حدّد بفترة الحروب الصليبيّة، وهي فترة تستغرق زهاء قرنين من الزّمن، هما القرنان السّادس والسابع الهجريّان، وقد شهدت البلاد خلالهما غير عصر سياسيّ، ففي بدايات الغزو الصّليبيّ، كانت أغلب أجزاء بلاد الشام خاضعة لحكم السلاجقة، ثم آلت إلى حكم الأتابكيّين (الزّنكيين). أمّا مصر، فكانت -في بدايات هذا الغزو- تحت حكم الدولة الفاطميّة التي كانت تعاني في أواخر عهدها من الضعف والاضطراب، ثم كان العهد الأيوبيّ الذي وحّدت فيه مصر والشّام في ظلّ دولة واحدة، على الرغم مما شهدته البلاد في هذا العهد بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ من تشتّت ونزاع. وصولاً إلى البدايات الأولى من حكم المماليك الذين طويت على أيدي سلاطينهم الكبار آخر صفحات الحروب الصليبية من هذه المنطقة. وعلى ما يبدو من تباين ظاهريّ بين هذه العصور السياسية، فإنها -مع ذلك- ذات خصوصيّة واضحة في الأدب العربيّ الذي لا يمكن ربطه -كما لاحظ غيري من الدارسين- بصورة آلية بالتاريخ السياسيّ، فثمة عناصر كثيرة تجمع بينها، منها -مثلا- تشابه الأحداث والوقائع، وتوحّد الآمال والمصائر- بحكم ما تعرّضت له البلاد من أخطار تهدّد الهويّة والعقيدة -طوال قرنين من الزّمن.

وقد تعدّدت مصادر هذه الدراسة، فكانت الدواوين الشّعرية هي المعوّل الأساس لها، ومن هذه الدواوين التي أفدت منها في استقاء المادّة الشّعرية : ديوان ابن عُنَيْن الأنصاري (ت٦٣٠هـ) ، وديوان عرقلة الكلبيّ (٥٦٧هـ)، وديوان شرف الدين الأنصاريّ (ت٦٦٢هـ)، وديوان البهاء زهير (٦٥٦هـ)، والمختار من شعر ابن دانيال (ت ٧١٠هـ) وغير ذلك.

ومن هذه المصادر أيضاً كتب التراجم والاختيارات، ومنها مثلاً: «خريدة القصر وجريدة العصر» للعماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ)، وقد تضمّنت هذه المجموعة مادّة شعريّة لشعراء مغمورين كثر، لم تألف أسماعنا أسماء أغلبهم، ومنها: «فوات الوفيات» للكتبيّ (ت٧٦٤هـ). وقد تضمّن هذا المصدر شعراً وافراً لعددٍ كبير من شعراء هذه المرحلة. إضافة إلى مصادر أخرى لا يتّسع المقام لسردها هنا، وسيجدها القارئ مثبتة في

ثنايا هذه الدّراسة.

واشتملت الدّراسة على مدخل وأربعة فصول، تناولت في المدخل جوانب ذات ارتباط بموضوع الهجاء تحديداً؛ فقدّمت إيجازاً للمراحل الّتي مرّ بها الصّراع الإسلاميّ الصليبيّ طوال هذه الفترة، باعتبار هذا الحدث هو أبرز وأخطر ما استجدّ فيها من أحداث . إضافة إلى تناول بعض الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة القاسية التي تركت آثاراً سلبيّة على النّاس آنذاك. ومع أنّني لا أردُّ كلّ ما قيل من شعر هجائيّ إلى هذه العوامل والظّروف ، إذ كان قسم لا بأس به من هذا الهجاء وليد تجارب شخصيّة محضة، وصدى لانفعالات ذاتيّة لم تجاوز ذات الشاعر، إلا أنّه لا يمكن - مع ذلك- إغفال أثر العوامل السابقة في نشأة هذا الشعر؛ فالهجاء من أكثر الموضوعات ارتباطاً بالواقع والظّرف التاريخيّ للمرحلة التي قيل فيها، فكان أن رافق هذا الغزو الصّليبيّ شعر يقاوم المحتلّ، ويغضُّ من شأنه وقدره، وكان أيضاً أنْ هيّأت الأحوال الاجتماعية والاقتصاديّة الصّعبة، مجال القول أمام الشُّعراء الذين انطلقت ألسنتهم في نقد الواقع، والشكوى من مرارة الأحوال وسوئها، وحتّى في مجال الهجاء الشخصيّ المنطلق في أغلبه من تجربة فرديّة ضيّقة، فالمتأمّل لمسبباته ودواعيه، يجد أنَّ للواقع أثراً فيه؛ فكثير من هذا الهجاء هو وليد الفقر والعوز والحرمان وغيرذلك.

واقتضت مضامين هذا الشّعر تقسيمه في اتّجاهات ثلاثة (وهو التقسيم الغالب على شعر الهجاء في أكثر العصور): شخصيّ، واجتماعيّ، وسياسيّ، ومع أنّ هذا التقسيم لم يكن دالا ودقيقاً في بعض الأحيان، باعتبار أنّ الجانب الشخصيّ قد يبدو ظاهراً في الجانبين الآخرين (وهو أمر من غير الممكن ضبطه على نحو صارم؛ فذات الشاعر في المحصلة ليست محايدة تجاه موضوعها، بل لا بد أن تتفاعل معه). غير أنّ هذا التقسيم -مع ذلك- قد قام على حدود تقريبيّة، وكان للمناسبة دور في هذا التحديد، فضلاً عن أنّ مثل هذا التقسيم هو من الضرورات الإجرائية لأيّ دراسة منهجيّة.

وبذلك فقد تناول الفصل الأوّل: الهجاء الشخصيّ الذي اشتمل على هجاء الأفراد، وهجاء الأهل والأقارب؛ إذ وجد من الشّعراء من تعرَّض لأقاربه بالقدح والذّمّ، والتّهاجي بين الشّعراء الذي اتّخذ - في أغلبه- شكل مقطوعات قصيرة لم تكتمل بشكل يؤهّلها لأن تشبه «فنّ النقائض» في العصر الأمويّ. وأخيراً فقد تضمّن هذه الفصل، ما يمكن أن يطلق عليه اسم «شواذّ الأهاجي»، وهو ما خرج عن الصّور

السّابقة، كتعرُّض بعض الشعراء لهجاء دوابّهم، وأدواتهم المنزلية وغير ذلك.

وكان موضوع الفصل الثاني هو الهجاء الاجتماعيّ، فَفُصِّلَ القول في مضامينه التي تمثّلت في نقد الشّعراء لأعيان الدولة ومستخدميها من ولاة ووزراء وقضاة وغيرهم، وكشفهم عن جوانب من تجاوزاتهم وتعدّياتهم المختلفة . وهجاء الشّعراء لأرباب المهن . وإبراز ما كان يحتدم في السّاحة من نزعات مذهبيّة وطائفيّة، إلى جانب تعرُّض بعض الشّعراء للمدن والمرافق العامّة، وتصوير مظاهر من الحياة الاجتماعية ، كالشكوى والمعاناة وانتشار بعض الموبقات.

وخُصِّص الفصل الثالث للحديث عن الهجاء السياسي؛ وذلك ضمن محورين رئيسين:

الأوّل: تناولَ موقفَ الشّعراء (من زاوية شعر الهجاء) من بعض الأحداث الداخليّة التي شهدتها مصر والشام في هذه المرحلة ، كانشقاقات أمراء الشام، ومحاولاتهم الرّامية إلى تقويض أواصر الوحدة في عهد كلّ من نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبيّ، وإبراز جوانب من خلافات بني أيّوب فيما بينهم، وما تركته من آثار سلبيّة على الموقف الإسلامي المهدّد -في الوقت ذاته- بالأخطار الخارجيّة الدّاهمة. وتناولَ هذا المحورُ أيضاً ما شهدته الساحة المصرية من صراعات سياسيّة متكرّرة في أواخر عهد الدولة الفاطميّة. والثاني : تناول موقف الشعراء من الصّراع الخارجي، المتمثّل تحديداً في الغزو الصّليبيّ الذي تعرّض له المشرق الإسلاميّ في القرنين السادس والسابع الهجريّين.

ولا أُغالي إذا ما قلت إنّ صوراً حيّة من «الالتزام» قد تبدّت في هذا الفصل تحديداً، وقد تجسّد ذلك -أوّلاً- في نبذ عدد من الشعراء لمظاهر الفرقة والتفكُّك التي وجدت سبيلاً إلى بعض الحكّام المحليين الذين آثروا مصالحهم الذاتيّة على مصلحة الجماعة. وتجسد هذا الالتزام -ثانياً- في وقفة الشعراء الصّلبة من الغزو الصّليبيّ الطارئ الذي كان للكلمة دورها أيضاً في مقاومته.

أما الفصل الرابع، فجاء لمناقشة الخصائص الفنيّة التي تميّز بها هذا الشّعر، فتناول شكل القصيدة الهجائية ، ووقف عند لغة هذا الشعر وأُسلوبه ،وبحث في بناء صوره وأشكالها.

وقد ينظر إلى إدراج بعض النّماذج الشّعريّة (ولا سيما في بعض مباحث الهجاء الاجتماعيّ والسياسيّ) على أنه من باب التزيُّد، باعتبارها لا تتضمّن هجاءً صريحاً، غير أن المدقّق في هذه النماذج وأمثالها، يجدها تنطلق -في أساسها- من موقف هجائيّ ناقد؛ فالشاعر الذي يشكو -مثلاً- أوضاعه الاجتماعيّة القاسية، فهو إنّما يُعبِّر -بصورة

أو بأخرى- عن حنقه وضيقه بهذا الواقع، وهو موقف ينطوي على قدر من الاستياء، وعدم الرضا الذي لا يبتعد كثيراً عن معطيات الهجاء وحدوده.

وقد جمعت هذه الدّراسة بين منهجين، المنهج التاريخيّ الذي يقوم على ربط النصّ بظروفه التاريخيّة والاجتماعيّة ، ومن هنا فسيكون الاعتماد على التاريخ واضحاً في أجزاء متعدّدة من هذه الدراسة، ذلك أنّ كثيراً من هذه النصوص مرتبط بوقائع محدّدة، يتوقّف فهمها على عمليّة الربط هذه. وتقتضي الإشارة هنا إلى توضيح العلاقة بين الشعر ومجريات الحياة السياسيّة والاجتماعيّة ، فمع أنني أرى أنّ الشّعر ليس تأريخاً، وأن ليس من مهمّة دارس الأدب أن ينظر إليه وَفْقَ هذا التصوّر، إلاّ أن تجريد الشعر من هذا الجانب، والنّظر إليه على أنه بنية معزولة عن الواقع والظروف، أمر فيه بعض المغالاة، فقد كان الشعر ذا ارتباط بحياة العربيّ، وكان لنا -على سبيل المثال- أن تعرّفنا على جوانب ذات غنى من حياة الإنسان الجاهليّ من خلال الشّعر نفسه. ومع هذا فإنني لا أقصد أن أقيّم العصر بالاعتماد على الشعر وحده ، أو أن أتعامل مع هذا الشعر تعاملاً منطقيّاً ، وكأنّه حقائق لا تقبل الجدل، ولكنني قصدت أن أستقرئ رؤى الشّعراء لأحداث عصرهم، وهي رؤى لا يعنينا أن نصفها بالصّحة أو الخطأ، فحسبها أنّها تنقل صورة حيّة لكثير من مناحي الحياة وقتذاك، وهي صورة نفتقدها في كثير من المصادر.

أمّا المنهج الثاني الذي اعتمدت عليه في هذه الدراسة فهو المنهج الأدبيّ التحليليّ الذي يقوم على تحليل الشعر واستنطاقه استنطاقاً داخلياً لاستخلاص الأحكام الفنية منه.

ويطيب لي في نهاية هذا العرض، أنْ أتقدم بجزيل الشُّكر والعرفان من أستاذي الدكتور شفيق الرقب الذي لم يدّخر وسعاً في توجيه عثراتي، والأخذ بيديّ إلى سبل الصّواب ، فكان لإرشاداته السديدة، ولمساته الدقيقة أكبر الأثر على هذه الدراسة وصاحبها. كما يطيب لي أيضاً أن أتوّجه بجزيل الشكر والتقدير من أستاذيّ الكريمين: الأستاذ الدكتور محمد الشوابكة والدكتور فايز القيسي على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة. مقدّراً لهما عناء ما بذلا من جهدٍ في قراءتها، وتقويم ما قد يعتورها من هفوات وأخطاء.

وبعد؛

فآمل أن أكون وفقت في دراسة هذا الموضوع، فقد حاولت جاهداً أن أستقصي أطرافه، وألم أشتاته المتفرقة، ما وسعني الجهد في ذلك.

والله من وراء القصد

مدخل: عوامل ومؤثرات

للأدب ارتباط وثيق بالمتغيّرات السِّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة التي يمرُّ بها المجتمع، ولهذه المتغيّرات دور في استثارة اتّجاهات أدبيّة معيّنة، وقضايا دون غيرها؛ فتنشأ موضوعات مستجدّة، وتختفي موضوعات أخرى، تبعاً لظروف كلِّ مرحلة وأحوالها، ومثل هذا التأثير ليس مقتصراً على النّاحية الموضوعيّة (المضمونيّة) في الأدب، وإنّما هو ينسحب أيضاً على القضايا الفنيّة التي تتشكّل بتأثير من ذوق أهل العصر وطبيعة ثقافتهم. وشعر الهجاء -موضوع هذه الدّراسة- من أكثر الموضوعات ارتباطاً بالواقع وقضاياه، وقد كان لأحوال العصر المختلفة، أثرها في كثرة القول فيه، حتّى بدا (هذا الشّعر) ظاهرة تسترعي النظر؛ ولعلّ أبرز ما يستوقف الدّارس من قضايا هذه الفترة، قضيّة الغزو الصّليبيّ الذي امتدّ زهاء قرنين من الزّمن، شهدت خلاله المنطقة تغيّرات جسيمة، وتحوّلات عميقة، مسّت نواحي مختلفة ومتعدِّدة من حياة النّاس. ولذا فإنّه يبدو من المناسب تقديم ملخّص عامّ لمجريات هذا الصِّراع، ومراحله المختلفة، لما لذلك من صلة مباشرة باتجاهات الشّعر في هذه الفترة، وما تمخّض عن ذلك من موضوعات شعريّة مرتبطة بموضوع هذا البحث تحديداً.

-١-

كانت بلاد الشّام تعاني قبيل الغزو الصّليبيّ من الضّعف والانقسام بسبب تفرّق كلمة الحكّام المحلّيّين، واختلاف غاياتهم وتضاربها[١]. مما سهّل المهمّة أمام الصّليبيين الذين تمكّنوا في فترة قياسيّة من الاستيلاء على أجزاء واسعة من البلاد؛ فاستولوا في سنة

---

(١) ابن القلانسيّ، حمزة بن أسد التميميّ (ت٥٥٥هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، ط١، دار حسّان، دمشق، ١٩٨٣م: ١٩٨، ٢٢٦؛ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن (ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م: ١٠/ ٤٨٢.

٤٩١هـ على أنطاكيا[١]، واستولوا في السّنة ذاتها على معرة النعمان[٢]. وفي سنة ٤٩٢هـ سقطت القدس في أيديهم بعد أن استباحوا أهلها، وقتلوا منهم أعداداً كبيرة[٣]، ثمّ استولوا في سنة ٥٠٣هـ على طرابلس[٤]، وقد تخلّل هذا المدّ الصليبيّ سقوط بعض المدن الهامّة في أيديهم، من مثل : قيسارية سنة ٤٩٤هـ[٥]، وعكا سنة ٤٩٧هـ[٦]، وصيدا سنة ٥٠٤هـ[٧]. وهكذا يلاحظ أنّ معظم مدن الشّام ومراكزه الحيويّة قد باتت في أيدي الصّليبيين.

وأمّا مصر، فقد كانت في هذه الفترة تحت حكم الدّولة الفاطميّة التي بدأ الوهن يتسلّل إليها في أخريات أيّامها[٨]، وكانت تجسّد كذلك في سياستها الرّامية إلى التّوسُّع على حساب الخلافة العباسيّة،مظهراً آخر من مظاهر الانقسام التي شهدها العالم الإسلاميّ في هذه المرحلة المضطربة من حياته[٩].

حتى هذا الوقت كان ميزان القوى في صالح الصّليبيين، غير أنّ الأمر قد تعدّل بعض الشّيء بظهور عماد الدّين زنكي[١٠] الذي لم تثنه مواقف عدد من القادة المحلّيين

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٢١.

(٣) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: ٢٢٢؛ ابن الأثير ، الكامل: ١٠/ ٢٨٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٤٧٥.

(٥) المصدر السابق: ١٠/ ٣٢٥.

(٦) ابن القلانسي، تاريخ دمشق:٢٣٢، ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٣٧٢.

(٧) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٤٧٩.

(٨) حول أحوال الخلافة الفاطمية في هذه الفترة، انظر مثلاً: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطميّة، ط٣، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٦٤م: ١٧٩-٢٠١؛ أيمن فؤاد سيّد، الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢م: ٢٠٧-٢٤٤.

(٩) فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبيّة (العصر الفاطميّ والسّلجوقيّ والزنكي)، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م: ٧٢.

(١٠) في ترجمة عماد الدين زنكي وأخباره انظر مثلاً: ابن الأثير، عز الدين علي (ت٦٣٠هـ)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة بالموصل، تحقيق : عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة ، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣م: ٣٢ وما بعدها؛ ابن خلكان ، أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت ، بلا تاريخ: ٢/ ٣٢٧.

الذين واجهوا جهوده بالرّفض والتّنكُّر[1]، عن محاولة توحيد الجبهة الإسلاميّة؛ إذ استطاع أن يعمل على تقوية الموقف في الجزيرة الفراتيّة[2]، وأن يضمّ بعض المدن الشّاميّة إلى حوزته[3]. وقد رافق هذا المسعى شيء من التّقدُّم على صعيد المجابهة مع الصّليبيين، من خلال استرداد بعض الأماكن المحتلّة التي توِّجت بتحرير مدينة الرُّها سنة ٥٣٩هـ[4]، مما كان سبباً في توجيه حملة صليبيّة ثانية إلى بلاد الشّام[5].

وما أن يبزغ نجم نور الدّين محمود[6](ولد عماد الدّين)، حتّى يبدأ المدّ الإسلاميّ في وجه الوجود الصّليبيّ بالتّصاعد، وكان لا بدّ لنور الدّين، والحالة هذه أن يسعى إلى توحيد الجهد الإسلاميّ في ظلّ دولة قادرة على الوقوف أمام الصّليبيين، فعمل- من أجل هذه الغاية - على مراسلة بعض هؤلاء الحكّام الذين لم يكونوا مستجيبين لمبادراته دائماً[7]، وكان له أن تمكّن - بعد غير محاولة - من ضمّ دمشق سنة ٥٤٩هـ إلى أملاكه، بعد ما بدا من حكّامها من مواقف مناهضة لجهوده[8].

ويقتضي المقام الإشارة إلى بعض ما قام به نور الدّين من أعمال جهاديّة تجاه الصّليبيين في هذا الوقت؛ ففي سنة ٥٤١هـ استردّ مدينة الرّها التي استغلّ الصّليبيون

---

(١) ابن الأثير، الباهر: ٣٨؛ أبو شامة المقدسيّ، شهاب الدين عبدالرحمن (ت٦٦٥هـ)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزّيبق، ط١، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م: ١/١١٨.

(٢) ابن الأثير ، الباهر: ٣٧، ٤٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١٠/٦٤٩-٦٥٠.

(٤) حول فتح الرُّها انظر: ابن القلانسيّ، تاريخ دمشق: ٤٣٦؛ ابن الأثير، الكامل: ١١/٩٨؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: ١/١٣٨.

(٥) محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، ط٢، دار البشير، عمان، ١٩٨٨م: ١٧.

(٦) في أخبار نورالدين انظر: ابن قاضي شهبة، تقي الدّين أبو بكر (ت٨٧٤هـ)، الكواكب الدرية في السيرة النوريّة، تحقيق : محمود زايد، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.

(٧) ابن الأثير، الباهر: ١١٢-١٢٣؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: ١/٢٤١.

(٨) ابن الأثير، الباهر: ١٠٦.

فرصة مقتل عماد الدّين سنة ٥٤١هـ فتمكّنوا من الاستيلاء عليها[١]، وفي سنة ٥٤٤هـ أوقع بهم هزيمة في (إنّب)[٢]، وفي سنة ٥٤٥هـ توّج نور الدّين هذه الانتصارات بأسر القائد الصليبي (جوسلين)[٣].

وقد كان لأحوال مصر الفاطميّة في هذه الفترة، وما كان يتخلّلها من صراعات سياسيّة، ونزاعات وزاريّة متكرّرة، أثر في دفع نور الدّين إلى التّفكير جدّياً في ضمّها إلى دولته ؛ فوجد في استجارة الوزير المصريّ(شاور)[٤] به سنة ٥٥٨هـ[٥]، فرصة في بدء التّخطيط لهذه الغاية، حيث يقوم بتوجيه عدد من الحملات بقيادة أسد الدّين شيركوه[٦] الذي يتمّ له النّجاح - بعد عدد من الحملات- في هذه المهمة، غير أنّه ما أن يجلس على كرسي الوزارة في مصر، حتى يوافيه الأجل المحتوم سنة ٥٦٤هـ[٧]، فيخلفه في تسلُّم الوزارة ابن أخيه صلاح الدّين الأيوبيّ الذي كان قد رافقه في هذه الحملات، وما هي إلا فترة وجيزة حتى يقوم صلاح الدين-بأمر من نور الدّين- بقطع الخطبة للخليفة الفاطميّ، وإقامتها للخليفة العباسيّ في بغداد، منهياً بذلك حكم الدّولة الفاطميّة في مصر[٨]، وقد كان لهذه الخطوة أثر كبير في تكثيف جهود القطرين، ليقفا

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: ٤٥٠.

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: ٤٧٣؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: ١/ ٢٠٤؛ وإنّب حصن من أعزاز من نواحي حلب. انظر: ياقوت الحموي، (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م: ١/ ٢٥٨.

(٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين: ١/ ٢٤٦.

(٤) هو أمير الجيوش شاور بن مجير السعديّ، تغلّب على الوزارة بعد مقتل الصالح بن رزيك، وأصبح وزيراً للعاضد الفاطميّ سنة ٥٥٨هـ، قتل سنة ٥٦٤هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٤٣.

(٥) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية: ١٦٤.

(٦) هو شيركوه بن شاذي بن مروان، أخو نجم الدين أيّوب، وعمّ صلاح الدين، تولّى مصر في عهد نور الدين زنكي، توفي سنة ٥٦٤هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٧٩.

(٧) أبو شامة، كتاب الروضتين: ٢/ ٦٨.

(٨) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٣٦٨؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين: ٢/ ١٨٩ وما بعدها.

متماسكين معاً في وجه الخطر الدّاهم.

ولكنّ مثل هذه الوحدة لم تلبث أن تعرّضت لبعض التّهديد بعد وفاة نور الدّين سنة ٥٦٩هـ[١]، إذ يستغلّ بعض المقرّبين من البيت الزّنكيّ صغر سنّ ابن نور الدّين، لتحقيق بعض المكاسب والغايات، مما يدفع صلاح الدّين إلى قصد بلاد الشّام لإصلاح الحال قبل تفاقمها، فيدخل دمشق سنة ٥٧٠هـ[٢]، ويضطر تحت وطأة الخلافات مع الزّنكيّين إلى ملاقاتهم في موقعة قرون حماة سنة ٥٧٠هـ[٣]، حيث يلحق بهم هزيمة نكراء، ويلاقيهم ثانية في تلّ السّلطان سنة ٥٧١هـ، فيهزمهم أيضاً[٤]، وهكذا بقي شأن حلب مع النّاصر صلاح الدّين، حتى ضمّها إلى أملاكه سنة ٥٧٩هـ[٥].

وتعدُّ فترة صلاح الدّين الأيوبيّ من أغنى فترات الحروب الصّليبيّة في الجهاد، فقد تقلّصت في عهده حدود الممالك الصّليبيّة التي لم يتوانَ عن شنّ الهجمة تلو الأخرى عليها[٦]، وكان ذروة ما حقّقه من نصر مؤزّر في معركة حطين الخالدة سنة ٥٨٣هـ[٧] التي تمكّن على إثرها من استرداد بيت المقدس في السّنة ذاتها. ومن الطّبيعيّ أن يكون لمثل هذه الانتصارات التي لم يتبقَّ بعدها من ممالك الصّليبيين إلا القليل، أثر في الإعداد للحملة الصليبيّة الثّالثة[٨] التي ما أن تصل سواحل الشّام حتّى تقيم حصاراً عنيفاً على

---

(١) أبو شامة، كتاب الروضتين: ٢/ ٣٠٥.

(٢) ابن شدّاد ، بهاء الدين يوسف (ت٦٣٢هـ)، النوادر السُّلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشّيال، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م: ٥٠.

(٣) المصدر السابق: ٥١.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٤٢٧.

(٥) ابن واصل ، محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، بلا تاريخ: ٢/ ١٤١.

(٦) عماد الدين الأصفهاني، محمد بن محمد (ت٥٩٧هـ)، البرق الشاميّ، تحقيق: مصطفى الحياري، ط١، مؤسسة عبدالحميد شومان، عمان، ١٩٨٧م: ٣/ ٣٦ وما بعدها.

(٧) ابن شداد، النوادر السلطانية: ٧٥.

(٨) ابن الأثير، الكامل: ١٢/ ٣٢.

مدينة عكا، تضطر على إثره المدينة إلى التّسليم سنة ٥٨٧هـ[١].

وبوفاة صلاح الدّين سنة ٥٨٩هـ[٢]، يدخل الصّراع مع الصّليبيين دوراً جديداً؛ إذ إنّ الوحدة التي عمل صلاح الدّين جاهداً على تحقيقها، سرعان ما بدأت بالتفكُّك، بسبب النّزاعات التي حصلت بين أبناء البيت الأيّوبي[٣]. غير أنّ الملك العادل[٤] يتمكّن ثانية من توحيد الدّولة الأيوبيّة[٥]، ويقوم بتقسيمها بين أبنائه، وبموته سنة ٦١٥هـ، تبدأ الانقسامات والنزاعات من جديد بين بني أيّوب[٦]. وقد حاول الصّليبيون استغلال هذا الوضع المتردّي، إذ يوجّهون حملة صليبيّة إلى مصر[٧]، لاعتقادهم أن التمكُّن منها، كفيل بأن يحقّق لهم الاستيلاء على الدّيار المقدّسة. ومن الأحداث الهامّة التي شهدتها هذه المرحلة، تخريب بيت المقدس وهدم سوره سنة ٦١٦هـ[٨]، على يد الملك المعظّم عيسى[٩]، بسبب خوفه - كما يُروى- من تعرُّض الصّليبيين له بالاحتلال. ومن هذه

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية: ١٦٠-١٧٠.

(٢) حول وفاة صلاح الدّين وشدّة وقعها على المسلمين انظر: المصدر السابق: ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) في خلافات بني أيوب انظر: هنريت سابا، اتجاهات الشّعر العربيّ في القرن السابع الهجريّ في بلاد الشام، رسالة دكتوراه مخطوطة ، جامعة القاهرة، ١٩٨٠م: ١٥-٢٤.

(٤) هو أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شادي، الملقب بالملك العادل، أخو السّلطان صلاح الدين ، استطاع أن يستولي على الحكم ويجعله في أبنائه بعد النّزاع الذي دبّ بين أبناء صلاح الدين، توفي سنة ٦١٥هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ٧٤-٧٩.

(٥) يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، بلا تاريخ: ١٩٠.

(٦) هنريت سابا، اتجاهات الشعر العربي في بلاد الشّام: ١٩.

(٧) غوانمة، إمارة الكرك الأيوبيّة: ١٩٥.

(٨) حول تخريب بيت المقدس انظر: أبو شامة المقدسي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف "بالذّيل على الروضتين"، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م: ١١٥-١١٦؛ ابن واصل، محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب ، القاهرة، ١٩٧٢م: ٤/ ٣٢.

(٩) هو الملك المعظّم عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، كان محبّاً للأدب، ونسب إليه بعض الشعر، توفي سنة ٦٢٤هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٩٤-٤٩٦.

الأحداث أيضاً، تنازل الملك الكامل[1] عن بيت المقدس سنة ٦٢٦هـ للصّليبيين[2]، مما كان له أثر سلبيّ في نفوس كثير من النّاس. وكان لموت الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ دور كذلك في تجدُّد خلافات البيت الأيوبيّ المتكرّرة التي كان من ضمنها أن دبّ النّزاع هذه المرّة بين نجم الدّين أيّوب[3]، وعمّه الصّالح إسماعيل[4]، فاستعان الأوّل بالخوارزميّة[5] الذين عاثوا فساداً في البلاد. واستعان الثّاني وحلفاؤه من الأيوبيين بالفرنج[6]. وهكذا كان حال الدّولة الأيوبيّة في أيّامها الأخيرة : حالة من التمزّق والخلافات، ومساومة متكرّرة على مقدّسات المسلمين. وقد كان هذا كفيلاً أن يضع نهاية لهذه الدولة التي لم تعد قادرة على المواصلة. ومع أنّ معركة المنصورة سنة ٦٤٨هـ التي هزم فيها لويس التاسع ملك فرنسا شرّ هزيمة[7]، كانت تحت إمرة أيوبيّة، إلاّ أنّ دور المماليك الذين أكثر الملك نجم الدّين أيّوب من شرائهم للتقوّي بهم، واضح لا ينكر فيها. وقد تعزّز لهم مثل هذا الدّور كذلك من خلال تصدّيهم للمغول الذين بدأت جموعهم باكتساح الشّام،

---

(١) هو أبو المعالي محمد بن الملك العادل بن أيوب، ملك مصر وتوفي سنة ٦٣٥هـ، انظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان: ٥/ ٧٩-٨٩.

(٢) حول تسليم بيت المقدس، انظر: ابن الأثير، الكامل: ١٢/ ٤٨٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب: ٤/ ٢٤١؛ ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة: ٦/ ٢٧١؛ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحيّ (ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ: ٥/ ١١٨.

(٣) هو الملك الصّالح أيوب بن الملك الكامل محمد. . . من كبار الملوك الأيوبيين بمصر، أغار الفرنج في أواخر عهده على دمياط، توفي سنة ٦٤٧هـ. انظر: خير الدين الزركلي، الاعلام، ط٨، دار العلم للملايين، ١٩٨٩م: ٢/ ٣٨.

(٤) مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلاميّة، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون، دار الفكر، ؟، بلا تاريخ: ١٤/ ١١٤-١١٥.

(٥) الخوارزمية فرقة خالفت السُّلطان غياث الدين كيخسرو صاحب الروم، وهربت إلى بلاد الشام. انظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٧م: ج١ ق١، ٢٥٥.

(٦) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق٢: ٣٠٢-٣٠٣.

(٧) حول معركة المنصورة وأسر لويس التاسع، انظر: جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفا سكور)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م: ١٩٧-٢٥٧.

بعد أن أسقطت الخلافة العباسيّة في بغداد سنة ٦٥٦هـ[١]، حيث تمكّنوا من هزيمتهم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ[٢]، التي تعدّ «في نظر بعض المؤرّخين من أشدّ المعارك حسماً، إذ كانت فاتحة الجرأة على التتار، وزوال رعبهم المضخّم من نفوس المسلمين، ونهاية للشّائعات (أو الحقائق) التي كانت تقول - حتّى حدثت عين جالوت - إنّ التتار لا يمكن قهرهم. وقد حقّقت من جديد عودة الوحدة بين مصر والشّام»[٣].

وقد كان لهذه البداية القويّة لدولة المماليك دور في تصفية الوجود الصّليبيّ من المنطقة، حيث تحقّق ذلك من خلال ثلاثة فتوح بارزة هي على التّوالي : فتح أنطاكيا سنة ٦٦٧هـ[٤]، على يد الظّاهر بيبرس[٥] وفتح طرابلس سنة ٦٨٨هـ[٦]على يد السُّلطان سيف الدّين قلاوون[٧]، ثمّ فتح عكا سنة ٦٩٠هـ[٨]، على يد الأشرف خليل[٩] الذي طويت على يده آخر صفحات الحروب الصّليبيّة من بلاد الشّام. وقد كان لسلاطين المماليك كذلك، دور جهاديّ آخر، تمثّل في صدّهم غزوات المغول المتجدّدة على بلاد الشّام التي لم تنتهِ بمعركة عين جالوت. ومن الطّبيعيّ بعد أن تمكّن المماليك

---

(١) ابن كثير الدّمشقي، أبو الوفاء الحافظ (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دقّق أصوله وحقّقه: أحمد أبو ملحم وآخرون، ط٣، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧م: ١٣/ ٢١٣.

(٢) المصدر السابق: ١٣/ ٢٣٣.

(٣) إحسان عبّاس، تاريخ بلاد الشّام في عصر المماليك، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٨م: ٢٠٣.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ١٣٨.

(٥) هو ركن الدّين بيبرس البندقداري الصالحيّ، انتقلت الخلافة العباسيّة في أيّامه إلى مصر سنة ٦٥٩هـ، حقّق عدداً من الانتصارات على الصليبيين والتتار، توفي سنة ٦٧٦هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٩٤؛ الزركليّ، الأعلام: ٢/ ٧٩.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٢٠-٣٢١.

(٧) هو أبو المعالي سيف الدين ، أول ملوك الدولة القلاوونيّة في مصر والشّام، توفي بالقاهرة سنة ٦٨٩هـ. انظر : ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٩٢؛ الزركلي ، الأعلام: ٥/ ٢٠٣.

(٨) المقريزي، السلوك ، ج١، ق٣، ٧٦٢.

(٩) هو الأشرف خليل بن قلاوون الصالحيّ، في عهده تمّ استرداد عكا وصور وصيدا من الصليبيين، قتل غيلة سنة ٦٩٣هـ. انظر : الكتبي، محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م: ١/ ٤٠٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ٥/ ٤٢٢.

من إزالة الخطرين معاً (الصّليبيّ والمغوليّ)، أن يقبل بهم النّاس حكّاماً، وأن يجدوا فيهم الذّائد الصّلب عن حمى البلاد الإسلاميّة ومقدّساتها.

ولم يكن الشعر إزاء هذه الأحداث غائباً، فقد ساير جانباً من مجرياتها، وعبّر عن كثير من وقائعها، واتّجه قسمٌ منه إلى الناحية النّضاليّة، فتعرّض الشعراء إلى وصف أخطار هذا الغزو ونتائجه[1]، وعمدوا إلى استثارة الهمم، ورفع ما يسمّى اليوم «بالروح المعنويّة» لدى المقاتلين عن طريق تحريضهم على القتال، والنّيل من عدوّهم، والتقليل من شأنه وقدره، وهو ما سيتبدّى واضحاً ومفصّلاً في أجزاء لاحقة من هذه الدّراسة .

-٢-

وقد رافق هذه الأحوال السياسيّة المتقلّبة - في بعض الأحيان - سوء في المجالات الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي يمكن إجمال بعضها في الخطوط العريضة التّالية :

- كانت طبقة الفلّاحين من أكثر الطّبقات الاجتماعيّة التي ساءت أوضاعها، بسبب ما كان يفرض عليها من ضرائب، وما كانت تواجهه من غارات صليبيّة استهدفت تخريب زروعها وحرقها[2].

- كان لنظام الإقطاع الذي ساد في العصور الوسطى[3]، دور في تقسيم المجتمع إلى طبقتين متباينتين[4]: طبقة الأمراء الإقطاعيين، وما يلحق بهم من كبار التُّجار، وطبقة الفقراء التي كانت تابعة للطّبقة الأولى، وضحيّة فعليّة لمساوىء هذا النّظام وأضراره.

---

(١) انظر تفصيلاً لهذا الموضوع في: حلمي الكيلاني، الخطر الصليبيّ: أبعاده ومقاومته (من خلال شعر معاصريه)، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، م١٠، ع٢، جامعة مؤتة، ١٩٩٥م: ٢٦٣-٢٩٧.

(٢) سعيد عاشور، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ضمن كتاب: مؤتمر بلاد الشام (تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر)، الدار المتحدة للنشر ، بيروت، ١٩٧٤م: ٢٢٩.

(٣) إبراهيم طرخان، النّظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربيّ، القاهرة، ١٩٦٨م: ١٧١.

(٤) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبيّ، دار المعارف ، مصر، بلا تاريخ: ٤٨.

- أدى اعتماد الزّراعة على الأمطار في بعض النّواحي إلى ضوائق معيشيّة في بعض المواسم[١]؛ فارتفعت الأسعار وعمّ الغلاء في بعض الأوقات[٢]، ودفع ذلك النّاس إلى القيام ببعض الفتن والثّورات[٣]، وزاد الحال سوءاً، حدوث بعض الكوارث البيئيّة والطبيعيّة؛ كالزلازل[٤]، والحرائق[٥]، وبعض الأوبئة الفتاكة[٦].

- تركت الأحوال السّياسيّة المتقلّبة آثاراً سلبية على الواقع الاجتماعيّ والاقتصاديّ في هذه المرحلة؛ فقد اشتدّت -مثلاً- موجة الغلاء نتيجة للحصار المفروض على بعض المدن بسبب من خلافات بني أيّوب المتفاقمة، وذلك على نحو ما حدث-مثلاً- في سنة ٦٤٣هـ، حينما شدّد الخوارزميّة(الذين استعان بهم بعض الملوك الأيوبيّين على بعضهم بعضاً) على أهل دمشق، وضيّقوا عليهم بعدما ألحقوا بهم من قتل ونهب[٧]. كما وجدت بعض القبائل التي كانت تستوطن بادية الشّام في مثل هذه الأوضاع فرصة للقيام بأعمال من الغزو والسّطو حيثما كان ذلك ممكناً[٨]. كما استغلّ الفرنج ظروف النّزاع هذه، فأغاروا على المدن، وشنّعوا بسكّانها الّذين اضطروا إلى تركها مكرهين[٩]، ولم يقتصر الأمر على هذه الظروف، وإنما كانت تعدّياتهم تتكرّر في فترات مختلفة[١٠].

---

(١) انظر: ابن العديم، كمال الدين عمر (ت٦٦٠هـ)،زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق : سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٨م: ٣/ ٢١٠؛ ابن الأثير، الكامل: ١٢/ ٥٠٤؛ أبو شامة المقدسيّ، الذّيل على الرّوضتين: ١٦٨.

(٢) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) إغاثة الأمّة في كشف الغمّة، تحقيق : محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيّال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م: ٢٨، ٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٨/ ١٢٦.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب: ٢١٢.

(٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: ٥١٤، ٥١٨؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية: ١٨٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٨/ ٣٦.

(٥) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية: ١٧٢-١٧٣؛ ابن العماد ، شذرات الذهب: ٥/ ٣٧٠.

(٦) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: ٤٩٤، ٥٠٨.

(٧) أبو شامة ، الذيل على الروضتين: ١٧٥.

(٨) ابن الأثير، الباهر: ٤٦.

(٩) ابن العماد الحنبليّ، شذرات الذهب: ٥/ ٦٥.

(١٠) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: ٥١٧؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية: ٩٢.

وكان للغزو المغوليّ أيضاً آثاره في هذا المجال؛ إذ أثارت جرائم المغول، وتجاوزاتهم الخطيرة على سكّان البلاد التي يحتلّونها هلع النّاس الذين اندفع كثير منهم هاربين حال سماعهم قدوم جند المغول، تاركين وراءهم بيوتهم وممتلكاتهم[1].

- وإلى جانب ما سبق، كانت ضروب من الفساد تعلن عن نفسها بين الفينة والأخرى؛ فبدت من بعض الحكّام تجاوزات طال شيء منها حياة بعض الناس[2]. ووجدت تعدّيات من قبل بعض الوزراء والمستخدمين الذين انتهز بعضهم الفرص للاختلاس والسرقة[3]. وساءت سيرة بعض القضاة، فتخطّوا حدود العدل في أحكامهم؛ فقد روى الكتبيّ -مثلاً- أنّه لما ملك الصالح إسماعيل دمشق، ولّى قضاءها رفيع الدين الجيلي الشافعيّ، فاتفق (هذا القاضي) مع أحد الوزراء « على المسلمين، وكان عنده شهود زور ومن يدعي زوراً، فيحضر الرّجل المتمول إلى مجلسه، ويحضر المدعي عليه بألف دينار أو بألفين فينكر، فيحضر الشهود فيلزمه ويحكم عليه، فيصالح غريمه على النصف، أو أكثر أو أقلّ، فاستبيحت أموال الناس»[4].

- وكان لمثل هذه المؤثرات الاجتماعيّة انعكاسها على حياة بعض الشّعراء الذين لم يعد أكثرهم- ابتداء من النصف الثاني من القرن السّابع الهجريّ-متفرّغاً لأصول فنّه كما كان الحال في عصور أدبيّة سابقة، حينما كان الشاعر يُكافىء على القول بأعطيات مجزية حفظت له حياة كريمة، وجعلته يخلص لفنّه، ويحرص على الاهتمام به وإجادته، وقد دفع مثل هذا الواقع بعض شعراء هذه الفترة إلى الانخراط في حياة العمل والكفاح، طلباً للرزق ولقمة العيش، فافتقد جزء من فنّهم مبدأ الإجادة-والشّعر فنٌّ يحتاج تفرُّغاً وصبراً وطول تأمّل-واقتصر جهد كثير منهم على البحث عن فكرة

---

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين: ٢٠٣ وما بعدها؛ ابن تغري بردي، النجوم الزّاهرة: ٧/ ٩١.

(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين: ١٨٠؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٤٢٧-٤٢٨.

(٣) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ١٩٤.

(٤) الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ٣٥٢-٣٥٣.

صغيرة أو نكتة بديعيّة في مقطوعات قصيرة وأبيات محدودة[١]. واختفت في جانب من شعرهم صفتا الأصالة والابتكار اللتان تتطلّبان ظروفاً غير ظروفهم، وشروطاً لم تكن متاحة لهم.

وهكذا وجد بعض الشُّعراء أنفسهم مضطرين - بحكم واقعهم المعاند- إلى مزاولة بعض المهن والحرف؛ فقد عمل الشّاعر إبراهيم بن علي الحرّاني[٢]، المعروف بـ «عين بصل» حائكاً، ومما قاله في الرّد على من لامه في اتّخاذ هذه المهنة[٣]:

وقائلٍ قالَ إبراهيمُ عـــينُ بصل ... أَضْحى يبيعُ قباً في النَّاسِ بَعْـدَ قبا

فقلتُ : مَهْ يا عذولي لا تُعنّفني ... لوجعتَ قتَ ولو أفلستَ بعتَ قبا

ومن الشُّعراء الذين عرفوا بمزاولة المهن أيضاً: ابن المسجّف العسقلاني[٤] الذي عمل في التّجارة ، وشمس الدّين الدمشقي[٥] الذي عمل في صناعة الدّهان ، وأحمد بن عبد الدايم[٦] الذي عمل نسّاخاً ، ومظفر الذّهبي[٧] الذي كان مصوّراً، وغيرهم[٨].

وواضح أنَّ مثل هذه الأوضاع الاجتماعيّة، من شأنها أنْ تدفع الشّعراء إلى التعبير

---

(١) هنريت سابا، اتجاهات الشّعر العربيّ في بلاد الشّام: ٩٧.

(٢) هو إبراهيم بن علي بن خليل الحراني، عمل حائكاً، وتوفي سنة ٧٠٩هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٣٥.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ٣٦.

(٤) هو عبدالرحمن بن أبي القاسم، شاعر هجّاء، نعت بالظّرافة والخلاعة، انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٢٨٢.

(٥) هو محمد بن علي بن عمر المازنيّ الدّهان، شاعر دمشقيّ، كان يعمل في صناعة الدهان، توفي سنة ٧٢١هـ. انظر: الصّفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، باعتناء س. دريدرينغ، فرانز شتاينر، ڤيسبادن، ١٩٩٢م: ٤/ ٢٠٩.

(٦) هو أحمد بن عبدالدايم بن نعمة... بن بكير، لازم مهنة النسخ خمسين سنة، وتوفي سنة ٦٦٨هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٨١.

(٧) هو مظفر بن محاسن بن علي، ولد في دمشق سنة ٦٠٧هـ، وتوفي في سنة ٦٨٦هـ، انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ٤/ ١٥٠.

(٨) ومن هؤلاء الشّعراء أيضاً: ظافر الحدّاد (ت٥٢٩هـ)؛ وأبو الحسين الجزّار (ت٦٧٩هـ)؛ وسراج الدّين الورّاق (ت٦٩٥هـ)؛ ونصير الدّين الحماميّ (ت٧٠٨هـ) ؛ وابن دانيال الكحّال (ت٧١٠هـ). وانظر دراسة مستقلة لهذا الموضوع في : عبدالعليم القباني، مع الشّعراء أصحاب الحرف، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف والنّشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

عن وقع أثرها في نفوسهم، فكثر بذلك الشّعر الذي يصوّر مظاهر الفساد الاجتماعيّ، وسرت في هذا الشّعر صور من الشكوى والضيق والتبرُّم، وغير ذلك مما سيتّضح في حينه، وهي مضامين تُعدَّ انعكاساً لواقع عاشه الشُّعراء، وعانوا من قسوته وتأثيره.

-٣-

وبعد؛ فليست طلبتي - في هذا السِّياق- أن أقدِّم عرضاً شاملاً لواقع الحياة في هذا العصر بنواحيها المختلفة، وإنّما كان القصد إبراز جوانب ذات علاقة وتماسّ مباشرين بموضوع هذه الدّراسة ، ولمّا كان البحث في هذه الجوانب واسعاً ومتشعّباً، فقد عمدت إلى تضييق القول فيه، فاتبعت منهجاً انتقائيّاً يقدّم ملامح عامّة (ولعلها تكون دالّة) لبعض المظاهر والمؤثّرات دون عناية بالتفاصيل، ومتابعة للجزئيات الدقيقة.

ولا بدّ من التنبيه على أنّ هذا العرض يقتصر- في الجانب الاجتماعيّ منه تحديداً- على وجه واحد من صورة الواقع لهذه المرحلة، هو الوجه السّلبيّ منها، وبذا فإنني لا أقصد أن أدين هذا العصر، أو أن أظهره بصورة سلبيّة قاتمة، فقد كان لهذا العصر جوانب مشرقة وضّاءة (ربّما فاقت الجوانب السلبيّة) ، ولكنّ موضوع هذه الدراسة تطلّب الوقوف عند هذه الظواهر دون غيرها، ولا أحسب - مع ذلك- أنَّ أي عصر- مهما كثرت حسناته ومزاياه- يخلو من مظاهر الفساد والانحراف.

وقد كان الفصل بين صورتي القطرين- المصريّ والشّاميّ- في هذه الدّراسة،غير ممكن في كثير من الأحوال؛ فإذا كان مثل هذا الإجراء يُعدّ صعباً حتى في الدراسة التاريخية بسبب ما كان بين هذين القطرين من التحام قويّ في مختلف مظاهر الحياة العسكريّة والسياسّية والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة طوال هذه الفترة[1]، فإنّ هذا المطلب يغدو أكثر صعوبة في مجال الشّعر بشكل خاصّ، وإن كان القارىء سيلحظ -مع ذلك- شيئاً من هذه الخصوصيّة لكلا القطرين في هذا الموضع أو ذاك .

---

(١) إحسان عبّاس، تاريخ بلاد الشّام في عصر المماليك: ٧٠.

الفصل الأوّل

الهجاء الشّخصيّ

أـ هجاء الأفراد

ب- هجاء الأهل والأقارب

جـ- التّهاجي بين الشّعراء

د- شواذّ الأهاجي

أ- هجاء الأفراد

-١-

يشكّل هجاء الأفراد قدراً كبيراً من شعر الهجاء في هذه الفترة، إذ تصادف الدّارس منه نماذج كثيرة حفلت بها الدّواوين الشّعريّة وكتب التّراجم والاختيارات. ويلاحظ أنّ قسماً من هذا الهجاء كان وليد الحاجة والعوز لدى الشّعراء الذين إذا ما صدّهم بعض الموسرين؛ فإنّ ألسنتهم سرعان مع تنطلق للنّيل منهم، والانتقاص من قدرهم، فقاسم الواسطي[١]-مثلاً- يبدي خيبته من جماعة، حين لم يجد عندهم عطاءً يُجْزى، أو موئلاً يُرتجى، يقول[٢]:

وَيُبدُونَ الطّلاقَةَ من وجوهٍ كما يَبْدو لك الحَجَرُ الصَّقيلُ

إذا قامُوا لمجدٍ أَقْعَدَتْهُمْ مسالكُ مالَهُمْ فيها سَبيْلُ

أما هبة اللّه بن عرّام[٣]، فيظهر ندمه على إجهاد قريحته في قومٍ ليسوا بأهل لمدح، فهم -كما يرى- لئام، لا يُحصّل منهم شيء سوى «طيب الكلام»؛ مما يدفعه إلى السّخرية منهم، والحطّ من شأنهم، حيث يعلن أنّه لو جعل هذا الشّعر في كرام النّاس لكان له فيه خير عظيم، وذكر لا يموت مع الأيّام[٤]:

أَتعبْتُ نفسي وفِكري في مَدْحِ قَومٍ لئامِ

---

(١) هو القاسم بن القاسم بن عمر الواسطيّ، أديب ولغويّ، توفي في حلب سنة ٦٢٦هـ. انظر: ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، معجم الأدباء، الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ: ١٦/ ٣٠٥؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ١٩٢.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ١٩٤.

(٣) من شعراء الصعيد، توفي سنة ٥٥٠هـ. انظر: العماد الأصفهاني، محمد بن محمد (ت٥٩٧هـ)، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم مصر)، تحقيق: أحمد أمين ورفيقيه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م: ٢/ ١٨٦.

(٤) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): ٢/ ١٩٤.

وعزّني حُسْنُ بِشْرٍ منهمْ، وطِيبُ كلامِ
فما حَصلتُ لَديْهمْ إلاّ على الإعدَامِ
ولو جَعَلتُ قريْضي مرَاثياً في الكِرامِ
لَحُزْتُ ذِكْراً جميلاً يَبْقى على الأيَّامِ

وبلغ الفقر وضنك الحال ببعض الشّعراء مبلغاً كبيراً؛ فهذا ابن مِقْدام المحَلّي[1]، يضنّ عليه أنْ يجد شعيراً على قلّة شأنه و «تقلُّص سعره»؛ فيتوجّه إلى أحد أصدقائه، طالباً منه أن يستبدل بشعْره شيئاً من هذا الشّعير، ناقلاً ذلك بصورة مؤثّرة تُعبّر عن انتقادٍ حادٍّ لواقع شديد القسوة[2]:

إليكَ ابنَ إبراهيمَ راحةَ مُشْتكٍ لنفْثَةِ مصْدورٍ شكا حرَّ صَدْرِه
تكنَّفهُ الحِرمانُ حتّى لو انّهُ سرى يَستميْحُ الغَيْثَ ضنَّ بقَطْرِه
وأصْعبُ ما يُمنى بهِ في مقامِه شِراهُ شعيراً في تقلُّصِ سِعْرِه
ويقصُرُ عن تكْليْفِ ذلك وجدُهُ وأنّى له ذِكْرٌ يفُوهُ بذكرِه
فجُدْ لي به وارحمْ فديتُكَ شاعراً قُصاراهُ أنْ يُجزى شعيْراً بشِعرِه

وكان للخصومات الشّخصيّة -أيضاً- دور في بروز مثل هذا الهجاء؛ فالشّعراء كغيرهم من النّاس، لهم علاقاتهم وصلاتهم مع أفراد المجتمع، ومن الطبيعيّ أن يشوب هذه العلاقات- في بعض الأحيان -خلافات ونزاعات شخصيّة، مما يدفع الشعراء -بحكم ما أوتوا من موهبة قول الشّعر- إلى هجاء كلّ من يعاندهم

---

(١) هو داود بن مقْدام بن ظفر المحلّيّ. يذكر العماد أنّه عاش في عصره. وقد نسبه ياقوت في معجم بلدانه إلى المحلّة. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): ٢/ ٤٥؛ ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م: ٥/ ٦٣.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٤٩.

ويخاصمهم. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها: ما قاله الصّاحب شرف الدّين الأنصاري[1] الذي شبّ بينه وبين جماعة نزاع وخصومة، سخر -على إثره- منهم، بأسلوبٍ يغلب عليه الفخر الذي بلغ حدّ التنفُّج[2]:

تعرَّضَ ليْ بعيبـــهمُ رجـــالٌ يُنافرُ فنَّ جـــهلِهمُ فُنُوني

دفَنتُهُمُ خُمُـــولاً واطِّـــراحاً ولو أجَلي دنا لم يَدْفِنُوني

وإنّي، إنْ أهِجْ أحْلُمْ، وطَوْراً أُداوى بالجُنُونِ من الجُنونِ

ويبدو أنّ دوافع هذا الهجاء لم تكن تتّخذ -دائما- مظهر الجدّ؛ فقد قصد بعض الشّعراء من ذلك مجرّد التّسلية والعبث، وكأنّ نفوسهم قد جبلت على ممارسته حتّى بات طبعاً متأصّلاً فيها. من ذلك ما قاله ابن عُنَيْن[3] في القاضي ابن أبي عصرون[4]؛ إذْ يسوِّغ تعرُّضه لهجائه بقوله[5]:

وما هَجَوتُ ابنَ عصْرونٍ أروْمُ لهُ فضْلاً، ولا نِلْتُ من فَخْرٍ ولا شَرَفِ

لكنْ أُجرِّبُ فيهِ خاطـــري عَبَـــثاً كمـــا تُجرَّبُ بِيْضُ الهندِ في الجيَفِ

---

(١) هو الصاحب شرف الدّين عبدالعزيز بن محمد شاعر شاميّ، كان صاحب حظوة عند الملوك، توفي سنة ٦٦٢هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزّاهرة: ٧/ ٢١٤.

(٢) الصاحب شرف الدين الأنصاري، ديوانه، تحقيق: عمر موسى باشا، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ١٩٦٨م: ٤٩٧.

(٣) هو أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عُنَيْن الأنصاريّ. كان مولعاً بالهجاء، تولّى الوزارة في عهد الملك المعظّم عيسى الأيوبي. توفي سنة ٦٣٠هـ. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٩/ ٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٩٣.

(٤) هو القاضي محيي الدين محمّد بن شرف الدّين بن أبي عصرون، تولّى القضاء، وعمي في أواخر سنّي عمره، توفي سنة ٥٨٥هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٥٣-٥٧.

(٥) ابن عُنين الأنصاريّ، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، ط٢، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ: ١٩١.

وقد توجّه كثير من الشّعراء في هجاء خصومهم إلى حقل المساوئ الخُلُقيّة، أخْذاً برأي بعض النُّقاد القدامى الذين كانوا يرون أنَّ «أجود ما في الهجاء أن يُسلبَ الإنسانُ الفضائل النفسيّة وما تركّب من بعضها في بعض»[١]؛ لأنّ في مثل هذا الهجاء ما يعيب الإنسان حقيقة. ولهذا كُلّه كان الشّعراء في بحث دائم لالتقاط كلّ صفة سلبيّة لرمي مهجوّيهم بها. وقد تعدّدت معاني هذا الهجاء وصوره. ويستطيع الدّارس -من خلاله- أن يتبيّن كثيراً من سلبيّات المجتمع ومساوئ أفراده، وإنْ كان ذلك يخضع- في أحيان كثيرة- لنفسيّة الشّاعر ونزعته الذّاتيّة، مما قد يبعده عن الموضوعيّة والصّدق، ولكنّه -على الرّغم من كلّ هذا- يُقدّم صوراً نابضة بالحياة لأحوال النّاس، وطرق تفكيرهم، وطبيعة تعاملهم اليوميّ. وهي صور يفتقدها الدّارسون في مصادر أُخرى.

***

وكان **البُخل** من أُولى الصّفات التي تناولها الشّعراء في هجائهم. ولعلّ ذلك يؤكّد فكرة الحاجة والتكسُّب التي كانت -كما ذكر- من أقوى دوافع هذا الهجاء ومسبّباته، فهذا ابن مُنير الطّرابلسيّ[٢]، يصوّر -بأُسلوب ساخر- رغيفاً لأحد البخلاء من خلال اللجوء إلى المبالغة بغية إظهار هذه الصّفة القبيحة وإلصاقها بخصمه[٣]:

رغـــيفُهُ مـــنْ ذَرَّةٍ يَصْنَـــعُهُ أوْ أَصْـــغرا

---

(١) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (ت٤٥٦هـ)، العُمدة في محاسن الشّعر وآدابه، تحقيق: محمّد قرقزان، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨م: ٢/ ٨٥٢.

(٢) هو أبو الحسن أحمد بن منير الطّرابلسي، من أشهر شعراء الشّام في القرن السادس الهجريّ، كان متشيّعاً، توفي سنة ٥٤٨هـ. انظر: ابن عساكر، علي بن الحسن (ت٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، مخطوط، دار البشير، صورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق: ٢/ ٢٥١؛ العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام)، تحقيق: شكري فيصل، ط١، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٥م: ١/ ٩٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ١٥٦.

(٣) ابن منير الطّرابلسيّ، ديوانه، جمعه وقدّم له: عمر عبدالسّلام تدمري، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦م: ٩٥.

مُبَـــيَّتا مُلـــفَّـقـــاً مُبـــريقـــاً مُبَيْـــكرا

لو جازَ في عينِ الّذي يـــأكـــلُهُ لمـــا دَرى

أو بَلـــعَ الصَّـــائمُ ألْـ ـفَاً مِثْـلَهُ ما أفْـطرَا

كـــأنّـــما خبَّـــازُهُ بِهِ تحـــدَّى البَـــشَرا

فهاتِ، قُلْ: أعَرَضاً تجِـــدْهُ أمْ جَـــوْهَـرا

ويرمي هبة اللّه بن وزير[1] أحدهم بالبخل، ويضيف إليه صفة ذميمة أُخرى، هي اللؤم. ويتخيّر -في سبيل تأكيد ادّعائه هذا- صوراً من الأشجار التي لا ورق لها ولا ثمر، مشبّهاً ذلك الشّخص بها[2]:

ومُشْتهرٍ بالبُخلِ غاوٍ بلؤمِـــهِ علـــى يدهِ قُفْلٌ منـــيعٌ وأغلاقُ

إذا زُرْتُهُ يزوَرُّ منـــي تبـــرُّماً فلا هو مسرورٌ ولا أنا مُشتاقُ

من الشَّجرِ الملعُونِ لا وَرَقٌ به ولا ثَمرٌ، عُقبـاهُ نارٌ وإحراقُ

ويؤكّد أُسامة بن مُنقذ[3]- بأسلـــوب لا يخلو من تعميم واضح، ونبرةٍ يبدو عليها الحزن واليـأس- استـــشراء داء البخل، حتـــى بات شيئـاً شائعـاً بين النـــاس، يقول[4]:

---

(١) هو النجيب أبو المكارم، هبّة اللّه بن وزير المصريّ، من شعراء الخريدة يذكر العماد أنّه لقيه بمصر سنة ٥٧٣هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): ٢/ ١٤٣.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): ٢/ ١٥٠.

(٣) هو: أسامة بن مُرشد بن عليّ بن مَقلد.. من أكابر بني مُنقذ أصحاب قلعة شيزر، يُعدّ من أبطال الإسلام في عصر الحـــروب الصّليبيّة، كان شاعراً ومؤلفاً، وله عدد من المصنفات. توفي سنة ٥٨٤هـ. انظر: ابن عساكر، علي بن الحسن (ت٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م: ٨/ ٩٠؛ العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء الشّام): ١/ ٤٩٩؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٥/ ١٨٨.

(٤) أسامة بن منقذ، ديوانه، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبدالحميد، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م: ٣١٠.

قُلْ للرّجاءِ: إليكَ، قدْ أتعبتَني بعدَ الكِرامِ

قدْ عمَّ داءُ البُخْلِ حَتْـ ـتَى شاعَ في كلِّ الأنامِ

فأكفُّهُمْ بالبُخْلِ مُقْـ ـفلةٌ على سُحْتِ[1] الحُطام

فإلامَ تَرْتادُ المحُو لَ، وتَرْتجي ريّ الجَهَامِ[2]

ومن العيوب الخُلُقيّة التي ظهرت -أيضاً- في هجاء الشّعراء لبعض الأفراد: **النّميمة ونقل الحديث**. وقد تمكّن ابن السّاعاتي[3] من نقل صورة معبّرة لشخص نمّام من خلال اعتماده على دقّة الملاحظة- وهي ضروريّة للشّاعر الهجّاء- والمُفارقة القائمة على السّخرية، ثمّ الإصابة في التّشبيه عن طريق انتقاء صور من عالم الحيوانات أو الأمراض المعدية، يقول[4]:

أحطُّ على مأكولةٍ منْ ذُبابةٍ وأنْقَلُ فيهمْ للحديثِ من النَّملِ

بلاهمْ به اللّهُ القويُّ فإنّهُ أشدُّ من الطّاعونِ في زمنِ المحلِ

حُسامٌ ولكنْ للمودّاتِ حسمُهُ يُشامُ لإفساد الأخلاء لا الفَتْلِ

فحصّلْ له نَعْلاً يَزينُ أديمهُ فلا بدَّ للسّيفِ الصَّقيلِ من النَّعلِ

وتطرّق بعض الشّعراء إلى صفة **الثّرثرة وكثرة الكلام**، فصوّروا ما تسبّبه للآخرين من ملل وضجر. ومن الأمثلةِ على ذلك قول البهاء زهير[5] في صديق

---

(١) السّحت: الحرام.

(٢) الجَهَام: السّحاب لا ماء فيه.

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد بن رستم. نشأ في دمشق، وله مدائح في بعض ملوك بني أيوب. توفي سنة ٦٠٤هـ. انظر: ابن سعيد الأندلسيّ، علي بن موسى (ت٦٨٥هـ)، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط٤، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: ١١٨.

(٤) ابن السّاعاتيّ، ديوانه، تحقيق: أنيس المقدسيّ، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٣٩م: ٢/ ٧٢.

(٥) هو بهاء الدّين زهير بن محمد، شاعر مصري، تميز شعره بالرّقة والعذوبة، كان على صلة بالملك الصّالح نجم الدّين أيّوب. توفي سنة ٦٥٦هـ. انظر: ابن تغري بردي، النّجوم الزاهرة: ٧/ ٦٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٥/ ٢٧٦.

لَنا صديـــــقٌ ولا أُسمِّـــيهِ نَعـــرفُهُ كُلُّنـا وندْريـهِ

كلُّ اختلافٍ وكلُّ مخرقةٍ[٢] فيهِ فيا ليْـــتَهُ بلا فيْـــهِ

ويتكرّر نقد هذه الصِّفة على لسان عليّ بن يوسف القِفْطي[٣] الّذي يهجو شخصاً أعور، فيصوّره - مستغلاً هذا العيب الخَلْقيّ- بهيئة مضحكة غريبة، حين يجعله بعين واحدة، ولسانين اثنين، رامياً -من ذلك- إلى التّعريض بسلوك هذا الفرد، من خلال التّصوير السّاخر[٤]:

شيخٌ لنا يُعْـزى إلـى مُـنْذِرٍ مُستقبَحُ الأَخلاقِ والعَيْـنِ

مِنْ عَجبِ الدَّهر، فحدِّثْ بهِ بِفَـــردِ عيْـنٍ ولسَـانَيْـنِ

ويذمُّ الشوّاء الحلبي[٥] أحد أصدقائه، فيجده لا يحسن إلاّ الغيبة، وإشاعة الأسرار وفَضحها، فهو أشبه بالصّدى الّذي يُعيد رجع الحديث في الحال، يقول[٦]:

لي صديْقٌ غدا وإنْ كانَ لا يَنْـ ـطِـقُ إلا بغِـيْبَةٍ أو محالِ

أشْبهُ النَّاسِ بالصَّدى إنْ تُحدِّثْـ ـهُ حديثاً أعادهُ في الحـــالِ

---

(١) البهاء زهير، ديوانه، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد الجبلاوي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: ٢٨٤.

(٢) المخرقة: الطّيش والهذيان.

(٣) نشأ بالقاهرة، ثمّ انتقل إلى حلب، ومدح صاحبها الملك الظاهر غازي بن يوسف، كان كاتباً مبرزاً، وله عدد من المصنّفات. توفي سنة ٦٤٦هـ. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٥/ ١٧٥؛ الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ١١٧.

(٤) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ١٥/ ١٨٠.

(٥) هو أبو المحاسن يوسف بن اسماعيل الحلبي، المعروف بالشّواء. شاعر شاميّ اتّصل بالسلطان صلاح الدين وابنه الملك الظاهر غازي، يحدد ابن الشّعار، وفاته بسنة ٦٣٥هـ. انظر: ابن الشعار الموصليّ، المبارك بن أحمد (ت٦٥٤هـ)، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، مخطوط، إصدار فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت، ١٩٩٠م: ١٠/ ٢٣٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٣١.

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٣٥.

وقد وجد البهاء زهير في عادة إفشاء السّر -كذلك - مجالاً لتوجيه نقده وتهكّمه من صاحب لا يتوانى - لحظة- عن كشف الخفيّ من الأسرار[1]:

وصاحبٍ جَعَلتُهُ أَميـري ... شاركَ منّي موضعَ الضَّميرِ

أَوْدَعتُهُ الخفيَّ منْ أُمُوري ... فكان مثلَ النّار في البُخُورِ

وكانت صفة **النِّفاق** من الصِّفات المستهجنة التي وجدت طريقها إلى أهاجي الشّعراء، فذهبوا إلى ذمِّها وتسفيه كلّ من يتّصف بها. على نحو ما نجد في قول ابن قلاقس الإسكندري[2] الذي يهجو شخصاً يسمّى عليّاً، ساخراً من اسمه هذا الذي لا يتناسب وسلوكه؛ فهو كالماء يتلوّن في كلّ مرة بلون، غير أنّه ماء آسن كريه[3]:

يا عليُّ الّذي دعـــوهُ علـــيّاً ... سِمـــةً أَخْبَـرَتْ عن العليَاءِ

أنتَ كالماءِ غَيْر أنْ لستَ تصفُو ... وقبيـــحٌ بالمـــاءِ تَرْكُ الصَّفاءِ

أيُّ فضلٍ للأصـــدقاء إذا كُنْـــ ... ـتَ تـــرَاهُم بحالةِ الأَعـداءِ

قدْ تلوَّنْتَ أيها الشّمسُ حتّى ... قُلتُ أُلبســـتَ جِلْدةَ الحـرباءِ

ومثل ذلك ما قاله ابن قادوس[4] في أحد المنافقين، ويلاحظ أنّ فكرة تشبيه المنافق بالماء كانت تتكرّر عند غير شاعر[5]:

حَـــوْلَهُ اليَـــومَ أُناسٌ ... كُلُّـــهُمْ يُـــزْهى برائِهْ[6]

---

(١) البهاء زهير، ديوانه: ٩٢.

(٢) هو أبو الفتح نصر الله بن عبدالله الإسكندريّ، مدح بعض أولي الأمر بالإسكندرية. توفي سنة ٥٦٧هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ٣٨٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٤/ ٢٢٤.

(٣) ابن قـلاقس الإسكندريّ، ديوانه، تحقيق: سهام الفريح، مكتبة دار العروبة، الكويت، ١٩٧٩م: ١٣٥-١٣٦.

(٤) هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل ، شاعر مصريّ، أصله من دمياط، توفي سنة ٥٥١هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): ١/ ٢٢٦.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٢٣٣.

(٦) رائه: رأيه.

وهو مِثلُ الماءِ فيـــهمْ لـــونُـــهُ لـــونُ إنـــــائـــهْ

ومن الشّعراء من وجد في **بعض السّلوكيّات غير السّويّة** لنفرٍ من الأفراد، مادّة لهجائه. على نحو ما يُلحظ في قول عرقلة الكلبي[٣](١) الذي يكشف زيف صداقة قائمة على المصلحة والحاجة لا غير(٢):

وصاحـــبٍ يتلـــقّاني لحاجـــتِـهِ بالرّحبِ، وهو مليْحُ الخَلْقِ والخُلُقِ

حتّى إذا ما انقضَتْ ولّى وخلّفني أخسَّ منْ جُرَذٍ في بيت مُرتفَقِ(٣)

كالماءِ بيْنَا ترى الظـمآنَ يشـــرَبُهُ حتّـــى يُبدِّدَ باقيـــهِ على الطُّرُقِ

ويبدي الأمير يَغْمُر بن عيسى(٤) -في هذا الاتّجاه ذاته- حيرته وقلقه من صداقة صاحب متقلّب المزاج؛ حيث لا يعرف- على وجه الدّقة- كيف يعامله، فإن حاول زيارته تغيّب احتجاجاً، وإنْ أهمله وشأنه عتب على ذلك ، يقول(٥):

وصاحبٍ لا أعادَ الدّهرُ صُحْبَتَـهُ صحبْتُهُ، وأراهُ شرَّ من صُـحِبا

لا يستقيْمُ على حـالٍ فأعـرفَهُ ولا يُفوهُ بخيـرٍ، جَـدّ أو لعِبا

إنْ زُرْتُهُ قاضياً حـقَّ الإخاءِ له غابَ احتجاجاً، وإنْ أهملتُهُ عَتِبا

وإنّ تنصّلتُ ممّا قالَ مُعتـذِراً أبـــى القبُولَ، وإنْ عاتَبْتُهُ غَضِبا

ويعرّي شرف الدّين الأنصاريّ سلوك شخص يدعى «عبدالعزيز»، حيث يظهر مدى التّناقض ما بين قوله وفعله؛ فهو مندفع إلى الدّنيا، راغب في النّيل من حطامها،

---

(١) هو أبو النّدى، حسّان بن نمير، كان مولده ونشأته بدمشق. رمي بالتّشيع، وتوفي سنة ٥٦٧هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء الشّام): ١/ ١٧٨.

(٢) عرقلة الكلبيّ، ديوانه، تحقيق: أحمد الجندي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م: ٦٧.

(٣) المرتفق: بيت الخلاء.

(٤) من مولّدي الأتراك بدمشق، وأمرائها المعروفين. يذكر العماد أنه لقيه بدمشق. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء الشّام): ١/ ٣٥٤.

(٥) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء الشام): ١/ ٣٩٠.

متظاهر -في الوقت ذاته- بالزّهد والصّلاح[1]:

عَبدَ العزيز، هجرتَ جدّك قاطعاً ... للغمضِ في وصلِ اللّعوبِ النّاهدِ

وأمْتَ عَيْنكَ عنْ مُلاحظةِ الهُدى ... ومَنَحتَ طرْفَ الغيِّ عَيْنَ السّاهدِ

وجهدتَ في الدُّنيا وكَسْب حُطامِها ... وطمعتَ جَهْلاً في ثوابِ الجاهدِ

وذممتَها، واللّهُ يَعْلمُ أنّها ... لك خُلّةٌ[2]، وكفى به مِنْ شاهدِ

فَعلامَ تفعلُ فِعلَ أرْغبِ راغبٍ ... فيها، وقولُكَ قولُ أزْهدِ زاهدِ

وعلى هذا النّحو، جسّد البهاء زهير تصرّفات بعض النّاس الذين يتظاهرون بالورع والزّهد والعبادة على مرأى من الآخرين. وهم -في حقيقة أمرهم- قنصة فرص محتالون[3]:

كم أُناسٍ أَظهروا الزُّهدَ لنا ... فتجافُوا عن حَلالٍ أو حَرامِ

قلّلوا الأكلَ وأبدوا ورَعاً ... واجتهاداً في صيامٍ وقيامِ

ثمّ لمّا أمْكنَتْهُمْ فُرْصةٌ ... أكلوا أكلَ الحزانى في الظّلامِ

أمّا أسامة بن منقذ، فيستقبح غدر أحد أصدقائه وتنكّره له، بعد ما كان يبدي من مودّة وصفاء[4]:

صديقٌ لي، تنكّرَ بَعْدَ ودٍّ ... وأُمُّ الغَدرِ في الدُّنيا ولودُ

أراهُ ملالُهُ حَسَني قبيحاً ... فصدَّ وأيْسرُ الغَدْرِ الصُّدودُ

وذمَّ اليومَ ما حَمدتْهُ منّي ... تجاربُهُ، وأمسِ بهِ شهيْدُ

---

(١) الصاحب شرف الدين، ديوانه: ١٨٣.

(٢) خُلّة: خليلة وصديقة.

(٣) البهاء زهير، ديوانه: ٢٤٧، وللاستزادة انظر: ١٤٤.

(٤) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٢٩٨.

ولستُ ألومُهُ فيـما أتـاهُ أسـاءَ، فرابَهُ الفعلُ الحَميْدُ

وقدْ يجدُ المريضُ الماءَ مُرّاً بفـيهِ، وهو سلسَالٌ برُوْدُ

ومن العيوب الخُلُقيّة التي تردّدت في هجاء الأفراد، الطّعن في **صحّة الأنساب** وسلامتها؛ فأقسى ما يُمكن أن يُرمى به عربيّ هو الشّكّ في نقاء نسبه وأرومته، ولذلك استغلّ بعض الشّعراء هذه النّاحية لما وجدوا لها من أثر فاعل وحسّاس في نفس الخصم. ومن الأمثلة التي يمكن أن تساق في هذا المجال ما قاله فتيان الشّاغوري[1] في الجمال المصريّ[2]، حين سخر منه بطريقة لاذعة، وغمز في صحّة نسبه بأسلوبٍ غير مباشر[3]:

ما الجمالُ المصْريُّ عنديَ إلا ذَهَبٌ مثلُهُ يُسكُّ ويُصْرَفْ

أمُّهُ مِصرٌ فهي معرِفَـةٌ لـ ـكنْ أبوهُ مُنكَّرٌ ليسَ يُعْرَفْ

وتبدو أبيات ابن دُنَيْنِير[4] في هجاء المعتمد[5] شحنة دمشق، أكثر مباشرة وحِدّة، حين يلجأ إلى ما يُشبهُ السّباب والمهاترة، مما أفقدها تلك الطّرافة التي بدت في بيتي فتيان السّابقين، وذلك إذ يقول[6]:

---

(١) هو الشهاب فتيان بن علي الأسديّ، كان معلّماً . وقد خدم الملوك، وعلّم أولادهم، توفي سنة ٦١٥هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء الشام): ١/ ٢٤٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٢٤-٢٦.

(٢) هو يونس بن بدران بن فيروز، تولّى منصب قاضي القضاة، وتوفي سنة ٦٢٣هـ. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ١٢٣.

(٣) فتيان الشاغوريّ، ديوانه، تحقيق: أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٦م: ٢٨٠.

(٤) هو شرف الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، شاعر شامي، عاصر الملك الظاهر غازي صاحب حلب، توفي سنة ٦٢٧هـ. انظر: ابن الشّعار الموصلي، قلائد الجمان، مخطوط: ١/ ٥٣؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، باعتناء س ديدرينغ، ط٢، فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٨٢م: ٦/ ١٢٦.

(٥) هو المعتمد مبارز الدين إبراهيم بن موسى، بقي شحنة بدمشق فترة طويلة، وصف بحسن السيرة والصلاح، توفي بدمشق سنة ٦٢٣هـ. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ١٢٤.

(٦) ابن دنينير، إبراهيم بن محمد (ت ٦٢٧هـ)، ديوانه، تحقيق ودراسة: محمود شاكر سعيد، رسالة دكتوراة مخطوطة، جامعة الأزهر، ١٩٨١م: ٦٠٨.

نُسبتَ إلى الحـــدْباءِ زوراً وإنّـمـا إلى بَعْلبكَ أنتَ تُعْزَى وتُنسَبُ

وقُلتَ ابنَ موسى، أيَّ موسى ادّعيتَهُ لأمِّـكَ بَعْلاً أنْـتَ فيهِ تُكذَّبُ

وإنّك لمْ تَعْلمْ أبـاكَ من الـوَرى فَتُعْزَى له يا خِزيَ مَنْ مالهُ أبُ

غير أنّ يلاحظ قلّة الشّعر الّذي تناول هذه المنقصة، إذا ما قورن ذلك بعصور سابقة؛ وخاصّة في العصرين: الجاهليّ والأمويّ، وربّما كان ذلك بتأثير من ظروف الحياة الحضريّة التي شهدها هذا العصر. إضافة إلى ما تخلّله من أحداث جسام، كان أبرزها الحروب الصّليبيّة الّتي اكتوت بها ديار الإسلام في المشرق العربيّ، حيث وجد المسلمون أنفسهم- على اختلاف منابتهم وأصولهم -أمام عدوّ غاز، هدّد هويتهم ووجودهم كلّه. وكان لهذا -دون شكّ- أثره في إذكاء رابطة الدّين التي حلّت مكان أيّ رابطة أُخرى.

وقد أكثر الشّعراء -كذلك- من هجاء **الثّقلاء**، وعبّروا عن ضجرهم من وجود هذه الصّفة في بعض الأفراد. ومما جاء في ذلك قول الحكيم أُميّة بن عبدالعزيز[1]، في ثقيل دعته الظّروف -مكرهاً- لمجالسته والحديث معه[2]:

لي جَليسٌ عَجبتُ كيفَ استطاعتْ هـــذه الأرضُ والجِبالُ تُقلُّهْ

أنـــا أَرعـــاهُ مُكْـرهاً وبقَلْبـــي مِـــنْهُ ما يُتلِـفُ الحياةَ أقـلُّهْ

فهو مِثلُ المـــشيْبِ أكـــرَهُ مـــرآ هُ، ولكـــنْ أَصـــونُهُ وأجلُّهْ

وشبيه بهذا تبرُّم ابن مطروح[3] من زيارة عائد ثقيل، في قدومه -كما يقول- ما

---

(١) هو الحكيم أمية بن عبدالعزيز الأندلسيّ، شاعر له عدد من المصّنفات. قدم من الأندلس، وأقام في مصر، توفي بعد سنة ٥٢٢هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء المغرب)، تحقيق: محمد المرزوقي وآخرين، الدّار التونسيّة للنشر، ١٩٦٦م: ١/ ٩١.

(٢) الحكيم أمية بن عبدالعزيز، ديوانه، جمع وتحقيق وتقديم: محمد المرزوقي، دار بو سلامة للطباعة، تونس، بلا تاريخ: ١٣٢.

(٣) هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح، ولد ونشأ بصعيد مصر، كان على صلة بالملك الصالح نجم الدين أيّوب، توفي سنة ٦٥٠هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٥٨-٢٦٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٧.

يجلب الهمَّ والمرض[1]:

وصاحبٍ عادني يوماً فأقلقني حتّى ظَننْتُ رسُولَ الموتِ وافاني

ولو أطالَ قليلاً لم يطُلْ أجلي وجـاءني غاسلي يَسْعى بأكفاني

أمّا البهاء زهير، فكان للثّقلاء في هجائه نصيب كبير؛ فثمّة غير مقطوعة في ديوانه[2] تناولت نماذج منهم بالتّهكّم والسّخرية. وقد تبدّت في هذه المقطوعات روح النّكتة والفكاهة التي تميّز بها شعر البهاء عامّة. ومن الأمثلة على ذلك قوله في أحدهم، مظهراً بلادته، وقلّة إحساسه الذي لا يطاق[3]:

وعائدٍ هو سُقْـمٌ لكلِّ جسْـمٍ صحِيْحِ

لا بالإشارةِ يَدْرِي ولا الكـلامِ الصَّرِيْحِ

وليسَ يَخْرُجُ حتّى تكادُ تَخْـرجُ رُوحي

وفي مقطوعة ثانية يبدي امتعاضه من شيخ لحضوره في المجلس وطأة ثقيلة لا تسرُّ الجالسين ، فيقول[4]:

كُلّما قُلنـا استـرَحْـنا جاءَنـا الشّيخُ الإمامُ

فـاعْتـرانا كُلُّـنا مِنْـ ـهُ انقباضٌ واحْتِـشَامُ

فهوَ في المجلسِ فَدْمٌ[5] ولنا فهـو فِـدامُ[6]

---

(١) ابن مطروح، شعره، جمع وتحقيق ودراسة: جودة أمين علي، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة القاهرة، ١٩٧٦م: ١٨٦.

(٢) البهاء زهير، ديوانه: ٨٧، ١٤١، ١٩٩، ٢٦٢، ٢٧٤.

(٣) المصدر نفسه: ٥٧.

(٤) المصدر نفسه: ٢٣٦.

(٥) فَدْم: بغيّ أحمق.

(٦) فِدام: هو في الأصل ما يوضع في فم الإبريق لتصفية ما فيه.

وعلى الجُملةِ فالشّيـ ـــخُ ثَقِـيلٌ والسَّلامُ

وأحياناً يلجأ الشّاعر إلى تجميع أكبر قدر من المساوىء لقذف مهجوّيه بها، ولعلّ دافعه إلى ذلك هو المبالغة في الحطّ من شأن خصومه، والذّهاب في تحقيرهم أشواطاً بعيدة، نتيجة لما قد يعتمل في نفسه من مرارة وغضب عليهم. فقد هجا ابن المسجَّف العسقلانيّ جماعة يعرفهم، مصوِّراً خلوّهم من كلّ فضل، وتنافر أوصافهم، واتّصافهم بالبخل والجبن واللؤم، على الرّغم من محاولتهم تغطية هذه العيوب -كما يذهب- بما يملكون من مال[1]:

يا ربِّ كيفَ بَلوتَنـــي بِعِصـــابةٍ ما فِيْهِمُ فَضْـــلٌ ولا إفضـــالُ

مُتنافري الأوصافِ يَصْدقُ فيهم الـ ـهاجي وتكْذِبُ فيهمُ الآمـــالُ

غطّى الثّراءُ علـى عُيُوبِهـــمُ وكمْ مِنْ سوءةٍ غـطّى عليـــها المالُ

جُـــبناءُ ما استنجـــدْتَهُمْ لملـــمّةٍ لؤماءُ ما استَرْفَدتَهُـــمْ بُخّـــالُ

فوجوهُـــهُمْ عُوذٌ على أمـــوالِهم وأكفُّهُمْ مِنْ دَوْنِها أقْـــفـــالُ

هُمْ في الرّخاءِ إذا ظفرتَ بنعـمةٍ آلٌ، وهمْ عند الشّـــدائدِ آلُ[2]

ويطول استعراض الأمثلة في هذا الجـــانب؛ إذ تنـــاول الشّعراء عيـــوباً أُخرى كثيرة. فلم تكد تغيب عن ألسنتهم منقصة أو مذمّـــة. فرموا مهجـــوّيهم -مثـلاً- **بالجهل**[3]، **وقلّـــة الوفاء**[4]، **والتكبُّر والتّعالي**[5]، **والكذب**[6]، **والخسّـــة**

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٢٨٤.

(٢) آل: الأولى بمعنى أهل، والثانية بمعنى: سراب.

(٣) البهاء زهير، ديوانه: ٤٩، ٢١٣.

(٤) ابن دانيال الموصليّ، الحكيم شمس الدين (ت٧١٠هـ)، المختار من شعره، اختيار صلاح الدين الصّفديّ، تحقيق: محمد نايف الدّليميّ، مكتبة بسام، الموصل، ١٩٧٩م: ٢٥٧.

(٥) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): ٢/ ١٦١ (أبيات لأبي الغمر الإسناويّ)؛ فتيان الشاغوريّ، ديوانه: ١٢٣.

(٦) ابن السّاعاتيّ، ديوانه: ٢/ ١٥٤.

والنّـذالة[1]، وغير ذلك مما لا طائل من حصره، وتفصيل القول فيه.

وهناك من أفحش في هجائه، حتّى تجاوز حدود اللياقة والأدب، فطعن النّاس في أعراضهم، واستهتر بقيم المجتمع وأخلاقه. مستخدماً في ذلك ألفاظاً وتعابير نابية بذيئة، يمجّها الذّوق السّليم ويرفضها. ومع أن الدارس لا يهدف إلى تحكيم الجانب الأخلاقي في تقويم هذا الهجاء فنياً، إلا أنّ مبالغة الشعراء في المكاشفة والمباشرة التي اقتربت - في أحيان كثيرة- من الشتيمة الجارحة، والسباب الفاضح، قد أفقدت شعرهم كثيراً من شروطه الفنيّة. إضافة إلى أنّ هذا الهجاء لم يكن - فيما أرى - ذا إصابة وتأثير، كذاك الهجاء الذي يقوم على الذّكاء والتلميح، والدّعابة السّاخرة[2].

-٣-

ولم يقف الشّعراء في هجائهم الشّخصيّ عند ذمّ المساوئ الخُلُقيّة والنفسيّة، وإنّما تعدّوا ذلك إلى تفحُّص المظهر الخارجيّ (الشّكليّ)؛ فاستنبطوا من ذلك كثيراً من الصّور الطّريفة والمضحكة لبعض النّماذج البشريّة. ويلاحظ أنّ أغلب هذه الصّور قد قامت على تجسيم العيوب الخَلقيّة وتضخيمها؛ إذ يعمد الشّاعر إلى تناول ناحية خَلْقيّة ما من جسم أحد الأفراد، كالأنف أو اللحية أو غير ذلك، فيعيد تشكيلها، مصوِّرها تصويراً (كاريكاتورياً) ساخراً. وقد تنوّعت المعاني الهجائيّة في هذا المجال، فهجا بعض الشّعراء **الأنوف**، وتناولوا أصحابها بالسُّخرية والاستهزاء. من ذلك -مثلاً- قول ابن السّاعاتيّ الّذي يتهكّم من شخص يُلقَّب بالسَّديد، وكان كبير الأنف[3]:

يا مانِعي صَفْـوَ الوصا ل ومانحي كَدَرَ الصُّدُود

---

(١) البهاء زهير، ديوانه: ٢٦٣.

(٢) انظر -على سبيل المثال- نماذج من هذا الهجاء الفاحش في: فتيان الشّاغوري، ديوانه: ٢٥٩-٢٦٠؛ ابن عُنين، ديوانه: ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١؛ ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: ١٠٣، ٢٠٣؛ ابن عُقيل الزُّرعيّ، أبو العباس أحمد (ت٦٢٣هـ)، المختار من ديوانه، مخطوط، مكتبة طبقبوسراي، تركيا، رقم ٢٨١٦: ٥٢، ٥٤.

(٣) ابن الساعاتيّ، ديوانه: ١/ ٢٣٢.

ما ضـاقَتْ الدُّنيا عَلَـيْـ ـيَ وقدْ حوتْ أَنْفَ السَّديد

وقول ابن دُنينير في أحد القضاة، إذْ يعمد إلى تضخيم أنفه بصورة لافتة. وقد كان هذا الأُسلوب هو الغالب على هجاء الشّعراء لهذه الخلّة[1]:

وُكنّا عملنا للمُظفّرِ دَعـوَةً ليحضُرَ فيها عِندَنا يومَ الاثنينِ

فجاءَ ولكنّي رأيتُ عَـجيبَةً أتى أنفُهُ منْ قَبْلِ ذاكَ بيومينِ

أمّا ابن قادوس، فله غير مقطوعة في هذا الغرض[2]. أكتفي باختيار واحدة منها، حيث يتهكّم فيها من أنف صديق له، مبالغا في التّضخيم من حجمه الذي بات -على حدّ قوله- يطاول السّماء[3]:

ورُبَّ أَنـفٍ لصـدِيْقٍ لـنا تحديـدُه ليسَ بمَعْـلُومِ

ليسَ على العرْشِ له حاجبٌ كـأنّهُ دعـوةُ مظْـلُومِ

وتعرّض بعض الشّعراء لهجاء **اللّحى**. ولعلّ دوافعهم لذلك -إضافة إلى التندُّر بهدف الإضحاك- تعرية سلوك بعض الأشخاص الذين قد يبدو مظهرهم المهيب- بفعل ما قد توحي به هذه اللحية من وقار وتديُّن- بخلاف مخبرهم السّيء. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله السَّراج المحّار[4] في صديق له يُدعى ابن سعد، مضمّناً شعره عجز بيت لامرئ القيس. وقد أضاف إلى هذه اللحية المتهدّلة أنفاً "عظيماً" أيضاً؛ بغية تصوير حاملها على أقبح هيئة[5]:

أَرى لابْنِ سعدٍ لحيةً قدْ تكَاملَتْ على وَجْهِهِ واستَقْبَلتْ كُلَّ مُقْبِلِ

---

(١) ابن دُنينير، ديوانه: ٥٧٥.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): ١/ ٢٣٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) هو عمر بن مسعود الحلبي الكنانيّ، اشتهر بنظم الموشحات والأزجال، توفي بدمشق سنة ٧١١هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ١٤٦.

(٥) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ١٤٧.

ودارتْ على أنفٍ عظيمٍ كأنَّهُ «كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ»[1]

ويطيل البهاء زهير في هجاء إحدى اللّحى، حين يستغرق هذا الهجاء خمسة وعشرين بيتاً؛ يُلحُّ من خلاله على استدعاء المعاني التهكّميّة السّاخرة، فيرمي صاحبها -أوّلاً- بالحمق وانعدام العقل. ثمّ يتناول هذه اللحية بشيءٍ من التّفصيل؛ فيصوِّر حجمها الكبير الذي غطّى وجه صاحبها حتى بات -بفعلها- نكرة غير معروفة[2]:

وأحمقٍ ذي لِحيةٍ كبيرةٍ مُنتَشرهْ
طلبتُ فيها وَجهَهُ بشدّةٍ فَلَمْ أَرَهْ
معرِفةٌ لكنّهُ أصبَحَ فيها نكرَهْ

وإمعاناً في التهكُّم، يشبِّهه بثور كان من شأنه- كما يقول الشّاعر- أن يعبد لو كان عجلاً، متأثِّراً في ذلك بقصّة السّامريّ التي وردت في القرآن الكريم. ولا شكَّ أنّ تشبيهه بالثّور تحديداً فيه من السّخرية ما لا يخفى؛ فالتّشبيه بضخامة الجثّة قد يوحي -أحياناً- بشيءٍ من البلادة وقلّة الإحساس:

ثورٌ غَدا أُعْجُوبَةً بلِحْيَةٍ مُدَوَّرَهْ
لوْ كانَ ذاكَ الثّورُ عِجْـ ـلاً عَبَدتْهُ السَّمرَهْ
تبّاً لها منْ لِحيَةٍ كبيرةٍ مُحتَقَرهْ
عظيمةٍ لكنّها ليستْ تُساوي بَعَرَهْ

ثمّ يعود ليؤكّد حجم هذه اللحية الكبير، وذلك حين يجعلها أشبه «بقرية» يسرح

---

(١) البِجاد: الكساء المخطّط. والمُزمّل: الملفّف. وهذا العجز من بيت لامرئ القيس هو:

كأنّ أباناً في أفانين وَدقهِ كبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمّلِ

انظر: امرؤ القيس، ديوانه: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م: ٢٥.

(٢) البهاء زهير، ديوانه: ١٢٩-١٣٠.

فيها النّمل ويمرح. وهي -لضخامتها- تكفي عدّة رجال:

كم قَرْيةٍ للنَّمـلِ في حـافاتِها ومـقْبـرهْ
يُقْسَمُ عُشْرُ عُشْـرِها يكْفـي رجَـالاً عَشَرهْ

وكي يكفل الشّاعر لقصيدته قدراً أكبر من السّخرية والاستهزاء، يلجأ إلى تجسيد عُيوب خَلْقيّة وخُلقيّة أُخرى ليُكْسِب المشهد مزيداً من التندّر والإضحاك:

قدْ نبتتْ في وجههِ فـوقَ عِظـامِ نَخِـرهْ
بـاردةً ثقِـيْلـةً مُـظْلِمَةً مُنـكـدِرَهْ
كـأنّهـا سَحـابةٌ فوقَ البـلادِ مُمْـطِرَهْ
ما كان قـطُّ ربُّهـا مِـن الكِـرامِ البـرَرَهْ

وهكذا يمضي الشّاعر في قصيدته، بمثل هذا الوصف المسهب، فيصوِّر أنّ أقدام صاحبها تتعثّر بها بسبب طولها. وأنّ الأرض تعلوها غبرة حين يمشي. وهي -فوق كلّ هذا- نتنة خبيثة؛ لأنّها تُسْقى بريق صاحبها الذي يبدو صورة من صور الزّمان المضحكة.

وفي إطار هجاء الشّعراء للصفات الجسديّة، تناول بعضهم **حَدْبة الظّهر**، فذهبوا إلى التندّر والتهكُّم بمن يتّصف بها. وربّما قصدوا من ذلك إلى الهزل والدّعابة، بهدف إضحاك الآخرين. ولابن الذِّرْويّ[1] في هذا المجال أبيات طريفة، يسخر فيها -بأسلوب لاذع فيه بعض المواربة- من أحدب، حين يعدُّ هذه الحَدْبة -على سبيل السّخرية- مظهراً من مظاهر الحسن والجمال، فيشبّهها بالهلال، والقِسيّ الصّلبة القويّة التي لا تلين. ثمّ يبيّن أنّ الانحناء في منقار الطّير الجارح، ومخلب الأسد لم يكن عيباً في يوم من الأيّام، يقول[2]:

---

(١) هو الوجيه علي بن يحيى الذّرويّ. شاعر وقاض نشأ في مصر، وتوفي سنة ٥٧٥هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ١١٣.

(٢) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): ١/ ١٨٧-١٨٨.

لا تَظُنَّنَّ حَدْبَةَ الظّهـرِ عَيْبـاً فـهي للحُسنِ منْ صفاتِ الهلالِ

وكذاك القِسيُّ مُحـدوْدِ باتٌ وهي أنْكى من الظُّبا والعوالي[1]

وأرى الانحناءَ في منْسرِ الكا سـرِ يُلْفَى ومِخْلَبِ الرِّئبـال[2]

ويمضي الشّاعر في هجائه، فيصوّر النِّساء مفتونات بهذه الحَدْبَة، متمنيات أن تكون حدبة لكل الرِّجال. وينهي سخريته وتهكّمه حين يعبّر عن شوقه الدّائم لرؤية صديقه هذا، حتّى لو تمّ ذلك له في الأحلام، يقول:

ما رأتْها النِّسـاءُ إلاّ تمـنّتْ لو غَـدَتْ حِلْيَةً لكلِّ الرِّجالِ

وإذا لمْ يكنْ من الهَجْرِ بُـدٌّ فَعَـسى أنْ تَزُوْرني في الخيالِ

ولا تكاد أبيات لابن دانيال الموصلي[3] -في الموضوع ذاته- تخرج -كثيراً- عن المحاور التي تضمّنتها الأبيات السّابقة، سوى في محاولتها استقصاء المعاني بصورة أكثر إلحاحاً وتفصيلاً. ومما جاء في بعض أبياتها قوله[4]:

يا مُخْجِلاً شكلَ الهـلالِ بقـدِّه حاشاك أنْ تُعْزى إلى نُقْصَانِ

ما عابَ قامتَك الحسودُ جَـهَالةً إلا أَجَبْـتُ مقـالَهُ ببَيَـانِ

هل يَحْسُنُ الجوكـان إلا أنْ يُرى معْ أُكْـرَةٍ في حَلَبَةِ الميـدانِ[5]

أَمْ هـلْ يزيـنُ المـتنَ إلا ردفُهُ حُسْناً فكيـفَ بمَنْ له رِدْفـانِ

---

(١) الظّبا: جمع ظبة، وهي حدّ السّيف، والعوالي: الرِّماح.

(٢) منسر الكاسر: منقار الطّير الجارح. الرِّئبال: الأسد.

(٣) هو شمس الدّين محمّد بن دانيال الموصليّ، شاعر صاحب دعابة ونكتة، من مصنّفاته، كتاب "خيال الطّيف". توفي سنة ٧١٠هـ. انظر: ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة: ٩/ ٢١٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب: ٦/ ٢٧.

(٤) ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: ٢٣٤.

(٥) الجوكان: المعقوف. الأُكْرة: الكرة.

وإمعاناً في السّخرية والزّراية، لجأ بعض الشّعراء إلى رَسْم مهجوّيهم **بصورة غريبة، وتكوين متنافر**، حتّى ليبدو المهجوّ، وكأنّه خَلْقٌ على غير مثال البشر؛ فقد تناول ابن السّاعاتيّ -مثلاً- أحد الأشخاص، وشنّع في تصوير هيئته وقُبْح مظهره، وذلك حين نسبه إلى البهائم، وجرّده من جنسه الآدمي[1]:

يلوحُ لنا في صورةٍ آدميّةٍ ... وليسَ على التّحقيقِ من نَسْلِ آدمِ

له شِبْهُ إنسانٍ إذا ما رأيتهُ ... فإنْ نسبُوهُ فهو إحدى البهائمِ

ويجسّد عبدالمحسن الإسكندري[2] صورة أعور، حيث يعمد إلى تضخيم هذا العيب الخَلْقيّ، مُظْهره بصورة هي أقْربُ إلى ما يُعرف اليوم بالرّسم الكاريكاتوريّ المضحك، يقول[3]:

وأعورُ العينِ قُبْحُ مَنظَرِهِ ... أثَّرَ في عَينِ دَهْرنا عَوَرا

ما كُنْتُ أدْري قُبيلَ أنْظُرُه ... أنّ المسيخَ الدَّجالَ قدْ ظَهَرَا

مَن قال إنّ الإلهَ خالقُهُ ... فإنّهُ بالإلهِ قدْ كَفَرا

وتخيّر بعض الشّعراء - في سبيل أن يكون لمثل هذا الهجاء قوّته وتأثيره- صوراً من الحيوانات والحشرات، فشبّهوا مهجوّيهم بها، للحطّ من مكانتهم، وتحقيرهم بين الناس. فقد شبّه ابن قلاقس وجه رجل يدعى «ابن عدلان» بوجه الحمار، مورداً ذلك بأسلوب جارح هو أقرب إلى الشّتائم والسّباب، يقول[4]:

يا ابنَ عَدْلانَ يا أخسَّ الرِّجالِ ... والذي تَسْتَحِقُّ نَتْفَ السِّبالِ[5]

---

(١) ابن الساعاتيّ، ديوانه: ١/ ١٣٧.

(٢) من شعراء الخريدة. كان كثير الهجو، وله معرفة بصناعة الطّب والهندسة. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): ٢/ ٢٢٣.

(٣) المصدر السّابق: ٢/ ٢٢٤.

(٤) ابن قلاقس الإسكندريّ، ديوانه: ٣١٧.

(٥) السِّبال: الشوارب.

لكَ وجْهُ الحمارِ لكنْ علـــيهِ لحيةٌ عُلِّقتْ كبعضِ المخالي[1]

وعمدوا إلى التّشبيه بأحقر الحشرات، وأضعفها بنية، لمحاولة تقزيم خصمهم، أو -ربّما- لإلغاء وجوده نهائياً. ويبدو مثل هذا في أبيات لابن السّاعاتيّ، يصوّر فيها حال نمّام من خلال الاتّكاء على أُسلوب المفارقة الذي يجسّد التّباين ما بين هيئته الّتي تبدو مثيرة للشّفقة، وما يصدر عنه من مساوئ فادحة الخطورة، مشبِّهه بالذّر- على ضعفه وصغر حجمه- لتحقيره والهزء منه[2]:

وضعِيفُ البناءِ عنْ حَمْلِ ثَوْبَيـ ـهِ قويٌّ في نقلِ كلِّ حديثِ

فهو لو كان مِثلَ أُحْدٍ لما قَصْـ ـصَرَ عنْ حملِهِ بسَيْرِ حَثِيْثِ

هو كالذَّرِّ لا كمثْلِ أبـــي ذَرْ رٍ وكَمْ بينَ طيّبٍ وخَبِـــيْث

ولا يخفى ما في البيت الأخير من تكلُّفٍ واضح. نتج عن مجانسة الشّاعر المفتعلة بين كلمتي (الذّرّ) و (أبي ذرّ)!

***

ب- هجاء الأهل والأقارب:

من صور الهجاء الشّخصيّ، هجاء الأهل والأقارب؛ إذْ تعرّض عدد من الشّعراء لأقاربهم بالذّمّ والتّقريع. ولعلّ في هذا ما يكشف عن خلل كان يسود العلاقات الاجتماعيّة في بعض جوانبها[3]. كما أنّه قد يكون لنشأة كلّ شاعر دور في وجود مثل هذه الظّاهرة؛ فمن الشّعراء منْ كانت حياته سلسلة خيبات متتالية نشأت بفعل عوامل كثيرة؛ من مثل: الفقر والحرمان والتّربية غير السّويّة، انعكس صداها على شخصيّة

---

(١) المخالي: جمع مخلاة وهي كيس العلف الذي يعلق في رقبة الدّابة.

(٢) ابن السّاعاتيّ، ديوانه: ٢/ ٧٣.

(٣) فوزي سعد عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسيّ، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: ١٧٢.

الشّاعر وسلوكه، ومن ثمّ على علاقاته بمن يحيطون به من أقارب وأفراد. بل كان لمثل هذه النّشأة أثر في علاقة الشّاعر بنفسه؛ وذلك حينما توجّه بعض الشّعراء لها بالهجاء، كما سيتّضح بعد.

وكان لشخصيّة **الأب** نصيبها من هذا الهجاء، فهذا أبو عبدالله النّجار[1]، يرى أنّ أباه مُبرّأ من كلّ خير، فهو كالأفاعي الخبيثة التي لا تؤتمن[2]:

لي أبٌ كـــلُّ ما به يُوْصـــفُ النّا ... سُ مِن الخيْـــرِ فـهـو منهُ مُبرّا

فهو كالصِّلّ[3] من بنات الأفاعي ... كُلّـمـا زادَ عُمـــرُهُ زادَ شَـــرّا

ويكيل ابن عُنين لأبيه كثيراً من المثالب والمساوئ، محمّله مسؤوليّة خموله عن إدراك المعالي، وبعده عن فِعْل الخيرات[4]:

وجنّبــني أنْ أفعـــلَ الخـــيرَ والدٌ ... ضَئِيْلٌ إذا ما عُـــدَّ أهلُ المناسبِ

بعيدٌ عن الحُسنى قريبٌ من الخَـنَا ... وضيعُ مساعي الخيرِ جمُّ المعـايبِ

إذا رُمْتُ أنْ أسمو صُعُوداً إلى العُلى ... غَـــــدَا عِرْقُهُ نحوَ الدّنيّـةِ جاذبي

والأبيات تكشف عن إحساس دفين بالنّقص؛ فالشاعر يُقرُّ -صراحة- بعجزه عن أيّ إمكانيّة للسموّ أو الصّعود، بسبب من ضعة أصله -كما يقول- الّتي لم تساعده على شيءٍ من ذلك.

أمّا **الزّوجة**، فقد تعرّض لها غير شاعر، ومن الصّور الطّريفة التي تلقى الدّارس

---

(١) هو أبو عبدالله محمّد بن عليّ بن البواب الموصليّ النّجار، من شعراء القرن السادس الهجريّ، يُذكر أنه كان بمصر سنة ٥٧٢هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء الشّام): ٢/ ٣٩٢؛ الصّفديّ، الوافي بالوفيات: ٤/ ١٥٩.

(٢) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام) :٢/ ٣٩٢.

(٣) الصِّلّ: الخبيث من الحيّات.

(٤) ابن عُنين، ديوانه: ٢٣٩؛ وانظر في المعنى نفسه: ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: ١٨٥.

في هذا المجال، أبيات للبوصيري[1]، يشكو فيها حالته مع زوجه التي عكّرت -كما يرى- صفو أيّامه، وملأت داره بالبنين الّذين ينوء كاهله عن تحمُّل تبعات تربيتهم. ويلمس من الأبيات -إضافة إلى ما فيها من روح الدّعابة والفكاهة- الوضع الاجتماعيّ المرهق الذي عاناه البوصيريّ ، يقول[2]:

. . وَبَلِيَّتي عِرْسٌ بُليتُ بمقْتِها ... والبَغْلُ مَمقُوتٌ بِغَيْرِ قِيَامِ

جَعلَتْ بإفلاسي وَشيبي حُجَّةً ... إذا صِرتُ لا خَلفي ولا قُدَّامي

بَلَغَتْ من الكِبَرِ العِتيّ وُنكِّسَتْ ... في الخَلْقِ وهي صبيَّةُ الأَرْحامِ

إنْ زُرْتُها في العامِ يوماً أنْتَجَتْ ... وأتَتْ لسِتّةِ أَشْهُرٍ بِغُلامِ

أوَ هذه الأولادُ جاءتْ كُلُّها ... مِنْ فِعْلِ شيْخٍ ليسَ بالقوَّامِ

وأظُنُّ أنَّهمُ لِعُظْمِ بَليَّتي ... حَمَلتْ بِهِمْ لا شكَّ في الأَحْلامِ

يا لَيْتَها كانتْ عَقيماً آيساً ... أو لَيْتَني مِنْ جُمْلةِ الخُدَّامِ

أو لَيْتَني مِنْ قبلِ تَزْويجي بها ... لو كُنتُ بِعْتُ حَلالَها بِحَرَامِ

ويقارب هذا الموقف، أبيات لابن دانيال الموصليّ، يربط -من خلالها- سبب شقائه بزوجه التي كانت -كما يرى- وراء تعاسته وبؤسه، وغيابه عن واقع الحال؛ حتّى بات غير قادر على الإدراك، فاقداً الإحساس بما حوله، يقول[3]:

---

(١) هو أبو عبدالله محمّد بن سعيد بن حماد، المعروف بالبوصيريّ، شاعر مصري اشتهر بمدائحه النبويّة، توفي سنة ٦٩٨هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٦١-٦٦؛ الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٣٦٢-٣٩٦.

(٢) البوصيريّ، ديوانه، تحقيق : محمد سيّد كيلاني، ط٢، مكتبةمصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٣م: ٢٥٤؛ وثمة قصيدة أخرى للبوصيريّ، عرض في مقطع منها بأسلوب قصصيّ ساخر حال زوجه التي تقوم بزيارة إلى أختها، فتشكو لها تعاستها وسوء حالتها معه. ثمّ ما يكون من أمر أختها التي تقوم بدور تحريضيّ واضح حين "تهوّن من قدره في نفسها" وتدعوها إلى أخذ حقّها منه. ويختتم أبياته بتصوير جانب من الشّجار الذي أشعلته الزّوجة حال رجوعها إلى البيت. انظر: المصدر نفسه: ١٦٧.

(٣) ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: ١٦١-١٦٢، وللاستزادة انظر: ٢٣٧-٢٣٨.

. . لكَ أشْكُو مِنْ زَوْجةٍ صيَّرتْني غَائِبـاً بينَ سـائـرِ الحُضَّـارِ

غِبتُ حتّى لو انّهُمْ صَفَـعُونـي قُلتُ كفُّوا باللّه عن صَفْعِ جاري

فنـهاري من الـبلادةِ لَيـلٌ في التّسـاوي والليلُ مِثلُ النّهارِ

دار رأسـي عنْ بابِ داري فباللّـ ـهِ اخبروني يا سادتي أينَ داري

وقد أفحش بعض الشّعراء في هجاء زوجه. ومن هؤلاء ابن روبيل الأبّار[1] الذي «كان -كما يقول العماد- مع نسكه وعِفّته، مُغرىً بهجو زوجته»[2]. ومما جاء في بعض هذا الهجاء قوله فيها[3]:

لي قطّةٌ أنْظَفُ منْ زَوْجتي و . . . أنْظَفُ مِنْ فِيْـها

وكـلُّ ما صـوّرهُ ربُّنـا مِـن الخَـنا ركَّبهُ فِيْها

وفي إطار هجاء الأقارب، يجد أبو الحسين الجزّار[4] في **زوج أبيه** الطّاعنة في السّنّ، مجالاً للتندّر والسّخرية؛ إذ يتناول جوانب معيّنة من هيئتها، فيصوّرها تصويراً مضحكاً، يُظهر قُبْحها وبشاعتها[5]:

تزوّجَ الشَّـيْخُ أبي شَيْـخَةً ليـسَ لها عَقْلٌ ولا ذِهْنُ

لو بَرَزَتْ صُوْرتُها في الدُّجى ما جَسَرَتْ تُبْصِرُها الجِنُّ

كأنَّـها في فَرْشِـها رمّـةٌ وشَعـرُها مِنْ حَولِها قُطْنُ

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن يحيى بن روبيل الأبّار. من أهل دمشق، وُصف بتدينه ونسكه، توفي سنة ٥٣٢هـ. انظر العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): ١/ ٢٦١.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٦٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) هو جمال الدين يحيى بن عبدالعظيم، شاعر مصري، عمل بالجزارة، كان صاحب فكاهة ومجون، توفي سنة ٦٧٩هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ٤/ ٢٧٧.

(٥) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٤/ ٢٩٢.

وقائلٍ قالَ لي ما سِنُّها فَقُلتُ ما في فَمِها سِنُّ

وحين يموت أبوه، يجعلها السّبب في ذلك. مستثمراً أُسلوب الفكاهة الذي عُرف به؛ إذ يستغرب أن يوصي لها أبوه بالصّداق، وهي المتسبِّبة في قتله[1]:

أذابتْ كلى الشَّيْخِ تلكَ العجوزُ وأَرْدَتْهُ أَنفاسُها المرديهْ

وقدْ كانَ أوصى لها بالصّداقِ فما في مُصيبَتِه تَعْزيهْ

لأنّيَ ما خِلْتُ أنَّ القتيلَ م يوصي لقاتله بالدِّيهْ

ومثل هذا التعريض ، نجده عند ابن عُنيْن الذي شمل هجاؤه نماذج بشريّة متعدِّدة، إذ يبدو متبرِّماً من حماته التي تشجّع ابنتها، وتحثّها على لطم وجهه، والإقذاع له في القول على نحو ما يذهب[2]:

أَشكُو إلى اللّهِ حماتي فما يَعْلَمُ ما لا قَيْتُ منها سِواهْ

عَجُوزُ سوءٍ لو رأتْ قودةً في النَّسرِ طارتْ بجناحيْ قطاهْ

تقولُ للبنتِ الطمي خدَّهُ ولا تَهَابيه وصكّي قفاهْ

وباهتِيْهِ إنْ رأى ريْبَةً وابكي وسُبّيه وسُبّي أباهْ

أمّا كمال الدّين بن العديم[3]، فيبدي توجّسه وريبته من **ابن العمّ**، ومن كلّ قريب. فيعمد إلى التّلاعب بالحروف لاستدعاء معان مختلفة، مما جعل التكلُّف في أبياته ظاهراً[4]:

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات: ٤/ ٢٩٢ .

(٢) ابن عُنين، ديوانه: ١٣٣ .

(٣) هو عمر بن أحمد بن هبة اللّه بن أبي جرادة. كان محدّثاً ومؤرّخاً ، ولي قضاء حلب، وتوفي سنة ٦٦٠هـ. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ١٦/ ٥؛ الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ١٢٦ .

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٦/ ٥٤.

احذرْ من ابنِ العمِّ فهو مُصَحّفٌ[1] ومِنَ القــريب فإنّما هو أحرفُ

القافُ من قَبْرٍ غَدا لَــكَ حــافراً والرّاءُ منْهُ رَدَىً لِنَفسكَ يَخْطفُ

واليــاءُ يأسٌ دائــمٌ من خَــيْرِه والبَاءُ بُغضٌ مِنــهُ لا يتكــيَّفُ

فاقْبلْ نَصيحَتيَ الّتــي أهديتُهــا إنّــي بأبنــاءِ العُمُومَةِ أعْــرفُ

ووُجدَ من الشّعراء من تَعرَّض **لنفسه** بالهجاء. ولعلّ بعض هذا الهجاء كان يرد في سياق الدّعابة والفكاهة، وكان بعضه -فيما يبدو- بتأثير من طبيعة بعض الشّعراء؛ فكثيراً ما كان هذا الهجاء يقترن بالشّعراء الذين عانوا من وطأة ظروف قاسية، كالفقر والحرمان ، وسوء المعاملة، ودمامة الخَلْق؛ مما ولّد لديهم ردّة فعل غاضبة تجاه كلّ شيء حتى أنفسهم التي لم تكن بمأمن من ألسنتهم. فهذا ابن مكنسة[2] يرسم لنفسه صورة ساخرة تثير في النّفس التندّر والضّحك، بقدر ما تثير - في الوقت ذاته- البؤس والحزن، وذلك إذ يقول[3]:

أنا الــذي حدَّثــكُمْ عَنْهُ أبو الشَّــمَقْمقِ[4]

وقــال عنّــي إنّني كُنــتُ نديمَ المتّــقي

حتّى متى أبْقى كذا تَيْساً طويــلَ العُنُــقِ

بلحــيةٍ مُسْبَــلةٍ وشــاربٍ مُحــلَّــقِ

---

(١) أي غمّ، والتصحيف: تغيير في الكلمة بإعجام أو إهمال.

(٢) هو إسماعيل بن محمّد الإسكندريّ، عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريّين. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): ٢/ ٢٠٣؛ الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ١٩٤.

(٣) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): ٢/ ٢١٤.

(٤) هو مروان بن محمّد الملقّب بأبي الشّمَقْمق، شاعر هجّاء، من أهل البصرة، توفي نحو ٢٠٠هـ. انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط٣، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٩٦٩م: ١/ ٢٢٥؛ الزركلي، الأعلام: ٧/ ٢٠٩.

يا ليتَها قدْ خُلِـقـتْ مِنْ وجْـــهِ شيـخٍ خَلَقِ

أمّا عرقلة الكلبيّ، فقد هجا نفسه غير مرّة. ولعلّ ذلك يعود إلى فكاهته وخفّة روحه، كـما أنه قد يكون لدمـامة خَلْقه -ومـا قد يخـالط ذلك من شـعور بالدّونيّة والنّقص- أثرٌ في توجّهه هذا؛ إذ وصفَ بأنّه «كان شيخاً قصيراً أعور»[1]، وهو يذكر هذا -صراحةً- في مثل قوله[2]:

مولاي إنّ الكلبيَّ عَـــرْقلَةً مِثلُ المُعَيْديّ صاحبِ المَثَلِ[3]

ويرسم لنفسه -في موضع آخر- صورة ساخرة، يجسّد - من خلالها- قُبْح هيئته حين يقارنها بغلامٍ رشيق أحبّه، فيبدو البون بينهما واسعاً، والاختلاف كبيراً[4]:

لي حَبيْبٌ قدُّه قُـــدْ دَ من السُّـــمْرِ الرِّقاقِ

مَنْ رآه ورآنـــــي قالَ ذا غَيْـــرُ اتّفـــاقِ

أعْورُ الدّجّال يَمْشي خَلْفَ عوجِ بنِ عناقِ[5]

وأخيراً فقد مال بعض هذا الهجاء -أحياناً- **إلى التّعميم**، وذلك حين يلجأ الشّاعر إلى الشكوى من أقاربه دون أن يخصّص أحداً منهم، ويبدو مثل هذا في الأبيات التّالية التي أرسلها أُسامة بن منقذ إلى والده، بعدما ساءت العلاقة بينه وبين بعض أبناء عمومته، مصوّراً فيها أحقاد أقاربه عليه، ويأسه من إصلاح ذات البين معهم، وذلك إذ

---

(١) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): ١/ ١٧٨.

(٢) عرقلة الكلبيّ، ديوانه: ٨٦.

(٣) يشير إلى المثل: «تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه». الذي يضرب لمن خبره خير من مرآه. انظر: الميدانيّ، أحمد بن محمّد (ت٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمّد محيي الدين عبدالحميد، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢م: ١/ ١٢٩.

(٤) عرقلة الكلبي، ديوانه: ٦٧، وللاستزادة من هجائه لنفسه انظر الصفحات: ١٣، ٣٥، ٦٣.

(٥) عوج : هو عوج بن عوق: رجل كان يوصف بالطّول الخارق، يقال بأنّه ولد في عهد آدم، وعاش إلى زمن موسى ومات على يديه. انظر: السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت٩١١هـ)، الحاوي للفتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م: ٢/ ٣٤١.

يقول[1]:

. . دَعْنِيْ وقَطْعَ الأرضِ دونَ معاشرٍ كلٌّ عـــليّ لِغَـــيرِ جُرْمٍ مُحْـنِقُ

تغْلي عليّ صُدُوْرُهمْ، مِنْ غَيظِهـــمْ فتكادُ مِنْ غَيْـظٍ علـــيّ تَحـــرَّقُ

أعْيا عليَّ رِضَاهُمُ ، فيـــــئسْتُ مِنْ إدْراكِه، ما النّجْمُ شـيءٌ يُلْحـقُ

قدْ أفْسدُوا عيْشي علـــيّ، وعَيْشَهُمْ فأنا الشَّقيُّ بِهم، وبي أيضاً شَقُوا

فَضْلُ الأقـاربِ برُّهُـــمْ وحُنـــوُّهُمْ فـــإذا جَـــفَوني، فالأباعِدُ أرْفقُ

بيْني وبَيْنَهُـــمُ هِـــناتٌ في الحـــشَا مِنـــها نُـدوبٌ، ما بَقِيْتُ وما بَقُوا

وأبيات أسامة هذه لا تحمل هجاء صريحاً وقاسياً لأقاربه، إذ لا يكاد الدّارس يعثر على مثل هذا النّمط من الهجاء في ديوانه كلّه، وهي أقرب إلى الشّكوى، وبثّ مواجد نفسه وأشجانه.

أمّا مجير الدّين بن اللّمطيّ[2]، فيحسُّ بغربة ثقيلة، حين لا يجد من بين أقاربه من يؤنس وحشته، ويخفّف من وطأة وحدته؛ مما يدفعه إلى اليأس من واقعه الّذي لا يرى فيه أيّ خير[3]:

. . أُقلّبُ طَرفي لا أرى ليَ مُؤْنسـاً لعمركَ فِيهمْ غَـيـرَ طِرْسٍ مُنمَّقِ[4]

يُحدِّثُني عن حُسنِ أحْوالِ من مَضى ويُخْبرُني عـــن قُبْحِ أحوالِ مَن بَقِي

---

(١) أسامة بن منقذ، ديوانه: ١٧٨؛ وفي هذا المعنى انظر: المصدر نفسه: ١٦٥.

(٢) هو عمر بن عيسى، مجير الدين اللّمطيّ، شاعر ونحويّ مصريّ، توفي في قوص سنة ٧٢١هـ، وله من العمر ٨٣ عاماً. انظر: الأدفويّ، كمال الدين جعفر (ت٧٤٨هـ)، الطّالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصّعيد، تحقيق : سعد محمد حسن، الدار المصريّة العامة للتأليف، ١٩٦٦م: ٤٤٨.

(٣) الأدفويّ، الطالع السّعيد: ٤٥٢.

(٤) الطِّرْس: الصحيفة ، أو الكتاب الذي محي ثم كُتب.

٤- التّهاجي بين الشّعراء:

-١-

شهد شعر مصر والشّام زمن الحروب الصّليبيّة عدداً من المساجلات الهجائيّة بين بعض الشّعراء. ويلاحظ أنّ هذه المساجلات لم تكن تأخذ صورة منظّمة محترفة، كما هو الشّأن -مثلاً- في النّقائض الأمويّة. وإنما كانت- في أغلبها- مقطوعات قصيرة، جاءت وليدة حادثة فرضها واقع الحال.

وأوّل ما يلقى الدّارس في هذا المجال، ما وقع بين ابن منير الطّرابلسيّ وابن القيسرانيّ[١]. ومن الطّبيعي أن تكون المنافسة بين هذين الشّاعرين على أوجها؛ فقد كانا من أكبر شعراء العصر. وهما -كما يصفهما العماد- "كفرسي رهان وجوادي ميدان"[٢]. ويمكن أن يكون -كذلك - لمذهب كلٍّ منهما أثر في هذه العداوة؛ فقد كان "القيسراني سنيّاً متورّعاً، وابن منير مغالياً متشيّعاً"[٣]. غير أنّه لم يصل إلينا من مهاجاتهما هذه -فيما يبدو- سوى النّزر القليل[٤]. من ذلك ما قاله ابن منير حين دخل ابن القيسرانيّ دمشق، فصادف دخوله إيّاها حدوث حريق كبير، نتج عنه أعمال من السّلب والنّهب. وقد استغلّ ابن منير هذه الحادثة في هجائه ، ليصبّ -من خلالها- جام غضبه، ويسدّد نافذ سهامه إلى خصمه، يقول[٥]:

---

(١) هو أبو عبدالله محمّد بن نصر بن صغير القيسرانيّ، شاعر مجيد، كان هو وابن منير الطرابلسي شاعري الشام في عهد الملك العادل نور الدين زنكي. توفي سنة ٥٤٨هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشام): ١/ ٩٦؛ ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ١٩/ ٦٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٤٥٨.

(٢) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): ١/ ٧٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) مما يؤكد كثرة الشعر الذي قيل في ذلك، شيوع أمر هذه الخصومة، واستحواذها على اهتمام بعض مؤرخي الأدب في تلك الفترة. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء الشام): ١/ ٧٩؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٩/ ٦٤؛ أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين: ١/ ٢٩٣.

(٥) ابن منير الطّرابلسيّ، شعره، مخطوط رقم (٢١٠)، مكتبة أمبروزيانا (وعنه شريط مصوّر في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنيّة): ١٥٠.

يا طويسَ الشّؤمِ هـذي الحركهْ ألحَقَتْ جلّـقَ بالمؤتفـكهْ

جئتَها تُذْكِرُها عَـهْداً مضـى من توالي الفِتَـنِ المُشْـتَبكَهْ

يا رسولَ القَـدَرِ الحتْـمِ إلى كُلِّ مَنْ سدّ عليـها مَسْلَكَهْ

يا أبا الكَعْبِ الذي ما حطّ في بُقْـعةٍ إلا أطـارَ البَـركَهْ

لك رِجْلٌ قُطِعتْ لو جُمِـعَتْ تحْـتَ كيـوانَ لهدّتْ فَلَكهْ

ولا تكاد الأبيات في مضمونها، تخرج عن هذه الفكرة، وهي الإلحاح على ما كان يتصف به ابن القيسرانيّ من شؤم وسوء طالع. لذا نجده يدعو حاكم دمشق إلى إخراجه منها؛ لأنّه -كما يصوّره- مصدر كلّ بؤس وشقاء:

يا مُجيرَ الدّيـنِ مَنْ دلّ عـلى رَبْعِكَ المأهولِ هذي الهلكهْ

مَنْ رمى مَغْناك، لا ريع، بمن كلُّ منجـاةٍ نحاها مهلِكهْ

مَنْ إذا لا حـقَ شَمْـلاً بتّهُ وإذا عنّ لوَصْـلٍ بتـكهْ[1]

أيّ دارٍ أمّـهـا ما غمّـها أيّ سترٍ ضمّهُ ما هتَـكَهْ

أمّا ما قاله ابن القيسرانيّ في ابن منير، فيبدو أنّ أغلبه قد ضاع ؛ إذ لا يعثر الدّارس منه إلاّ على قوله[2]:

ابنَ مُنيرٍ هجوتَ منّـي حِبْراً أفادَ الوَرى صوابَهْ[3]

ولم تُضيِّقْ بذاكَ صدْري فـإنّ لي أسوةَ الصّحابَهْ

ويتّضح من هذين البيتين، ما للعامل المذهبيّ من أهميّة في هذا الهجاء؛ فقد كان

---

(١) بتكه: قطعه.

(٢) ابن القيسرانيّ، شعره ، جمع وتحقيق ودراسة: عادل جابر، رسالة دكتوراة مخطوطة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٧م: ٩٣.

(٣) الحَبرْ: بفتح الحاء المهملة وكسرها: العالم الصالح.

-كما ذكر- من أبرز بواعثه ومسبّباته. والبيتان لا يتضمّنان هجاء بقدر ما يدلان على نفس متسامحة غير آبهة بالجدل والخصام.

ولم يقتصر هجاء ابن منير على ابن القيسرانيّ، وإنما امتدّ ليشمل شعراء آخرين، فهو -كما وصف- «خبيث اللّسان.. لا يسلم أحد من هجائه»[1]. ومن هؤلاء أبو نزار النّحوي[2]، المعروف "بملك النّحاة"؛ حين يتّخذ من روح الدّعابة والنّكتة، وسيلة لهجائه والغمز في جوده وشجاعته، يقول[3]:

عَتَبْتُ على قطّ ابن منير ... وقُلتُ: أتيتَ بِغيرِ الصّوابِ

جَرَحْتَ يداً خُلِقَتْ للنَّدى ... وبَذْلِ الهِبَاتِ وضرْبِ الرِّقابِ

فقال لي القِطُّ: وَيْكَ ... انتبِهْ أليسَ القطاطُ عِداةَ الكلابِ

ومما قاله فيه -أيضاً- ساخراً من صنعته في النّحو، متّهما إيّاه بالعجمة والجهل وسوء القياس[4]:

أيا مَلِكَ النّحوِ، والخاءُ من ... تهجّيهِ منْ تحتُ قَدْ أعْجَمُوها[5]

أتانا قياسُكَ هذا الّذي ... يُعجّمُ أشياءَ قد أعْرَبُوها

ولمّا تَصَنّعْتَ في "العاصويّ" ... غَدَا وجْهُ جَهْلِكَ فيه وَجُوها

وقالُوا قفا الشّيْخُ "إنّ الملو ... كَ إذا دَخَلُوا قرْيَةً أفسدُوها"[6]

---

(١) ابن فضل العمري، شهاب الدّين أحمد (ت٧٤٩هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط، إصدار فؤاد سزكين، معهدتاريخ العلوم العربيّة والإسلاميّة، في إطار جامعة فرانكفورت، ١٩٨٨م: ١٥/ ٥١٨.

(٢) هو أبو نزار بن أبي الحسن صافي بن عبدالله، المعروف بملك النّحاة، خرج من العراق، واستوطن الشّام، توفي سنة ٥٦٨هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٩٢.

(٣) ابن منير الطّرابلسيّ، ديوانه: ١٢٤، وتنسب الأبيات -بتغيير طفيف في بعض كلماتها- إلى فتيان الشاغوري، انظر: ديوانه: ٣٠.

(٤) المصدر السابق: ١٣٧.

(٥) يعني صيّروا لفظ "النّحو": نَجْواً، وهو ما يخرج من البطن من ريح وغائط.

(٦) اقتباس من الآية ٣٤ من سورة النّمل.

وقد كان لهذه الأبيات -فيما يبدو- تأثيرها في نفس أبي نزار الذي يردُّ عليه بأبيات أخرى- من نفس البحر والقافية- يتّهم فيها ابن منير بسرقة أشعار غيره، ونسبها إلى نفسه، معرِّضاً بسوء خلقه وكثرة هجائه النّاس[1]:

أيا ابنَ منيرٍ حَسبتَ الهجا ءَ رُتْبَةَ فَخْرٍ، فَبَالغْتَ فيها

جمعْتَ قوافيَ مِنْ ذا وذا وأَصْبَحْتَ مُنْتَحِلاً تدَّعيها

وقالُوا: قَفَا الشَّيْخُ إنّ الملو كَ إذا أخطأتْ سُوقةٌ أدّبُوها

ولم يكن ابن منير -في المقابل- بمنأى عن ألسنة الشّعراء؛ إذْ تصدّى له - غير أبي نزار- شعراء آخرون، من مثل أبي الحكم المغربي[2] الذي أمعن في السّخرية منه، وكال له من المثالب والمساوئ الكثير، ومن ذلك قوله[3]:

وهو على خِفّةٍ به أبداً مُعْتَرِفٌ أنّهُ من الثُّقلا

يُمتُّ بالثَّلْبِ والرَّقاعةِ والسـ ـُخفِ، وأمّا بما سِواه فلا

إنْ أنتَ فاتحتَهُ لتَخْبُرَ ما يصْدرُ عَنْهُ فَتَحْتَ مِنْهُ خَلا

وكان لابن قادوس في المهاجاة أُسلوبه الخاصّ الذي تميّز بروح الفكاهة والدُّعابة. ومن الشّعراء الذين أكثر من هجائهم الرّشيد بن الزّبير[4]. ومن أهاجيه فيه قوله متهكّماً

---

(١) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، حقّقه وشرحه: محمد بهجة الأثري، وزارة الإعلام العراقية، بلا تاريخ: ٣/١/١٣٦.

(٢) هو أبو الحكم عبيدالله بن المظفر الأندلسيّ، وصف بلهوه ومجونه، قدم من الأندلس وأقام في الشّام حتى وفاته سنة ٥٤٩هـ. انظر: ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ: ٦١٤-٦٢٧.

(٣) العماد الأصفهانيّ، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم، دار نهضة مصر، الفجالة، بلا تاريخ: ٤/١/٣٨٢. وتنسب الأبيات -كذلك- لعبد المنعم الجلياني. انظر: ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: ١٠٦.

(٤) هو الرّشيد أبو الحسين أحمد، تولّى أمر بعض الدّواوين في الإسكندرية. قتل سنة ٥٦٣هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/١٦٠.

من سواد لونه[1]:

يا شِبْهَ لقمـانٍ بلا حِكْـمةٍ وخـاسِراً في العِـلْمِ لا راسِخا

سَلَخْتَ أشعارَ الورى كُلَّها فَصِرْتَ تُدْعى الأسود السَّالخا[2]

فـهـو يتّـهـمـه -زيادة على ذلك-بالجـهل، والسّطو على أشـعـار الآخـرين وسرقتها. ويلاحظ استحواذ هذا المعنى الأخير على اهتمام بعض الشّعراء الذين حرصوا على الطّعن في مقدرة خصومهم الشّعريّة؛ وهم إما يتّهمونهم بالسّرقة والسّطو كما بدا في الأبيات السّابقة. أو بفساد هذا الشّعر وضعفه. فقد تعرّض ابن عُقَيْل الزُّرَعيّ[3] لأحد الشّعراء المصريّين، وراح يحطّ من قيمة شعره، ويسخر من تفاهة معانيه، وفساد صياغته، وذلك إذ يقول[4]:

يا أديباً في الـرّأي غَيْرَ حَصيفِ وسَخِيفاً أتى بِشِعرٍ سَخِيفِ

جاءَنا شعْرُك الثّقـيلُ المعـاني بارداً نظْـمُهُ بوزْنٍ خَفيفِ

ما انتقدْنا ما قُلْتَ إلا وَجَـدْنا هُ على نَـقْـدِه كثيرَ الزّيـوفِ

فلهذا كلامُك الفـاسـدُ الصَّيـ ـغة مُلْغـىً لعلّةِ التّصـريفِ

غير أن الناظر في الأبيات السّابقة، يلاحظ أنّ ابن عقيل قد وقع فيما اتّهم به غيره.

ولعل تكرار الشّعراء لهذه الفكرة، يعود إلى رغبتهم في سلب أندادهم وتجريدهم

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/١٦٣.

(٢) الأسود هو الثعبان، والتورية واضحة.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن عُقَيْل بن نَصْر الزُّرعيّ العامريّ، كان على صلة بالملك المعظّم عيسى بن أبي بكر الأيّوبيّ، مات شاباً سنة ٦٢٣هـ. انظر: ابن الشّعار الموصليّ، قلائد الجمان، مخطوط: ١/٢٤٥؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، نقله إلى العربية: رمضان عبدالتواب، ط٣، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: ٥/٥٠.

(٤) ابن عُقيل الزُّرَعيّ، المختار من ديوانه: ٥١.

من شاعريّتهم التي كانت الميدان الّذي فيه يتفاخرون. فلا شكّ أنّ كثيراً من هذه المهاجاة كان بدافع المنافسات الأدبيّة.

أمّا ابن السّاعاتيّ، فقد كان له عدد من الأهاجي في الشّاعر المصريّ ابن سناء الملك[1]، ويتّضح منها أنّ العلاقة بين الشّاعرين لم تكن -على ما يبدو- وديّة، ولعلّ ذلك يكون بسببٍ من الخصومات الأدبيّة التي قد تحصل بين الشّعراء. كما يمكن أن يكون لتعصُّب كلٍّ من الشّاعرين لموطنه دور في مثل هذه الخصومة، إذ صرّح ابن الساعاتيّ -في غير موضع- بتعرُّض ابن سناء الملك لأهل الشّام بالذّمّ والشّتيمة. يبدو ذلك -مثلاً- في الأبيات التالية، التي يندّد فيها -كذلك- ببخل ابن سناء الملك، وسوء معشره، يقول[2]:

نَزَلنَا علَى شَاعرِ البَلْـدتين ... نُزُولَ الجياعِ عَلى المُعْـدَمِ

فلا باليدينِ أجادَ القِـرى ... ولا المذْقَ أحْسَنَهُ بالفَـمِ

وأَقْبلَ يَشْتُمُ أهـلَ الشـآمِ ... ولولا الحَمَاقةُ لمْ يَشْـتُمِ

وباتَ يَذمُّ الخـفيفَ الثّقيلَ ... خَفِيْفُ الدِّماغِ ثَقِيْـلُ الدَّمِ

وفي أبيات أُخرى، يصوّر ابن السّاعاتيّ شدّة بخل ابن سناء الملك -ورميه إياه بالبخل يكاد يتكرّر في معظم أهاجيه له- من خلال وصف ليلة حلّ فيها ضيفاً عليه؛ إذ لا يجد عنده -كما يقول- سوى المهانة وعدم التّقدير[3]:

أجاعنيَ القاضي السَّعيدُ ولم أكنْ ... بأوّلِ ضيـفٍ في مَغَانيـهِ جائعِ

أَقمْـتُ لـديْهِ لَيْـلَةً نابغِـيّةً ... عزيزَ كَرى الأجْفانِ حَزْنَ المضاجعِ

---

(١) هو القاضي السّعيد هبة الله بن القاضي الرشيد. شاعر ووشاح مصريّ، توفي سنة ٦٠٨هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): ١/ ٦٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٦١-٦٦.

(٢) ابن الساعاتيّ، ديوانه: ٢/ ٣٨.

(٣) المصدر السابق: ١/ ١١٥.

وما منْ قِرىً غَير الزُّلالِ بِربـــعِهِ وذاكَ قِرى منْ باتَ ضيْفَ الضَّـفادعِ

ولم يكتف ابن السّاعاتيّ في هجائه ابن سناء الملك عند هذا الحدّ، وإنّما راح يرميه بمثالب أُخرى كثيرة، من مثل: وصفه بالعِيّ واللكنة، وفساد الأخلاق والتّشيّع، وغير ذلك[1]. ومع هذا فقد كان حظّ هذه الأهاجي من الوجهة الفنيّة قليلاً.

ومن المساجلات الهجائيّة التي يجدها الدّارس في شعر هذه الفترة، ما قاله شهاب الدّين التّلّعفريّ[2] في سُليمان بن بُلَيْمان[3]، متّبعاً في سخريته منه أُسلوب الفكاهة حين يربط بين حادثة وقوعه عن بغلته، وعقوقه والديه، يقول[4]:

سَمِعْتُ لابْـنِ بُلَيْمـــانٍ وَبَغْلـــته أُضْحُوكةً، خِلْتُها إحدى قصائده

قالُوا: رَمَتْهُ، وداسَتْ بالنِّعالِ على قَفَاه، قُلتُ لهُـمْ: ذا مِنْ عَـوائده

لأنّها فَعَلَتْ في حـقّ والـدِهـــا ما كان يَفْـــعَلُهُ في حـــقّ والده

أمّا ابن بُلَيْمان، فيصف -بدوره - التّلّعفَريّ، وصفاً ساخراً من خلال تصوير قُبح وجهه، وسوء منظره. وهو لا يكتفي بتجسيد هذه الجوانب الخارجيّة من شخصيّته، وإنّما ينفذ إلى جانب آخر، لعلّه أكثر إيلاماً وإصابة، وهو الشّك في صحّة نسبه. بيد

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٣٩، ٢/ ٤٠، ٢/ ٤٠٣. غير أنّ رميه بتهمة التّشيّع هذه يحتاج إلى وقفة حذرة متأنية؛ فقد نال ابن سناء الملك عند كلّ من السلطان صلاح الدّين الأيوبيّ وكاتبه القاضي الفاضل، وكلاهما سنيّ، حظوة بالغة من غير المعقول أن ينالها شاعر شيعيّ. ثمّ إنّ هذه التّهمة لم ترد في ديوان ابن الساعاتيّ إلا في بيت واحد قاله حينما سقط ابن سناء الملك عن جواد له كان يسمّى الجمل، وهو قوله:

أبغضتَ بالطّبعِ أمَّ المؤمنين ولمْ تُحْببْ أباها فجاءتْ وقعةُ الجملِ

(ديوانه: ٢/ ٤٠٣)

إذْ يبدو أنّ الذي دفعه لذلك هو اسم الجواد الجمل على سبيل المماحكة والتورية لا أكثر. انظر: تفصيل ذلك في: شوقي ضيف، عصر الدّول والإمارات (مصر)، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م: ٢٠٥.

(٢) هو محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة، شاعر نُعتَ بالخلاعة والمجون، توفي سنة ٦٧٥هـ. انظر: الصّفديّ، الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٥٥؛ ابن العماد الحنبليّ، شذرات الذّهب: ٥/ ٣٤٩.

(٣) هو شرف الدين أبو الرّبيع سليمان بن بُليمان، شاعر صاحب نوادر وفكاهة، توفي سنة ٦٨٦هـ، انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزّاهرة: ٧/ ٣٧٢.

(٤) التّلّعفَري، ديوانه، تحقيق ودراسة: هنريت سابا، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة القاهرة، ١٩٧٦م: ٤١٩؛ وانظر الأبيات في: الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ١٤٧.

أنّ ابن بُلَيْمان لم يستطع-مع ذلك- أن يبلغ في أبياته ما بلغه التّلعفريّ من طرافة الفكرة وسلاسة الأسلوب، فجاء قوله تقريرياً لم يتجاوز دائرة الطّعن والسّباب[1]:

ما رأَينا ولا سَمعنا بِشَيْخٍ قَبْلَ هذا مُقامرٌ بالخُفافِ

أسود الوَجْهِ أبيض الشَّعرِ لكنْ في سُحَيْمٍ وقُبحِه وخِفافِ

يدّعي نِسبةً إلى آلِ شَيْبا نَ، وتلكَ القبائل الأشرافِ

مِثلَ نَجْدٍ لو استطاعتْ لقالتْ ليسَ هذا الدّعيُّ مِنْ أكنافي

ومن الشّعراء المكثرين في الهجاء ابن عُنَيْن الذي سخّر لهذا الغرض جانباً كبيراً من موهبته، فأفرد له بابا واسعاً في ديوانه، وقد تعرّض بالهجاء -كما ذكر- لمعظم رجالات عصره من حكّام ووزراء وقضاة وشعراء وغيرهم. وستتناول الدّراسة في هذا الصّدد جانباً من أهاجيه في بعض شعراء عصره. وسأكتفي -على سبيل التّمثيل- بتناول بعضٍ منها في كلّ من : القاضي الفاضل[2]، والرّشيد النّابلسيّ[3].

فأمّا هجاؤه للقاضي الفاضل، فكان في أغلبه فاحشاً. ويلاحظ أنّه ربّما كان يتعمّد نهج هذا الأسلوب معه؛ ليحطّ من قيمته وقدره، ويشوّه من صورته أمام النّاس، إذ من المعروف أنّ القاضي الفاضل كان من كبار كُتّاب ديوان الإنشاء الّذين تمتّعوا بمكانة مرموقة في العصرين: الفاطميّ والأيوبيّ، ومن يتبوّأ مثل هذه المكانة من الجائز أن يُحسد عليها. ومما قاله فيه متهكّماً من حَدْبته التي يفسّرها تفسيراً مُضْحكاً[4]:

حاشا لعبدِ الرّحيمِ سيِّدنا الـ ـفاضلِ ممّا تقُولُهُ السَّفَلُ

---

(١) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ١٥٧-١٥٨.

(٢) هو عبدالرحيم بن علي البيساني العسقلانيّ، كاتب وشاعر، عاش في العصرين الفاطميّ والأيوبيّ، توفي سنة ٥٩٦هـ. انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان: ٦/ ١٥٦؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب: ٤/ ٣٢٤.

(٣) هو عبدالرحمن بن بدر بن الحسن، المعروف بلقب "مدلويه"، له مدائح في بعض ملوك بني أيّوب، توفي سنة ٦١٩هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ٢٦٦؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٢٧٥.

(٤) ابن عُنين، ديوانه: ١٨٩.

وتبَّ منْ قالَ إنّ حَدْبَـتَهُ فـي ظَهْـرِهِ منْ عَبيْدِهِ حَبَلُ

هذا قياسٌ في غَيْرِ سيِّـدِنا يَصحُّ إنْ كانَ يَحْبَلُ الرَّجلُ

ومن الأساليب التي نهجها في هجائه له، الطّعن ببعض الأشخاص الّذين كانوا على صلة وعلاقة به[1]؛ إذ يعمد إلى السُّخرية منهم، هادفاً - من كلِّ ذلك- إلى التندّر بالقاضي الفاضل نفسه، والحطّ من شأنه. ومن هذا القبيل قوله في شخص يسمّى السّديد الفاضليّ، معرِّضاً بارتباط مريب بينهما[2]:

سألْتُ السّديدَ الفاضليَّ وقد بَدا عليـهِ هُزالٌ بعدَ شدّةِ أَسْرِهِ

أكنتَ مريْضاً قال كلا وإنّمـا تَخَيَّرني عَبدُ الرَّحيمِ لسـرِّهِ

فقُلتُ لهُ إنّ القِطَمَّ[3] اختـيارُه لأوضعِ فَحْلٍ مِنْ تفـاقُمِ أمرِهِ

ولكنّهُ حقٌّ على اللّهِ وَضْعُ مـنْ تَرافَعَ جَهْلاً أو علا فَوْقَ قَدْرِهِ

وهبْ أنْ ما يُعْزَى إليه مُصدَّقٌ وأنَّكَ قدْ أقـررتَ فِيْـنا بأمرِهِ

فما هذه بينَ ثَدْيـيكَ قـال لي تقعُّرُ صَدْري مِنْ مُحدَّبِ ظَهْرِهِ

وأمّا الرّشيد النّابلسيّ، فكان له نصيب وافر من هذا الهجاء. من ذلك الأبيات التالية التي استثمر فيها ابن عُنين، أسلوب المفارقة والتّشخيص للتهكُّم منه؛ فقد جعل للنِّعال قلوباً تتكسّر وتتأذّى من دنس ثيابه. وفي هذا امتهان شديد لقيمته حين عدّ النِّعال -على وضاعتها- أجلّ منه قدراً[4]:

تعجَّبَ قومٌ لصفْعِ الرَّشيدِ وذلكَ ما زالَ من دابِهِ

---

(١) هنريت سابا، اتجاهات الشّعر العربيّ في القرن السّابع الهجريّ في بلاد الشّام: ٢٢٨.

(٢) ابن عُنين، ديوانه: ٢١٩، وللاستزادة من هجائه القاضي الفاضل، انظر المصدر نفسه: ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠.

(٣) الفحل القطم: الصؤول.

(٤) ابن عُنين، ديوانه: ١٨٥.

رَحمتُ انكسارَ قُلُوبِ النِّعالِ وقد دنّسوها بأثوابهِ

فواللّهِ ما صَفَعُوهُ بها ولكنَّهُمْ صَفَعُوها بهِ

وتتكرّر فكرة دنس الرّشيد، واشمئزاز "الأشياء والموجودات" من اللقاء به أو ملامسته؛ فهذا شعر ابن عُنين نفسه، يشكو إليه مغبّة هذه العلاقة المستكرهة، ويرى في ارتباطه به ما يقلّل من قيمته وشأنه[1]:

شكا شعري إليَّ وقال تَهْجو بِمثلي عِرضَ ذا الكلبِ اللئيمِ

فقُلتُ لهُ تسلَّ فرُبَّ نجمٍ هوى في إثرِ شيطانٍ رجيْمِ

ولم يكن هجاء ابن عُنين للرّشيد كلّه على هذه الشّاكلة؛ فقد أفحش في بعضه إفحاشاً بعيداً، يجلّ المقام -هنا- عن ذكْر شيء منه[2].

ويبدو أنّ الرّشيد النّابلسيّ ، كان عرضة لسهام شعراء آخرين من مثل القاسم الواسطيّ الذي تعرّض له كذلك بالذّمّ والتّسفيه، ساخراً من رداءة شِعْره التي يعلّلها بسبب من رائحة فمه، يقول[3]:

لا تَعْجبنَّ لمدلوي ـهِ إذا بَدا شِبْهَ المريْضِ

قدْ ذابَ من بَخَرٍ[4] بفيـ ـهِ بَدا من الخُلْقِ البغيضِ

وتكسَّرتْ أسنانُه بالعَضِّ في جَعْسِ القريضِ[5]

وتَقطَّعَتْ أنفاسُهُ عَرَضاً بتقْطيْعِ العَروضِ

---

(١) المصدر السابق: ١٨٨ .

(٢) انظر: المصدر نفسه: ١٨٦، ١٨٧ .

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٦/ ٣٠٥؛ وانظر صوراً أخرى من هذا التهاجي لدى فتيان الشاغوريّ في عدد من شعراء عصره: ديوانه: ٦، ٣٦٠، ٤٧٢، ٥١٧، ٥٨٥.

(٤) البَخَر: النتن في الفم وغيره، وكلّ رائحة كريهة.

(٥) جعس القريض: رجيعه.

ويتّصل في الحديث عن التّهاجي بين الشعراء، ما عُرفَ "بالمراثي الهجائيّة"، وهي أن يعمد الشّاعر إلى هجاء خصومه على سبيل المرثيّة، فيلجأ إلى الاستعانة بأسلوب الرّثاء الذي يهدف من استخدامه إلى السُّخرية والإمعان فيها، وممّن عرف بهذه الطّريقة، الحكيم عبدالمنعم الجلياني[١] الذي يتعرّض لشاعر يسمّى أبا الوحش؛ فيصوّر -بكلّ تهكُّم وازدراء -مراسم موته، ويعلن -على سبيل المفارقة- عن فرحه وسروره بهذا الحدث[٢]:

إذا جاءني يوماً نعيٌ أبي الوحشِ ... وأبصَرْتُه فوقَ الرؤوسِ على النَّعشِ

وقدْ جَعَلُوا منْ نهرِ «قلوط» غُسْلَهُ ... وكُفِّنَ في كِرْشٍ وأُلحدَ في حُشّ

وظلَّ لما يَلْقاهُ من هَوْلِ مُنكَرٍ ... وشدّةِ ضيقِ القَبْرِ يَضْرطُ كالجَحْشِ

بذلتُ لصحبي زِقَّ خَمْرٍ وقَيْنةً ... وزَخرفتُ داري بالنّمارقِ والفَرْشِ

فإنّ قيلَ لي ماذا التكرُّمُ والسّخا ... أقُلْ لهمُ ماتَ الوضيعُ أبو الوَحشِ

وممن عُرف بها أيضاً عرقلة الكلبيّ الذي يتظاهر بالبكاء على أبي الحكم الأندلسيّ (وهو من المبرّزين في هذه الطّريقة كما سيتضح بعد)، فيدعو له بعدم الرّحمة والسّقيا لفساد عقيدته ودينه كما يقول[٣]:

يا عينُ سُحّي بدمعٍ ساكبٍ ودمِ ... على الحكيْمِ الّذي يُكْنى أبا الحَكَمِ

قدْ كان لا رحمَ الرّحمنُ شيْبتَهُ ... ولا سقى قبْرَهُ من صيِّبِ الدِّيمِ

شيْخاً يرَى الصّلواتِ الخمسَ نافلةً ... ويستحلُّ دَمَ الحجّاجِ في الحَرَمِ

---

(١) هو حكيم الزّمان أبو الفضل عبدالمنعم الجلياني، كان بارعاً في صناعة الطّب، هاجر من الأندلس إلى الشام، توفي سنة ٦٠١هـ أو ٦٠٣هـ. انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٦٣٠-٦٣٥.

(٢) ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: ١٠٥-١٠٦.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٦١٥. ولم ترد الأبيات في ديوانه.

أمّا أبو الحكم الأندلسيّ، فقد بَرَع في هذا النّوع من المراثي، وتفنّن في استخراج المعاني الطّريفة، والصّور المضحكة التي تظهر قدرته الفائقة على التّصوير. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله في شخص يسمّى نصير الحلبيّ، مصوّراً -بأسلوب تهكّميّ ساخر- الحال التي يلقاها حين يوارى التّراب، فالموتى الذين في استقباله يتبرّمون ضجراً من قدومه ورائحة فمه النّتنة، يقول[1]:

يا هذهِ قُومـــي انـــدبي ... مات نصـــيرُ الحـلـبي

يرحمُـــهُ اللّهُ لـــقـــدْ ... كان طـــويلَ الذّنـــبِ

قدْ ضجَّتِ الأمواتُ من ... نكهتِـــهِ في التُّـــرُبِ

وودّهُمْ لو عُـوِّضـــوا ... منهُ بكلْـــبٍ أجْـرَبِ

والقـــومُ بينَ صـــارخٍ ... ومُمْعنٍ في الـهَـــرَبِ

ومُنْـــكَرٍ يـقُـــولُ ذا ... أوْضـعُ مَيْـتٍ مرَّ بي

ما ضمَّ بطنُ الأرضِ بيْـ ... ـنَ شرْقِـــها والمـغْربِ

أخبـــثَ منـهُ طِيْـــنةً ... في عُجْـمِها والعَـرَبِ

وله قصيدة طويلة في هجاء ابن القيسرانيّ، نهج فيها نهجه في أبياته السّابقة. غير أنّه في هذه القصيدة كان أكثر إلحاحاً على استدعاء المعاني واستنباطها. وقد اتّكأ الشاعر على الأسلوب القصصيّ الذي أضفى على الأبيات قدراً من المتعة والحيويّة؛ إذْ يصوّر -بإسهاب- ما يلاقيه ابن القيسرانيّ في القبر بعد أن يشتطّ منكر ونكير في حسابه والتّضييق عليه. متّهمه -من خلال هذا المشهد- بفساد خلقه، وإسرافه في هجاء النّاس، يقول[2]:

---

(١) المصدر السابق: ٦٢٥.

(٢) الكتبي، محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ)، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة داود، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٧م: ١٢/ ٤٨٣. وله قصيدة أخرى في الموضوع نفسه، وهي لا تكاد تبتعد في مضمونها وأسلوبها عن القصيدة السابقة كثيراً. غير أنّه يلاحظ معاناة بعض أبياتها من خلل عروضيّ بيّن. انظر: المصدر نفسه: ١٢/ ٤٨٠-٤٨١.

. . ثُمَّ عهدِي بهِ وقدْ أنزلُوه الـ ـقَبرَ بين مُنْكَرٍ ونكيرِ

ثمَّ قالا لهُ ألَمْ تكُ في التَّنـ ـجيمِ بينَ إفكٍ وزُورِ

ثمَّ أسْرفْتَ بعدَ ذلك في قو لِكَ بينَ المنظُومِ والمنثُورِ

تُفحشُ الهجوَ ليسَ تُبقي على شيْـ ـخٍ ضنينٍ بعرضِهِ مستُورِ

لم تُراقبْ فيهِ الإلهَ ولم تخْـ شَ عقاباً، فاصبرْ على التّعْزيرِ

فملا قبْرهُ سُلاحاً[1] من الخَوْ فِ، وأمْسى في لحدِهِ كالأسيرِ

وتلقّاهُما بلُطْفٍ منَ القَوْ لِ، وقال ارْفُقا بشيخٍ كبيرِ

تابَ منْ قبلِ أنْ يموتَ بحينٍ وتبرّا من الخَنَا والفُجورِ

فالحّا عليه صَفْعاً ولم يَنْـ ـفَعْهُ عُذرٌ، وما لهُ منْ نصيرِ

***

د- شواذّ الأهاجي:

يراد بشواذّ الأهاجي هنا، ما خرج عن هجاء الأشخاص والأفراد إلى هجاء ما لا عقل له أو إدراك، وذلك كأن يتناول الشّاعر في هجائه بعض الحيوانات أو النباتات أو الأدوات المنزليّة أو غير ذلك.

ولم يكن هذا النّوع من الهجاء جديداً أو طارئاً على هذا العصر، وإنّما كان شائعاً ومعروفاً في عصور سابقة[2]. ويمكن أن يُستدلّ -من خلاله- على شيءٍ من ذوق النّاس، وطبيعة موقفهم مما له علاقة ببعض جوانب من حياتهم من أشياء وموجودات.

---

(١) السُّلاح: ما يخرج من البطن.

(٢) قحطان رشيد التميميّ، اتّجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجريّ، دار المسيرة، بيروت، بلا تاريخ: ٧٨-٨٥.

ومن النّماذج التي يمكن أن تُساق في هذا المقام، أبيات للبهاء زهير، يتهكّم فيها من بغلة لأحد أصدقائه، مُتفنّناً في استخراج المعاني الهزليّة، والصّور الفكهة التي يبيّن من خلالها، سوء حال هذه البغلة. فهي -كما يقول- لا تساوي خردلة، بطيئة في سيرها، لا تكاد تبارح مكانها[١]:

لكَ يا صديقي بَغْلةٌ ... ليسَتْ تُساوي خَرْدلهْ

تمشي فتحسبُها العيو ... نُ على الطّريقِ مُشكَّلهْ[٢]

وتُخالُ مُدبرةً إذا ... ما أقبلتْ مُستَعجلهْ

مِقْدارُ خَطْوتِها الطَّويـ ... ـلةِ -حين تُسرِعُ- أنْمُلهْ

تهتزُّ وهيَ مكانَها ... فكأنّما هي زَلزَلهْ

وقد حقّق لهذه المقطوعة طرافتها وحسن مأخذها أمران، أولهما: توسُّلها بالمفارقات؛ فالبغلة -على كبر حجمها وضخامتها- لا تساوي خردلة صغيرة، وهي حين "تقبل مستعجلة" تبدو كالمدبرة، ثمّ إنّ مقدار خطوتها «الطويلة» -في حال سرعتها -تساوي أنملة! وثانيهما: اعتمادها على هذا الوزن المجزوء الراقص الذي حقّق لها هذه الحيويّة والخفّة الظاهرتين.

ويعبّر في أبيات أخرى -تقترب في إيقاعها وأُسلوبها من الأبيات السّابقة- عن حال فرس له، ذاكراً مساوئها العديدة التي لا تنتهي: فهيئتها قبيحة، ومنظرها مُزْرٍ، وركوبها لا يُستطاب[٣]:

---

(١) البهاء زهير، ديوانه: ٢٢٧.

(٢) مشكّلة: مقيّدة.

(٣) المصدر السابق: ٣٠٠، وللاستزادة انظر: ٢٣٠.

وفرسٍ على المسا وي كُلُّها مُحْتويهْ

فما مساويها لَمَنْ عَدَّدها مُنتَهيهْ

وليسَ فيها خَصْلةٌ واحدةٌ مُستَويهْ

يا قُبحَها مُقْبلةً وقُبحها مُوَلِّيهْ

مالكُها في خَجْلةٍ كأنّهُ في مخْزِيهْ

مُسْتقْبحٌ ركوبُها مثْلَ ركوبِ المعصيَهْ

ويصوّر ابن دانيال حاله مع بِرْذَوْنه[1] تصويراً ساخراً، يلمس منه -إلى جانب الهزل والدّعابة- ما كان يعانيه الشاعر من بؤسٍ وتعاسة، فلا بُدَّ أنّ فقره، وضيق ذات يده، قد دفعاه إلى ركوب بِرْذَوْن تجسَّدت فيه كلّ هذه العيوب، من عمى وعرج ونقص[2]:

قد كمّلَ اللّهُ بِرْذَوْني بِمَنقصَةٍ وشانَهُ بعْدَ ما أعماهُ بالعَرَجِ

أسيرُ مثلَ أسيرٍ وهو يَعْرجُ بي كأنّهُ ماشياً ينحطُّ في دَرَجِ

فإنْ رماني على ما فيهِ من عَرَجٍ فما عليهِ إذا ما متُّ منْ حَرَجِ

أمّا ابن عُنين، فيذمُّ -بأسلوب فكه- خروفاً هزيلاً، كان قد أهداه له الشّريف الكحّال[3] بعد أن وَعَده به مدّة، مشبِّهه -من شدة هزاله- بعاشق شفّه الوجد والبين، حتّى بدا كالخيال الذي لا يُرى، يقول[4]:

---

(١) البِرْذَون: ما يُطلق على غير العربيّ من الخيل والبغال.

(٢) ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: ٨٠، وللاستزادة انظر: ٨١-٨٣، ١٤٠-١٤١.

(٣) هو برهان الدّين أبو الفضل سليمان، أصله من مصر، ثمّ انتقل إلى الشام. عمل في خدمة السّلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حتى وفاته. انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٦٦٠.

(٤) ابن عُنين، ديوانه: ١٣٤.

أتاني خَـرُوفٌ ما شكـــكـتُ بأنّهُ حليفُ هوىً قدْ شفَّهُ الهجرُ والعَذْلُ

إذا قامَ في شمسِ الظّهيـرةِ خِلْـتَهُ خـيالاً سَـرى فـي ظُلمَةٍ ما لهُ ظِلُّ

فَنَاشدْتُهُ ما تَشْتَـهي قالَ قَـــتَّةٌ[1] وقاسمتُهُ ما شـفَّهُ قالَ لـــي الأكْلُ

فأحضرتُها خَضْراءَ مجّاجة الثَّرى مُسلَّمةً ماحـصَّ أوراقَهـا الفتْـلُ[2]

فظلّ يُراعيـــها بعـــينٍ ضَعيـــفَةٍ ويُنشدُها والدَّمعُ في العينِ مُنْهـلُّ

«أتتْ وحِياضُ الموتِ بيني وبيْنَها وجادَتْ بِوَصْلٍ حِينَ لا يَنفعُ الوَصْلُ»[3]

-٢-

ولم يقف الشّعـراء في هذا النّوع من الهجاء عند ذمّ بعض الحيوانات والدّواب؛ وإنما تناولوا في أشعارهم أشياء أُخرى، من مثل بعض المأكولات والمشروبات؛ فقد وجد كمال الدّين بن الأعمى[4] في صحن حلاوة لم يكن جيداً، ضالته لإثارة صور من التندُّر والفكاهة، متطرّقاً إلى رداءة هذا الصّحن، ومـا يجلبه للقلوب من قسـاوة ومرارة، يقول[5]:

إنّ في صَحْنِكَ المُسمَّى حـــلاوهْ رقّةً تُـــورثُ القُـــلُوبَ قَسَـــاوهْ

كَمْ حَفَرنا فلمْ نجدْ غَيْرَ أرْضِ الـ ـصّحـنِ يَبْساً كمثْلِ أرضِ السّماوَهْ

---

(١) القتّة: الفصْفَصة اليابسة، وهي نوع من النبات.

(٢) مجّاجة الثّرى: تقطر ماء؛ حصّ الورق: تساقط.

(٣) البيت الأخير لأعرابيّ. انظر: العاملي، محمد بهاء الدين (ت١٠٣١هـ)، الكشكول، ط١، دار الكتاب اللبنانيّ، ١٩٨٣م: ٣/ ٥٥٤.

(٤) هو علي بن محمد بن المبارك، المعروف بكمال الدّين بن الأعمى، أحد شعراء الدّولة الناصريّة، توفي سنة ٦٩٢هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ٨٧.

(٥) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ٩١.

لستُ أدري منْ سُكَّرٍ كانَ أمْ منْ عَسَلٍ حينَ لم تَشُبْهُ نَداوهْ
غيرَ أنّي رأيتُ صَحْناً صغيراً ما عليْهِ من النَّعيمِ طَلاوهْ

وقريب من هذا، ما قاله ابن دانيال في ذمّ خمر رديئة، مصوّراً حموضتها وقذارة الكؤوس التي تُقدَّم بها، وذلك إذ يقول[1]:

وافى النّفيسُ لنا بخَمْرٍ حامضٍ كالخلِّ إلا أنّهُ ما دوّدا
وأتى يُحلّيهِ لنا بقُطَارةٍ لِنُسيغَهُ فصحَوْتُ فيهِ مُعَرْبِدا
وجَلاهُ والذّبّانُ في كاساتِه عُقَداً فشَاهدْنا حُباباً أسودا

وأخيراً فقد توجّه بعض الشّعراء في هجائهم إلى شهور السّنة، مفضّلين بعضها على بعض. ومن الأمثلة على ذلك قول ابن السّاعاتيّ في شهر آب، حيث يصوّر شدّة حرّه وسمومه اللاهبة ، شاكياً من طوله، وما يجلبه لنفسه من متاعب وآلام[2]:

قبَّحَ اللّهُ آبَ ما آبَ شهْراً وابتلاهُ بما بهِ من سُمُومِ
كُلَّ يومٍ بهِ عَذابٌ أليمٌ وهو يُنْجي مِن العذابِ الأليمِ[3]
وَجَبَ الصّومُ فيهِ شَرْعاً فَصُمْنا في جحيمٍ رجاءَ قُربِ الجحيمِ[4]
لم يكنْ عَهْدُهُ كريماً ولكنْـ ـنَا حفظْناهُ للمقامِ الكريمِ

ومن الواضح أنّ مثل هذا الهجاء لم يكن كلّه جدّاً خالصاً؛ وإنّما كان أغلبه بدافع الدّعابة والفكاهة التي نما فنّها وازدهر في تلك العصور، حتّى بدا ملمحاً بارزاً، وسمة واضحة من سمات أدبها[5].

---

(١) ابن دانيال الموصلي، المختار من شعره: ١٩٥.

(٢) ابن السّاعاتيّ، ديوانه: ٢/ ٣٩٩.

(٣) أي وهو بالصّوم ينجي من الجحيم.

(٤) كذا الأصل: والأنسب أن يكون : "بعد الجحيم" أو "قرب النّعيم".

(٥) انظر حول ذلك: شوقي ضيف، الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربيّ، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: ٤٧٧ وما بعدها؛ بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكيّ والعثمانيّ، ط٣، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م: ٢٧٩-٢٨٧.

الفصل الثاني

الهجاء الاجتماعيّ

أ- هجاء أعيان الدّولة ومستخدميها.

ب- هجاء أصحاب المهن.

جـ- الهجاء المذهبيّ والطائفيّ.

د- هجاء المدن وبعض المرافق.

هـ- مظاهر أخرى.

قبل الإسهاب في الحديث عن الهجاء الاجتماعيّ وصوره التي تبدّت في شعر هذه الفترة، لا بُدّ من التّأكيد على أنّ التّساؤل عن موضوعيّة هذا الهجاء يبقى أمراً مشروعاً، فقد يقال إنّ بعض هذا الشّعر الذي تناول الفساد كان بسبب من دوافع ذاتيّة، ومصالح ضيّقة، وهو أمر محتمل الحصول، بل لا بُدّ من حصول شيءٍ منه. ولكنّ الذي لا بدّ من تأكيده أيضاً، أنّ الموضوعيّة التامّة/ المطلقة تبقى مطلباً من غير الممكن تصوّره في الدّراسات الإنسانيّة عموماً، فحتّى في مجال الدّراسة التاريخيّة - مثلاً- قد نجد لانتماءات المؤرّخ وميوله، وللظّروف العامّة (من مثل البطش، ومصادرة الحريّات من قبل بعض الحكّام، والمجاملة التي قد يصطنعها بعض المؤرّخين لهذا الحاكم أو ذاك) أثراً لا ينكر في توجيه رؤية المؤرّخ تجاه كثير من القضايا. بيد أنّ الذي يهمّ دارس الأدب في هذا المقام، هو تعرُّف موقف الشّاعر ورؤيته لأحداث عصره فنيّاً، وهي رؤية مهمّة يجب ألا تغيب عن البال؛ ففيها من صفاء الشّعور والعاطفة ما يمكن أن يضيء جوانب كثير من واقع الحياة في ذلك الزّمن. ثمّ إنّ كثرة الشّعر الذي تناول الفساد بأنماطه المختلفة بهذه الصّورة اللافتة، واتّفاق نماذج وافرة منه على مواقف تكاد تكون- في أغلب الأحيان- متشابهة، أمر لا يمكن أن يكون وليد صدفة وفراغ، إذ لا بدّ أن تكون ثمّة أحوال مشتركة عاشها النّاس، والشّعراء من جملتهم، فعبّر عنها كلّ بأسلوبه الذي لا ينفي أسلوب الآخرين، بل يكمّله ويسدّ ما فيه من نقص. وفي هذا التعدّد- كما لا يخفى- إغناء للصّورة التي يحرص الدّارس على التقاطها، ومعرفة دقائقها.

وعند النّظر في الشّعر الذي جُمِع لهذه الغاية، واستقراء مضامينه المختلفة، ارتأى الدّارس أن يصنّفه وفق المحاور الرّئيسة التّالية؛ لدراسة كلّ محور منها بقدر من تفصيل :

أ- هجاء أعيان الدّولة ومستخدميها.

ب- هجاء أصحاب المهن .

جـ- الهجاء المذهبيّ والطائفيّ.

د- هجاء المدن وبعض المرافق.

هـ- مظاهر أُخرى .

* * *

أ- هجاء أعيان الدّولة ومستخدميها :

من أبرز مظاهر الهجاء الاجتماعيّ في شعر هذه الفترة نقد أعيان الدّولة ومستخدميها، من ولاة وموظّفي دواوين وقضاة وفقهاء وغيرهم؛ فقد تعرّض الشُّعراء لنفرٍ من هؤلاء المستخدمين، وكشفوا عن عددٍ من تعدّياتهم وتجاوزاتهم، وما كان يصدر عن بعضهم من ظلم واستغلال. ويلاحظ على هذا الشّعر تراوحه بين النّقد المتّسم بقدر من الموضوعيّة الهادفة، وبين النّزعة الشّخصيّة التي كانت الموجِّه الفعليّ لبعض هذا الهجاء. ولكن على الرّغم من الذّاتيّة التي صبغ بها هذا القسم الأخير، فإنّه يمكن للدّارس- من خلاله- تشكيل تصوّر ما عن معاناة الناس وظروفهم في ذلك العهد، ومع ذلك، فسيحاول الدارس -قدر استطاعته- أن ينتقي من الشّواهد الشّعريّة ما يمكن أن يتضمّن دلالات واضحة لبعض صور الفساد ومظاهره.

-١-

فقد كان لأصحاب السّلطة من ولاة ووزراء نصيب من هذا الهجاء؛ إذ أطلق الشّعراء ألسنتهم في هجاء هؤلاء بالتّصريح حيناً، والتّلميح حيناً آخر. ويبدو أنّ قسوة

بعض هؤلاء الحكّام قد دَفَعت عدداً من الشّعراء إلى اتباع المجاملة والمصانعة خوفاً على أنفسهم وأموالهم من القتل أو النّهب، على نحو ما يظهر من قول ابن المسجّف العسقلانيّ الذي يصل به الأمر إلى اليأس وعدم الثّقة بأبناء جيله المتخاذلين - على حدّ رأيه- عن دَفْع أي ظلم، يقول [1]:

أنا في جِـــيْلٍ خَسيسٍ وقَبـــيلٍ وَزَمَـــانِ

أمدحُ السُّلطانَ كَيْ يُصْـ ـــبحَ مالي في أَمَانِ

ومن الطبيعيّ أن يدفع هذا التّسلُّط النّاس إلى اصطناع شيءٍ من التملُّق والرِّياء دفعاً للأذى عن نفوسهم. وهو أمر ينبي عن واقع غير سويّ. وقد صوّر ابن شمس الخلافة [2] مثل هذا بقوله في الوزير ابن شكر [3] «الذي بالغ في الظّلم وتفنّن» [4] حتى تقارضت الألسن في مدحه خوفاً ونفاقاً [5]:

مَدَحَتْكَ أَلْسِنَةُ الأَنَامِ مَـخَافَةً وتقارَضَتْ لَكَ بالثَّنَاءِ الأَحْسَنِ

أترى الزّمان مؤخِّراً في مُدّتي حتّى أعيشَ إلى انطلاقِ الأَلْسُنِ

وقد جنح بعض هذا النّقد إلى التّعميم، فلم يكن يشير إلى شخصٍ باسمه أو

---

(١) الكتبّي، فوات الوفيات: ٢/ ٢٨٤.

(٢) هو جعفر بن محمد بن مختار الأفضليّ، شاعر مصريّ توفي سنة ٦٢٢هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٣٦٢؛ الزِّركليّ، الأعلام: ٢/ ١٢٨.

(٣) هو صفي الدين عبدالله بن عليّ بن شُكر المصريّ، وزر للملك العادل وابنه الملك الكامل، وصف بالخبث والدّهاء، توفي سنة ٦٢٢هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ١٩٣-١٩٦.

(٤) النّعيميّ، عبدالقادر بن محمد (ت٩٢٧هـ)، الدّارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسنيّ، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، دمشق، ١٩٨٨م: ٢/ ٢٦٣.

(٥) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ١٩٥؛ وفي هجاء الوزير ابن شكر انظر أيضاً: ابن عنين، ديوانه: ٢٤١.

حادثة بعينها، وإنّما كان الشّاعر يكتفي منه بالإشارة إلى بعض المساوىء والتّجاوزات؛ ولعلّ مرد ذلك يعود -كما ذُكِر- إلى الخوف من العقاب الذي كان يمارس -أحياناً- في حقّ عامّة الشّعب من قبل بعض الحكام. ومن هذا القبيل ما قاله البهاء زهير في أحد الولاة الّذي يصفه بالخسّة والعداوة حتى بات منبوذاً من قبل النّاس، لكثرة مظالمه وتعدّياته[1]:

ورئيسٍ ذي خِسّـــةٍ كلّ مَنْ شِئْت لائمُـهْ

جَـــنَتْـــهُ ولايـــةٌ قـــلَّ فيها مُسالِمُـهْ

ما رأى الـنّاسُ أنّـهُ قَـطّ دَرَّتْ مـكارمُهْ

قُلْتُ إذْ راحَ غارِقـاً فـي بحـارٍ تُلاطمُهْ

عَنْ قَرِيْبٍ تَرونَ حا سـدَهُ وهـو راحمُهْ

لَعَنَ اللّهُ مَـنْ يُشـا ركُـهُ أو يُزاحـمُهْ

والأبيات تكشف عن مرارة وغبن ظاهرين، لذا نجد الشّاعر يتمنّى له نهاية غير سارّة، تجعل حاسده-على ما يحمل له من ضغينة وكره- مترحّماً عليه، لسوء العاقبة التي ستؤول إليها حاله.

ولئن حملت أبيات البهاء زهير فيضاً من مشاعره السّاخطة على هذا الصّنف من المسؤولين، دون أن تقرّر- بصورة دقيقة- نقداً صريحاً محدّداً، فإنّ شعراء آخرين كانوا أكثر اقتراباً وتلمُّساً لأصْل المشكلة؛ فرصدوا- على نحو أوضح- وإن لم يتخذ صفة التحديد الدقيق- بعض سلبيّات هؤلاء الولاة والوزراء، وعبّروا عن عدم أهليّتهم لتولّي تلك المواقع التي يشغلونها. وقد استطاع ابن النقيب[2] أن يجسّد صورة وزير لم

---

(١) البهاء زهير، ديوانه: ٢٥٠.

(٢) هو الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن، يصفه الكتبيّ بقوله: «وهو أحد فرسان تلك الحلبة الذين كانوا من مصر في ذلك العصر» توفي سنة ٦٨٧هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٣٢٤.

يكن يتحلّى بأدنى قدر من شروط أهليّة هذا المنصب، وذلك إذ يقول[1]:

أبلمٌ قلّدوه أمْرَ الـرَّعايا وهـو في حـليـةِ الـوزارةِ عطـلُ

فهو بالبوقِ بالوزارةِ طَبْلٌ وهو في الدّستِ حيْنَ يَجْلِسُ سَطْلُ[2]

وقريب من هذا قول ابن دقيق العيد[3] الذي يرسم لوزير آخر صورة ساخرة، أراد -من خلالها- أن يكشف عن خلل في المؤسّسة الوظيفيّة التي لم تحرص -أحياناً- على حسن الاختيار، وإسناد المسؤوليّة لمستحقّيها[4]:

مُقْبِلٌ مُـدْبِرٌ بَعِـيْدٌ قَرِيْـبٌ مُـحْسِنٌ مُذْنِـبٌ عدوٌّ حَبِيْبُ

عَجَبٌ مِنْ عجائبِ البَرِّ والبَـ ـحْرِ ونوعٌ فَرْدٌ وشَكْلٌ عجِيْبُ

ومع أنّ أُسلوب الطِّباق الذي استخدمه الشّاعر قد جسّد ما في شخصيّة ذلك الوزير من تناقض، إلا أنّ مبالغته في هذا الاتّجاه قد صبغت أبياته بلفظيّة واضحة، دفعته إلى مجرد سوق كلمات متقابلة، دون أن يقدّم نقداً محدّداً، فجاء قوله عن هذا النّحو من التّهويم الغائم.

وعند النّظر فيما كان يصدر من بعض هؤلاء المتنفّذين من سلوكيّات تجاه الرّعيّة، فسيبدو الأمر أكثر فداحة وخطورة؛ إذا تجاوزت تعدّياتهم - كما يستبان من بعض النّصوص الشّعريّة- حدود العقل والشّرع؛ فقد أورد أبو شامة المقدسيّ[5] - مثلاً- في

---

(١) الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٣٢٧.

(٢) الدّست: هو مرتبة جلوس السلطان . انظر: القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلّق عليه وضبط نصوصه: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧م: ١/ ١٣٨.

(٣) هو تقيّ الدين أبو الفتح محمد بن عليّ، المعروف بابن دقيق العيد، عالم وفقيه، تولّى منصب قاضي القضاة في مصر، توفي سنة ٧٠٢هـ. انظر الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ٤٤٢.

(٤) الأدفويّ، الطّالع السعيد: ٥٩٤.

(٥) هو عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسيّ، فقيه ومقرئ ونحويّ، من أشهر مصنّفاته كتاب «الرّوضتين في أخبار الدّولتين» والذيل عليه، توفي سنة ٦٦٥هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٢٦٩؛ السّيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت٩١١هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر، ؟، ١٩٧٩م: ٢/ ٧٧.

كتابه «الذّيل على الرّوضتين» في حوادث سنة ٦٤٦هـ، صورة مؤلمة لصلب صبيّ صغير على يد أحد الأمراء، أعقبها بأبيات مؤثّرة لأحد الشُّعراء في وصف هذه الحادثة، ومما جاء فيها قوله [١]:

. . . ومُنفردٍ من فَوق أعوادِ حتفه يَجُودُ بنَفْسٍ صانها خَوفَ ربِّه

تسمّرتِ الأعضاءُ منهُ فلمْ يُطِقْ سُجُوداً فأومأ للسُّجودِ بقلبه

تمكّنتِ الآلامُ منهُ مُسمّراً كئيباً وكانَ الموتُ أيسرَ خطبه

يُرى واحداً والنّاسُ من حولِ جذعِه وعَطشانَ والأَمواهُ تَجري بتحته

ويعرِّض محمّد بن سوّار الإسرائيليّ [٢] بأحد الولاة، فيصوّر سوء سيرته، وما كان يصدر عنه من قمع وبطش، جعل النّاس يضيقون ذرعاً بعهده المشؤوم [٣]:

يا فاضحَ الدِّينِ والدُّنيا بسيرتهِ وقامعَ العدلِ والإحسانِ والجُودِ

قد ضاقَ ظاهرُ ما في الأرضِ منكَ فما بباطنِ الأرضِ مَيْتٌ غيرُ محسُودِ

---

(١) أبو شامة المقدسيّ، الذيل على الروضتين: ١٨١؛ وشبيه بهذا قول ابن دانيال حين تمّ صلب شخص يقال له (ابن الكازروني) لتعاطيه الخمر في عهد الظاهر بيبرس:

لقد كان حدُّ السُّكر من قبل صَلبهِ خفيفَ الأذى إذْ كان في شَرْعنا جَلدا

فلمّا بدا المصلوبُ قُلتُ لصاحبي ألا تُبْ فإنّ الحدَّ قد جاوز الحدّا

والبيتان يكشفان عن مدى الحيف وتجاوز الحدّ في تطبيق الحكم الشرعي من قبل بعض الحكّام. انظر: ابن دانيال، المختار من شعره: ١٠٥، وفي حادثة صلب (ابن الكازروني) هذا، انظر: ابن إياس الحنفيّ، محمد ابن أحمد (ت٩٣٠هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ط٢، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م: ج١، ق١، ٣٢٦.

(٢) هو محمّد بن سوّار بن إسرائيل، شاعر متصوّف، توفي بدمشق سنة ٦٧٧هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ٣٨٣؛ ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (ت٨٠٧هـ)، تاريخ ابن الفرات، حققه وضبط نصّه: قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانيّة، بيروت، ١٩٤٢م: ٧/ ١٣١.

(٣) الصفّاعيّ، فضل الله بن أبي الفخر (ت٧٢٦هـ)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤م: ١٤٢.

خفِّضْ عليكَ فإنّ النّاسَ قد أيسوا من خُضرةِ العيشِ في أيّامكَ السُّودِ

ومن التجاوزات التي كشف عنها الشُّعراء، ما كان يمارسه بعض القائمين على المال العامّ من زكاة وأموال وقف وغير ذلك، من اختلاس وتبذير لهذه الأموال على غير وجهها الحقّ، ولا شك أنّ استغلال مثل هذه المقدّرات والعبث بها من قبل فئات قليلة متسلّطة، دون مراعاة للصّالح العامّ، من شأنه أن يحدث مزيداً من الضّعف والفساد في مؤسسات الدّولة وأجهزتها المختلفة. ولذلك نجد من الشّعراء ، من حاول أن يبصّر الحاكم بحقيقة ما يقوم به بعض منفّذي سياسته؛ فقد خاطب ابن عُنين -مثلا- الملك المعظّم عيسى في شأن القائم على خزانة دولته، مصوّراً جوانب من مساوئه وانحرافاته المتزايدة [1]:

يا مليكَ الدُّنيا الّذي أعظم اللّـ ـهُ بتأييدِ عزّه سُلطانَهْ

أنا أشكُو إليكَ جورَ رقيعٍ لقّبوهُ الصّفعانَ تاجَ الخزَانهْ

عدم العقلَ والمروءةَ والإحـ ـسانَ والدِّينَ والحَيَا والأَمانهْ

وحَوَى اللّؤمَ والرّقاعةَ والخِسْـ ـسَةَ والجهلَ والخَنَا والخيانهْ

. . . زعموا أنّهُ حفيظٌ على الما لِ أَمينٌ ، قُلتُ: اسكت يا فلانهْ

وعلى الرّغم من أنّ الأبيات -فيما يبدو- وليدة انفعالٍ حادّ، وذلك واضح من غضب الشّاعر الذي دفعه إلى المبالغة في كيل الشّتائم التي قد تكون -في أصلها- نتيجة موقف شخصيّ؛ إلاّ أنّ طرح الموضوع - بمثل هذه الجرأة الحادّة- لا يتأتّى من فراغ، وهو يوحي -على أقلّ تقدير- بوجود بعض الخلل والفساد في أجهزة الدّولة والقائمين عليها.

---

(١) ابن عُنين، ديوانه: ٢٢٠-٢٢١؛ وفي هذا المعنى انظر: المصدر نفسه: ١٣٨؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/٣٥٨؛ الصّفدي، الوافي بالوفيات: ٣/٢٣٧.

وقد ظلّ ابن عُنين يؤكّد على مسألة "المال العامّ"، وعلى الأوجه التي يتمّ صرفه فيها، فبحث عن بعض المظاهر السّلبيّة في هذا المجال، محاولاً كشفها ونشرها على الناس. ويبدو مثل هذا في تعريضه بأحد متولّي دار الزّكاة، الذي يتّهمه بسرقة الأموال المؤتمن عليها، وتسخيرها في بناء بيت له [1]:

وسائقُ الصّبيانِ أضحى ابنُه يَسْرِقُ من دارِ الزّكاةِ الذّهبْ

لا تسألُوهُ واسألُوا دارَهُ فإنّها تُخبرُ عمّا نَهَبْ

وبدلاً من أن توجّه مثل هذه الأموال الوجهة الصّحيحة، نجد الأمور تسير -أحياناً- على غير ذلك؛ فقد شكا أبو شامة المقدسيّ من سياسة بعض القائمين على أموال الوقف الذين يحجبون هذه الأموال عن المحتاجين من أهل العلم، ويقدّمونها لفئات أُخرى غير مستحقّة [2]:

. . . اتّخذْ حرفةً تعيشُ بها يا طالبَ العلمِ، إنّ للعلمِ ذِكرا

لا تُهنْهُ بالاتّكال على الوقْـ ـفِ، فيمضي الزّمانُ ذُلاً وعُسرا

إنّما تحصلُ الوقوف لشرِّيـ ـرٍ ونذلٍ من العُلُومِ مُبَرّا

والأبيات من قصيدة طويلة، وعلى ما فيها من إشارات تفصيليّة ناقدة، فإنّها اتسمت بضآلة قيمتها الفنيّة، واقترابها من النّظم الجافّ الذي لا روح فيه.

وقد يتعدّى الأمر هذا، وذلك حين تمتدّ أيدي بعض المتسلّطين إلى أموال النّاس الخاصّة، فيستملكونها؛ فهذا أبو عديّ النّعمان بن وادع [3]، يعبّر عن مثل هذا الواقع بقوله [4]:

---

(١) ابن عُنين: ديوانه: ٢٣٧.

(٢) أبو شامة، الذّيل على الروضتين: ٢٢٢.

(٣) هو أبو عدي النعمان بن وادع المعريّ، من شعراء القرن السّادس الهجريّ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشّام): ٢/ ٤١.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٤٢.

يا أيُّها المُلاكُ لا ترتجُوا الـ ـأملاكَ وارجُوها إلى القـابلِ

فالعامَ قد صحّتْ ولكنّها للـعَدلِ والمُـشْرفِ والعـامِلِ

وممّا يزيد الحال سوءاً، أنّ مثل هذه المواقع الوظيفيّة الهامّة، يتمّ إسنادها -في بعض الحالات- إلى أشخاص عرفوا بانحرافهم وطمعهم، على نحو ما يبدو من قول هبة اللّه ابن وزير في مستخدم على أموال الزّكاة، كان يسمّى الزّكيّ، (ولاحظ ما في الاسم من مفارقة!)[1]:

واحسرتاهُ على الثّقاتِ جُعلَ الزّكيُّ على الزّكاةِ

وهـو الـذي لخـيانةٍ أبـداً يُعـدُّ من الجُـناةِ

ومتى تأمّـل درهـماً في الجوِّ صارَ من البُـزاةِ

-٢-

وتناول بعض الشّعراء أحوال المستخدمين وموظّفي الدّواوين، فأزاحوا النّقاب عن كثيرٍ من مساوئهم وعيوبهم، وما كان يصدر عن بعضهم من سلوكيّات سلبيّة. ولابن مِقْدام المحلّيّ -في هذا المقام- أبيات يُعرِّض فيها بنفرٍ من هؤلاء، مبيّناً استشراء الرّشوة بين صفوفهم، حتّى غدت من أبرز صفاتهم، وإن كانت نزعة الشّاعر الذّاتية تبدو ظاهرة من خلال قوله «فعادته احتجابي واعتزالي»، يقول[2]:

وكُتّابٌ لهمْ أبـداً حُمَـاتٌ تُعدُّ لها الرُّقى مثلُ الصِّلالِ[3]

وكلُّهمُ يـجرُّ إليـهِ نَفْـعاً فعادتُهُ احتـجابي واعتـزالي

بأيدي تَبْتَدِرْنَ إلى الرَّشاوي كأيدي الخيلِ أبْصرتِ المخَالي

---

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم مصر): ٢/ ١٥٢.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٤٧.

(٣) حمات: جمع حمة وهي إبرة الزّنبور والعقرب. والصّلال: الأفاعي.

ولعلّ شاعراً لم يعرض للمستخدمين كما فعل البوصيريّ؛ فقد شغل نقده لهم هوامش واسعة من شعره، تناول فيها -بكثير من الإسهاب والتّفصيل- جوانب مختلفة من تعدّياتهم وانحرافاتهم. ومما قاله فيهم مبرزاً عدم نزاهتهم وميلهم عن جادّة الصّواب، مصوّراً شرورهم التي من شأنها أن تقلب الجنّة -على حدّ قوله- جحيماً[1]:

. . . أرى المستخدمين مَشُوا جميعاً ... على غيرِ الصّراطِ المُستقيمِ

معاشرُ لو ولُوا جنّاتِ عَدْنٍ ... لصارتْ منهمُ نارَ الجحيْمِ

فما مِنْ بَلدَةٍ إلا ومنهُمُ ... عليها كلُّ شيطانٍ رجيمِ

فلو كانَ النّجوم لها رُجُوماً ... إن خلتِ السّماءُ من النّجومِ

ومن الملاحظ أن تشهير البوصيريّ بهولاء المستخدمين، لم يكن ليقتصر على قصائده التي خصّهم بها، وإنّما تعدّى ذلك إلى موضوعات شعره الأخرى، وخاصّة في موضوع المدح؛ فهو لا يفتأ يذكّر بفسادهم وتجاوزهم. ومن أمثلة ذلك ما قاله من قصيدة مدح بها أحد الولاة، حيث يصوّر ما يصدر عنهم من تخريب وظلم، فهم -في رأيه- كالنّجس الذي لا بُدّ من تطهير الأرض منه[2]:

. . . إذا تفكّرتَ في المستخدمينَ بدا ... منهُمْ لعينيْكَ ما لم يُبدِهِ النَّظرُ

ظنُّوهُمُ عمرُوا الدُّنيا ببذْلهمُ ... وإنّما خرّبوا الدّنيا وما عمرُوا

فَطهِّرِ الأرضَ منهمْ إنّهم خبثٌ ... لو يغْسلُونهُمُ بالبحر ما طهرُوا

نيرانُ شرٍّ كفانا اللّهُ شرَّهُمُ ... لا يرْحَمُونَ ولا يُبقُونَ إن ظَفِرُوا

---

(١) البوصيريّ، ديوانه: ٢٥٥.

(٢) المصدر السّابق: ١٤٠.

فاحذرْ كبارَ بنـــيهمْ إنَّهُـــمْ قُـــرُمٌ واحـــذرْ صغارَ بنيهمْ إنّهُمْ شَرَرُ

وتعرّض البوصيريّ لبعض المحتسبين، فكشف عن جوانب من ألاعيبهم، والطّرق التي يلجأون إليها في استغلال الناس، حتى حصّلوا -حسب الشاعر- أموالاً كثيرة، هي -في الأصل- من عرق الشّعب المنهوب وتعبه. يقول في وصف أحد هؤلاء من قصيدة طويلة، موضوعها الرّئيس المدح[1]:

. . . حصّلَ مالاً جمّاً وعدّده مِنْ أصلِ مالِ الـــــزّكاةِ والـــوَهْبَهْ

وصارَ عَدْلاً وعاقداً وأمينَ الـ ـحُكمِ من دونِ العدولِ في حِقْبَهْ

غير أنّ أشهر شعره -في هذا الصّدد- قصيدتان. الأولى: قالها في هجاء عامل أسوان، ومطلعها[2]:

انظرْ بحقّكَ في أمرِ الدّواوينِ فالكلُّ قدْ غيّرُوا وضعَ القَوانيْنِ

والثانية : تناول فيها المستخدمين بصورة عامّة، مفصّلاً الكثير من مساوئهم وانحرافاتهم، ومطلعها[3]:

ثكلتُ طوائفَ المُستَخْدمِينا فلمْ أرَ فيهمُ رجُلاً أمينا

والقصيدتان طويلتان، قصر الشّاعر موضوعهما على المستخدمين، فتحدّث عن خيانتهم وسرقتهم وثرائهم على حساب الأغلبيّة عن طريق كنزهم الأموال التي لا يتورّعون في سبيل تحصيلها عن اتّباع أيّة وسيلة. ثمّ تناول بعض سلبيّاتهم من مثل مجونهم وأخذهم الرّشوة بلا حياء أو حرج. وقد آثرت ألا أفصّل القول في هاتين

---

(١) البوصيريّ، ديوانه: ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٦.

القصيدتين؛ وذلك لأنّ كثيراً من الباحثين قد تناولوهما بالدّرس والتّحليل [1].

-٣-

وطال الشّعراء في نقدهم الاجتماعيّ رجال القضاء، فقدّموا صوراً متعدّدة من سلوكيّاتهم المنحرفة وأحكامهم الجائرة. وقد كان النّقد -في هذا الجانب- حاداً، ومن الطّبيعيّ أن يكون كذلك؛ فالقضاء من أخطر المناصب وأكثرها أهميّة، وذلك لارتباطه الدّقيق بحياة الناس وشؤونهم، ولما قد يترتّب على ذلك -إن لم يتّصف القائمون عليه بالنّزاهة والاستقامة- من مظالم وتعدّيات من شأنها أن تملأ النّفوس بمشاعر ساخطة واحتقانات مدفونة!

وتكشف بعض النّماذج الشّعريّة عن حالة من الشّكوى والتّذمُّر للوضع المتردّي الذي وصل إليه القضاء في بعض الفترات. وقد جسّد أبو المجد المعريّ [2] شيئاً من هذا حين وصف سوء ما آلت إليه أحوال النّاس نتيجة ظلم بعض القضاة الذين باتوا كالذّئاب المتلهّفة لافتراس ضحاياها الضّعيفة على حدّ قوله [3]:

تولّى الحكمَ بين الناس قومٌ بهمْ نَزلَ البلاءُ من السّماءِ

---

(١) من هذه الدّراسات على سبيل المثال:

- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ط١، دار الحمّامي للطّباعة، القاهرة، ١٩٦٥م: ٨/ ٢٣٥-٢٣٨.

- محمد رجب النجار، الشّعر الشعبي السّاخر في عصور المماليك، مجلّة عالم الفكر، م١٣، ع٣، وزارة الإعلام- الكويت، ١٩٨٢م: ١٣١-١٣٥.

- فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول (قضايا المجتمع والفنّ)، دار المعرفة الجامعيّة، بيروت، ١٩٩٣م: ١٣٧-١٣٩.

- شفيق الرقب، النزعة الاجتماعيّة في شعر البوصيريّ، مجلّة مؤتة للبحوث والدّراسات، م١٠، ع٢، جامعة مؤتة، ١٩٩٥م: ١٦٨-١٧٤.

(٢) هو محمد بن عبدالله بن محمد، فقيه وأديب من أهل المعرّة، توفي سنة ٥٢٣هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): ٢/ ٧؛ الصّفديّ، الوافي بالوفيات: ٣/ ٣٣٤.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام): ٢/ ١٢.

كأنّهمُ الذّئابُ إذا تعـــاوتْ ســواغِـبُها على آثـــارِ شاءِ

يقُولُ القائلونَ إذا رأوهُـمْ لقدْ جارَ القضاءُ على القَضاءِ

إنّها حالة من المفارقة وقلب الموازين، فبدل أن يكون القاضي حريصاً على إقامة العدل، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، إذ به نفسه يتحوّل إلى خصم لدود لا يؤتمن جانبه!

ويعبّر أبو شامة المقدسيّ عن حالة مشابهة أُخرى لمآسي القضاء في عصره، وذلك حينما تولّى الحكم ثلاثة من القضاة، ممّن اشتهروا بالجور والفسق، فيذكر ما كانوا يتّصفون به من جهل وانحراف وعجمة، غير متردّد عن التّصريح بأسمائهم التي أثقل بها الأبيات ، فجاءت على هذا النّحو من التقريريّة، وغلبة النّزعة العقليّة الجافّة [1]:

دمشقُ في عَصْرنا مع فَضْلها بُليتْ من القُضـــاةِ بِجُـــهّالٍ وأوْقـاحِ

بأعجمين ومصـــريٍّ وصائغِـــهمْ والأربـلـيّ وخيـــاطٍ وفـــلاحِ

وتتردّد نغمة الاستياء من أحوال القضاء، حين عيّن الظّاهر بيبرس سنة ٦٦٣هـ،على ولاية القضاء أربعة قضاة يمثّلون المذاهب الأربعة، فنجد بعض «التّعليقات السّيّارة» التي تختزل الموقف بأسلوب تكثيفيّ بالغ التّعبير من خلال أقلّ عدد من الكلمات، ومما قيل في ذلك [2]:

أهلُ دمشق استرابُوا مـــن كـــثرةِ الحـــكّامِ

---

(١) أبو شامة، الذّيل على الروضتين: ٢١٤؛ وفي انحرافات القضاة وسوء سيرتهم انظر كذلك: المصدر نفسه: ٢٠١؛ الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ١٣٨.

(٢) أبو شامة، الذّيل على الروضتين: ٢٣٦.

وهم جميعاً شُمُوسٌ وحـــالُهُـــمْ في ظـــلامِ

وقيل أيضا [1]:

أَظْـــلَمَ الشّـــامُ وقـــدْ ولـــي الحكمَ شُـــمُوسُ

ليسَ فيهم من يبتُّ الـ ـحُكْمَ عِلماً أو يَسوسُ

والطّريف في الأمر أنّ هؤلاء القضاة المعيّنين ، كان كلّ واحد منهم لقبه يبدأ بـ «شمس الدّين» فاستغلّ بعض الظّرفاء ذلك، مجسّدين الموقف بهذه السّخرية المرّة. وهي أبيات لا يُعْرَف قائلُها على وجه التّحديد، ولكنّها تحمل نبض الشّارع العامّ، وما كان يخالجه من شعور وإحساس تجاه كثير من القضايا والأحداث ذات الارتباط المباشر بحياته وواقعه.

وقد ركّز الشّعراء -في هذا الصّدد- على بعض المثالب والتّجاوزات التي تصدر عن بعض هؤلاء القضاة، قاصدين تجريدهم من هيبتهم وقيمتهم التي يفترض اتّصافهم بها، فما قيمة القاضي إذا كان جاهلاً، لا علم له ولا دراية، أليس من شأن هذا أن يقوده إلى الظلم والقضاء على المعاني السّامية، على نحو ما يذهب سلامة السّنجاريّ [2] في أبيات لا تخلو -مع ذلك- من تمحُّك وتصنُّع ظاهرين [3]:

ضاقَ بحفظِ العلومِ ذرعاً ضيـــقةَ كفّيـــهِ بالأيادي

قاضٍ ولكنْ على المعالي والدِّينِ والعقلِ والسّـــدادِ

يعدلُ في حُكْمِه ولكـــنْ إلى الرُّشا أو عن الرّشادِ

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) من شعراء الخريدة، يذكر العماد أنّه عاش بعد الخمسمائة. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام): ٢/ ٤٠٠؛ الصفديّ، الوافي بالوفيات: ١٥/ ٣٢٧.

(٣) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): ٢/ ٤٠٠.

أو حين يكون ذا طبيعة ازدواجيّة متـــناقضة، يبدو في الظّاهر ورعـــاً زاهداً راغباً عن الدّنيا وزخرفها، ولكنّه -في سريرته- شره طمّاع، تميل به نفسه لأهـــون إغراء أو اختبار، وذلـــك كما يلمس من قول أبي المشرف الدّجرجاويّ[1] في أحد القضاة[2]:

قاضٍ إذا انفصلَ الخصمان ردَّهما ... إلـى الخِصَامِ بحُكمٍ غيرِ مُنفصِلِ

يُبدي الزّهادةَ في الدُّنيا وزُخرُفِها ... جهراً ويَقْبَلُ سِـــرّاً بعرَةَ الجَمَـــلِ

مُهلّلُ الدهر لا في وقت هيْـــلَلَةٍ ... وَيَلْزَمُ الصّمتَ وقتَ القولِ والعَمَلِ

وقد يثير الثّراء الفاحش لبعض القضاة حفيظة كثير من الناس ، ويدفعهم إلى التّساؤل عن مصدر هذه الثّروة، والطّرق التي حُصّلت بها. وقد بدا مثل هذا مع ابن منير الطرابلسيّ الذي يقوده نصيبه إلى الدّخول في بيت القاضي الأعزّ[3]، حيث يصاب بالدّهشة حين يشاهد ما فيه من مظاهر الغنى والتّرف والنّعيم[4]:

. . . فدخلنا الدّهليزَ وابتدرَ الإذْ ... نَ فأُغرقتُ في دمقْـــسٍ وخَزّ

بـــينَ دَسْـــتٍ وســـلّـــةٍ ودَوَاةٍ ... ورقـــيـــقٍ من تُسْـــتُريٍّ وقَـــزّ

ودعا بالطّعام فامتـــرتُ من حُلْـ ... ـوٍ ومن حامضِ المـذَاقِ ومـــزّ

إنّ منزلاً بمثل هذه المواصفات -إنْ صحّ ما ذهب الشّاعر إليه- يجعل المرء يتساءل

---

(١) ترجم له العماد بقوله: «من أهل مصر، وكان في عصرنا الأقرب»، ونسبه ياقوت الحموي إلى دَجرْجا وهي بلدة بالصعيد. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر) :٢/٦٦؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٢/٤٤٠.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم مصر): ٢/٦٦.

(٣) هو أبو الفتح محمد بن هبة الله بن خلف التميميّ، توفي بدمشق سنة ٥٣٢هـ. انظر: ابن القلانسي، تاريخ دمشق: ٤١٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٤/١٠١.

(٤) ابن منير، ديوانه: ١٤٦.

عن مدى التّفاوت بين طبقات المجتمع، وما يمكن أن يثيره كلّ هذا من إحن وضغائن في النفوس!

-٤-

وقد اتّسع نطاق هذا النقد، فشمل -زيادة على ما تقدّم- الفقهاء والخطباء وأئمة المساجد. ومن أبرز النّماذج وأطرفها -في هذا المقام- ما قاله عبدالمنعم الجلياني في رسم صورة ساخرة لفئة من الفقهاء الجهلة الذين لا يعنّون أنفسهم في تحصيل العلم، وإنّما يكون غاية ما يطمحون إليه التّشبُّث بمظاهر شكليّة ، لا تخدم واجبهم في شيء، من مثل ارتداء الملابس ذات الأكمام الفضفاضة، والصّراخ بصوتٍ عالٍ، وغير ذلك من حركات هي أقرب إلى "الدّروشة" ، يقول[1]:

يا ساهراً في اقتناءِ علمٍ ... يَخْطبُ منهُ مقامَ مُحكَمْ

بدون هذا تُرى فقيْها ... فوسِّعِ الكُمَّ ثُمّ عمِّمْ

والبسْ من الشّهبِ طيلساناً ... واغمدْه في المنكبين واختُمْ

واجلسْ مع القومِ في جدالٍ ... لا بالبُخاري ولا بمُسلمْ

إلا صياحاً ونفْضَ كُمٍّ ... ونَظْمَ "لالا" وقوْلَ " لَمْ لَم"

إنّها صورة سلبيّة تعكس واقع بعض الفقهاء. ولكنّها ليست الوحيدة؛ فقد تخطّت تعدّياتهم -حسب ما رسمها الشّعراء- هذا الحدّ، فهناك من تجاوز حدود

---

(١) ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: ١٠٧؛ ويبدو أنّ هذه الصورة كانت صدى لحياة بعض الفقهاء آنذاك، فثمّة -في المعنى نفسه- مقامة طريفة للوهرانيّ، تناولت جهل بعض هؤلاء الفقهاء وقلّة معرفتهم بمثل هذه السّخرية اللاذعة. انظر: الوهراني، ركن الدين محمد (ت٥٧٥هـ)، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م: ٩٧-١٠٢.

الدّين والخلق، فجلُّ وقته يقضيه في ضروب من اللّهو والمجون، وقد عبّر الوهرانيّ[1] عن مثل هـذا بقـوله في فقيه يسمى (ابن الحكيم) حيث يرصد بعضاً من تجاوزاته المشينة[2]:

. . . مدارسٌ درستْ آي العلومِ بها فأصبحتْ لخيولِ اللّهوِ ميدانا

لابْنِ الحكيمِ أطالَ اللّهُ مُدَّتَهُ مغْنىً رحيبٌ عنِ الحاناتِ أغْنانا

مثْوَى المغاني ومأوى كلِّ زانيةٍ يلقَونَ درسَهُمُ شدْواً وألحاناً!

وليس غريباً أن تثير مثل هذه المنكرات استياء النّاس وغضبهم، وذلك لما لهذه الوظائف الدّينيّة من مكانة وهيبة في النّفوس. وقد عبّر الشّعراء عن رفضهم وتندّرهم من مثل هذه التّصرُّفات. وكان ابن عنين صاحب اليد الطولى في هذا المجال، فقد استثمر -ببراعة واضحة- فكاهته وسرعة بديهته في السُّخرية من بعض رجالات الدّين في عصره، على نحو ما يبدو من تهكّمه من خطبة الدّولعيّ[3] التي يطيلها -كما يذهب ابن عنين- إلى حدّ الضّجر، إضافة إلى ما يضمّنها من أفكار منفّرة مفزعة[4]:

طَوّلتَ يا دولعيّ فقصّرْ فأنتَ في غَيْرِ ذا مُقصِّرْ

خطابةٌ كلُّها خُطُوبٌ وبَعْضُها للورَى مُنفِّرْ

---

(١) هو أبو عبدالله ، محمد بن مُحْرز الوهراني، أصله من وهران (قرب تلمسان) ، قدم إلى مصر في أيام السلطان صلاح الدّين، له مقامات ومنامات منشورة، توفي بدمشق سنة ٥٧٥هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٣٨٥؛ الزركليّ، الأعلام: ٧/ ١٩.

(٢) الوهراني، منامات الوهراني: ٢١٥؛ وفي المعنى نفسه انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ١٣٨.

(٣) هو جمال الدين محمد بن أبي الفضل الشافعيّ، خطيب دمشق لمدة طويلة، توفي سنة ٦٣٥هـ. انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٥/ ١٧٤.

(٤) ابن عنين ، ديوانه: ١٨٨؛ وللاستزادة انظر نفسه: ١٨٢-١٨٣.

أو قوله في فقيهين كانا يتناظران، إذ يقرن أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس، مصوّراً جهلهما، وافتقارهما إلى أصول الحوار القائم على الحجّة والمنطق[1]:

البغلُ والجَامُوسُ في جَدَليهما ... قدْ أَصْبَحَا مَثَلاً لكلِّ مُناظرِ

بَرَزَا عشـــيّةَ ليلةٍ فَتَـــناظرا ... هذا بِقَرنيـــه وذا بالحـــافرِ

ما أحكما غيرَ الصِّياحِ كأنّما ... لَقِنا جدالَ المُرْتضَى بنِ عساكر

جلفانِ ما لهما شبيهٌ ثالـــثٌ ... إلا رقـاعةُ مدلويهِ الشّاعرِ[2]

ولا يغفل الإشارة -حتّى وهو في أقصى فكاهته- إلى النّقد والتّعريض؛ فحين أمر الملك العادل -مثلاً- سنة ٦١٠هـ "أيّام الجمع بوضع سلاسل على أبواب الطّريق إلى الجامع الأمويّ لئلا تصل الخيول إلى قريب الجامع صيانة للمسلمين عن التأذّي بها»[3]، نراه يعمد إلى التّصرُّف بهذه الحادثة، ليوجّه -من خلالها- نقده إلى القائمين على أمر ذلك المسجد، واتّهامهم بسرقة أمواله ونهبها، وذلك حين يقول[4]:

لمّا رأى الجـــامعُ أمـــوالَهُ ... مأكـــولةً ما بـينَ نُوّابهِ

جُنّ فمنْ خوفٍ عليه غدا ... مُسلسلاً من كـلِّ أبوابهِ

وكيف لا تعـــتادُهُ جِـــنّةٌ ... وقدْ رأى المسخَ لأربـابهِ

القردُ في شبّاكهِ حـــاكمٌ ... والتّيسُ في قُـبّةِ محـرَابهِ

---

(١) المصدر السابق: ٢٠٥.

(٢) مدلويه الشاعر هو الرشيد النابلسيّ، وقد سبقت ترجمته.

(٣) النعيمي، الدّارس في تاريخ المدارس: ٢/ ٣٩٢.

(٤) ابن عنين، ديوانه: ١٤٣.

ب- هجاء أصحاب المهن:

لم يقف الشّعراء في هجائهم الاجتماعيّ عند مستخدمي الدّولة من ولاة وعمّال وموظّفين . . . وإنّما تعدّوا ذلك إلى مختلف نواحي الحياة الاجتماعيّة ونشاطاتها. وكان للمهنيين من أطباء ومغنين ومزينين وغيرهم، جانب من هذا الهجاء. غير أنّ هذا الهجاء لم يكن - من حيث الكم - على درجة واحدة؛ ففي حين نجد هجاء وافراً لأصحاب بعض المهن (كالأطباء والمغنّين)، نكاد -في المقابل- لا نعثر على شيءٍ لأصحاب مهن أخرى (كالتّجار، والمعلّمين، والكتاب، وغيرهم).

-١-

وقد كثر الشّعر الذي قيل في هجاء الأطباء بصورة تسترعي النّظر، ولعلّ لذلك غير ما دلالة ، منها: انتشار مهنة الطّب في هذه الفترة انتشاراً واسعاً، وكثرة أعداد المشتغلين فيها. وقد ذكرت المصادر أسماء أعداد كبيرة من هؤلاء[١]. وفي هذا -كما لا يخفى- مؤشّر واضح على ما تمتّعت به البلاد من تقدُّم حضاريّ تمثَّل جانب منه في الاهتمام بهذه المهنة، وإقامة المرافق اللازمة لها[٢].

ومن الدّلائل المستخلصة أيضاً، أنّ بعض الأطباء كان يرتكب في عمله تجاوزات وأخطاء، سببها -في أغلب الأحيان- جهله وعدم معرفته بأصول هذه المهنة. وقد ركّزت معظم أهاجي الشّعراء لهؤلاء الأطباء على هذه الناحية، فصوّروا ما كان يتّصف به بعضهم من قصور وقلّة معرفة. من ذلك ما قاله أميّة بن أبي الصّلت في طبيب جاهل يلجأ إلى الرُّقى والشّعبذة في مداواة المرضى، ممّا كان له -بالتّالي- أثره السلبيّ عليهم[٣]:

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٥٦٨ وما بعدها؛ أحمد أحمد بدوي، الحياة العقليّة في عصر الحروب الصليبيّة عصر والشام، دار نهضة مصر للطبع والنشر، بلا تاريخ: ٣٠٧-٣٢٣.

(٢) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، ط٢، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م: ١٥، ٢٤، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢٣٠.

(٣) أميّة ابن أبي الصّلت ، ديوانه: ١٢٦؛ وفي تعريض الشّعراء بجهل الأطباء انظر كذلك: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): ٢/ ١٨٧، ٣٨٧؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٥٧٧، ٥٨١، ٧١٧.

وطبيبِ مُشَعْبِذٍ يمزجُ الطّبّ بالرُّقَى

ما رأيناهُ قطّ طَبّ بَ عليلاً فوفّقا

بلْ عدمَ الصّحةَ في الـ ـجسمِ والقلبِ والبَقَا

ذو صفاتٍ تُغادرُ الـ ـجسمَ مما بـه لقى

عادماً للحِراك والحسّ والخفّ والنّقا

قدْ سقاهُ به الحِما م ولم يَدْرِ ما سقى

أما ابن خروف الأندلسيّ[1]، فيحصي من أخطاء الدّخوار الطّبيب[2]، ومساوئ طبّه الكثير، نافياً عنه معرفته بالطّب علماً وعملاً، واصفاً جهله الذي أودى بأرواح النّاس[3]:

إنّ الأُعيْرِجَ حازَ الطّبَّ أجمعَهُ أستغْفرُ اللّهَ إلا العلمَ والعَملا

وليسَ يَجهلُ شيئاً من غوامضِهِ إلا الدّلائلَ والأمراضَ والعِلَلا

في حيلةِ البُرْءِ قلّتْ عندهُ حِيَلٌ بعدَ اجتهادٍ ويَدْري للرَّدَى حيلا

الرّوحُ تسكُنُ جُثمانَ العليلِ على عِلاتِهِ فإذا ما طبّه رَحَلا!

ويُكْثِر فتيان الشاغوريّ من هجاء طبيب يسمّى (نَصْراً)، مبرزاً كثرة القتلى الذين ماتوا على يديه. ومما قاله فيه[4]:

---

(١) هو علي بن محمّد بن خروف الأندلسيّ، حضر من إشبيلية، كان إماماً من أئمة العربيّة، توفي سنة ٦٠٩هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/٢٤٦.

(٢) هو عبدالرّحيم بن علي بن حامد، من أشهر أطباء دمشق، توفي سنة ٦٢٧هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٣١٥.

(٣) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/٣١٧؛ وللاستزادة انظر: المصدر نفسه: ٢/٣١٨.

(٤) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: ٢٠٤؛ وللاستزادة: ٣١٦، ٥٨٥.

إنْ دامَ طِبُّـكَ هـــذا يا نَصْرُ في كَفْر عامِرْ

عمّرتَ عمّـــا قليـلٍ بساكنـــيها المقـــابِرْ

فظاهرُ الأرضِ قَفْـــرٌ وباطنُ الأرضِ عامرْ

وقد كشف الشّعراء عمّا كان يقوم به بعض الأطباء من ممارسات شكليّة لا تخفي وراءها سوى الجهل وقلّة المعرفة؛ ولعلّهم كان يتّبعون ذلك خداعاً للناس لا أكثر. يقول أحد الشّعراء في بعض هؤلاء[1]:

ما خَطَرَ النّبضُ على بالهِ يوماً ولا يعـرفُ ما الماءُ

بل ظنَّ أنّ الطّبَّ درّاعةٌ ولحـــيةٌ كالقُطْـــن بيضَاءُ

-٢-

وصوّر الشّعر حال بعض الكحّالين، وما كانوا يلحقونه بأعين الناس من ضرر. ولهبة اللّه بن وزير أبيات في طبيب يدعى (ابن المدّ)، يعبّر فيها عن صنعته التي لم يوافقها الرّشاد يوماً، وما كان يجلبه للأجفان من آلام شديدة، مصدرها كحله الذي يسبّب للعين الصّحيحة العمى المحقّق -على حدّ قوله-[2]:

لنَجْلِ المُدِّ عبدٌ ضرّ ما خـــلقَا بميلٍ مالَ عنْ طُـرُقِ النَّـــجاحِ

إذا ما حلّ في الأجفـانِ أبدى به وخز الأسنَّـــةِ بـالرِّمـــاحِ

لهُ كُحْلٌ أعـــاذ الـــلّهُ منْـهُ يسوقُ السّقمَ للحدقِ الصِّحاحِ

إذا كَحَلَ العُيونَ به تســاوتْ دُجى ليلِ المريضِ مع الصَّـباحِ

---

(١) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): ٢/ ١٨٦.

(٢) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): ٢/ ١٤٤؛ وفي المعنى نفسه انظر: ابن عنين، ديوانه: ٢٤٠.

وقد رصد الشّعراء من تجاوزات هؤلاء الكحّالين الكثير، فهناك من كان «يضيّع كلّ يوم ألف عين!»[1]، على ما في هذا القول من مبالغة، وهناك من كانت كفّه تُذْهِبُ سواد العين، مخلّفة وراءها مآسيَ وبياضاً[2]، وهناك من كان يداوي «العين كالضّرس بالقلع!»[3].

ومن الطّبيعيّ -نتيجة هذا الجهل الفاضح- أن تكثر السّخرية والتّهكّم من هؤلاء الأطباء، فانبرى كثير من الشّعراء إلى هذه السبيل، فأخرجوا صوراً مضحكة في ذلك؛ فالجليس بن الجباب[4] -مثلاً- يسخر من طبّ أحدهم، فيصوّره مفرّقاً بينه وبين العافية، وهو بدل أن يقضي على الحمّى مع أنّها «قد شاخت وباخت»، إذ به يجدّد لها شبابها، فأعاد له السّقم ثانية بدل أن ينهيه[5]:

وأصلُ بليَّتي مَنْ قدْ غزَاني ... منِ السّقمِ المُلحِّ بعسْكرينِ

طبيبٌ طِبُّهُ كغُرابِ بَيْنٍ ... يُفرّقُ بينَ عافيتي وبيني

أتى الحُمَّى وقدْ شاختْ وباختْ ... فعادَ لها الشّباب بنُسخَتَيْنِ

ودبَّرهَا بتدْبيرٍ لطيْفٍ ... حكاهُ عنْ سِنانٍ أو حُنينِ[6]

وكانت نوبةً في كلِّ يومٍ ... فصيَّرها بحذقٍ نوبتينِ

---

(١) ابن دانيال، المختار من شعره: ٩٤.

(٢) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٤/ ٥٦.

(٣) ابن دانيال ، المختار من شعره: ٩٣.

(٤) هو عبدالعزيز بن الحسين بن الجباب، من شعراء الدّولة الفاطميّة، توفي سنة ٥٦١هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٣٣٢.

(٥) المصدر السّابق: ٢/ ٣٣٣.

(٦) سنان: هو سنان بن ثابت بن قرّة الحرّاني، طبيب ذو منزلة رفيعة، خدم المقتدر العباسيّ، توفي سنة ٣٣١هـ. انظر: الزركلي ، الأعلام: ٣/ ١٤١؛ أمّا حنين فهو: حنين بن إسحاق، طبيب ومترجم ومورّخ، اتّصل بالمأمون وترك كثيراً من المصنفات، توفي سنة ٢٦٠هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٢١٧.

وينبغي أن يدرك أنّ بعضاً من هذا الشّعر كان يرد في سياق الدّعابة والفكاهة. ولكنّه -مع ذلك- لا يخلو من إشارات ناقدة. وبعضه كان يرد في سياق التّنافس بين أفراد المهنة الواحدة ؛ فقد كان كثير من هؤلاء الأطباء شعراء. وقد أورد ابن أبي أُصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» نماذج وافرة من هذا الشّعر[1].

-٣-

وانتشر كذلك هجاء المغنّين والمغنّيات، ولعلّ لهذا ما يفسّره أيضاً؛ فمن المعروف أنّ الغناء يشيع -عادة- في الأجواء المترفة، وبين الطّبقات التي تتمتّع بقدر من الغنى ويسر الحال. وبذلك فمن الواضح أنّ العصر لم يكن كلّه عصر فاقة وحرمان، وإنّما كان هناك وجه آخر للمشهد، تمثّل بما أدركته بعض الطّبقات من ثروات وأموال طائلة. ويكفي أن يتذكّر المرء -على سبيل المثال- ما ذكره أبو شامة المقدسيّ من مظاهر هذا الثّراء في كتابه «الرّوضتين في أخبار الدّولتين» حين أورد خبر سقوط الدّولة الفاطميّة سنة ٥٦٧هـ، واستيلاء صلاح الدّين على قصر العاضد[2] بعيد وفاته[3].

كما أنّ انتشار الغناء بهذا الشكل، يعني أنّ صورة العصر لم تكن كلّها قاتمة وحزينة، بفعل ما تعرّضت له البلاد من أخطار فادحة، تمثّلت في غزوين خارجيّين

---

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٥٤٠، وما بعدها من صفحات.

(٢) هو عبدالله بن يوسف بن الحافظ، الملقّب بالعاضد لدين الله، آخر خلفاء الفاطميين، بويع بالخلافة سنة ٥٥٥هـ، وتوفي سنة ٥٦٧هـ. انظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان: ٣/ ١٠٩؛ الزّركليّ، الأعلام: ٤/ ١٧٤.

(٣) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٢/ ١٩٣-١٩٤؛ وانظر صوراً من هذا الثّراء في: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٥١ (في ترجمة الأفضل الجماليّ)؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ١٩٤ (في ترجمة صفي الدّين بن شكر).

مدمّرين. زيادة على ما كان يلحق الوضع الداخليّ من سوء، وما كان يعانيه عامّة الناس -أحياناً- من تعسّف بعض الحكّام وظلمهم؛ فقد كان هنالك -بالرّغم مما قد يعكّر الصّفو وينغّصه- وجه مشرق ضاحك، ترجمته هذه الأصوات التي تغنّت للحياة وابتسمت لها.

وقد جاء هجاء الشّعراء لهذه الفئة، بما يتناسب وطبيعة عملها، فكان تركيزهم على الصّوت، وجماله ومناسبته الإيقاع، وغير ذلك من متطلّبات رئيسة لهذه المهنة. فعرقلة الكلبيّ -مثلاً- يذمّ مغنياً يسمّى (علياً)، مشبّهاً وقع صوته على مستمعيه بوقع السّوط اللاذع، يقول[1]:

عليٌّ صوتُهُ سـوطٌ عليـنا لا علَى الـفَرَسِ
وجُملةُ ضربِهِ ضربٌ لمـدّرعٍ ومُتـرسِ[2]
يقولُ السَّامعُونَ لهُ: رماهُ اللّـهُ بالخَـرسِ
وخُذْ يا ربِّ مُهْجَتَهُ إذا غنّى : «خُذي نَفَسي»

لقد رافق قبح صوت هذا المغنّي إيقاع صاخب مدوّ، لا يتناسب البتّة مع أغنية رقيقة كهذه!.

أمّا ابن قلاقس، فيلحّ على الفكرة نفسها، وهي منافرة الصّوت للإيقاع، وعدم الانسجام بينهما. ويضيف للمشهد صورة مضحكة لزامر، يبدو التّنافر -كذلك- بارزاً ما بين طول رقبته، وقصر نفسه، وذلك إذ يقول[3]:

يُنافرُ إيـقاعُهُ صَـوْتَـهُ فهـذَا يَزِيْدُ وَذَا يَنْـقصُ
ويتبـعُهُ زَامـرٌ مِـثْـلُهُ تليْعٌ لهُ نَفَسٌ أوقـصُ[4]
فإنْ قامَ ما بيننَا راقصاً فكلٌّ إلى بيتِهِ يَرْقُـصُ[5]

---

(١) عرقلة الكلبيّ، ديوانه: ٥٥.

(٢) المدّرع: لابس الدّرع، والمترس: لابس التّرس.

(٣) ابن قلاقس، ديوانه: ١٨٤.

(٤) تليع: طويل الرّقبة. أوقص: قصير الرّقبة، والمقصود أنّ هذا الزّامر طويل الرّقبة إلا أنّه قصير النّفس.

(٥) يرقص: المقصود بها يسرع.

ولم يكن قبح الصّوت وعدم انسجامه مع الإيقاع المصاحب للغناء، هي وحدها المثالب التي رمى بها الشّعراء المغنّين، وإنّما أضافوا إلى ذلك رداءة الشّعر المغنّى. وهنا يبدو الحرص على الاستماع لغناء يجمع ما بين عناصر الأغنية المتكاملة وهي: الصّوت، والإيقاع (اللّحن)، والكلمة (الشّعر). وذلك على نحو ما يبدو من قول ابن قلاقس نفسه الذي يذمّ مغنياً آخر، مصوّراً برودة هذا الشّعر المغنّى الذي أثار السّأم في نفوس المستمعين[1]:

غنّى فكلُّ حاضرٍ إصْبعُـهُ في أُذْنِه
شعْراً كَبَرْدِ فكّـهِ لفظاً وطُـولِ قرنِه
فالحمدُ اللّه الّذي غنّـى فلمْ يُثـنِّه

ومن الطبيعيّ أن يواجه هؤلاء المغنّون صدود الناس وإعراضهم. وقد عبّر الخطيب الحصكفي[2] عن مثل هذا حين وصف ما لاقاه أحد المغنّين من إعراض وازورار، فلا يكاد يستمع إليه أحد إلا كرها، وهو ممنوع من دخول أكثر البيوت، بل لقد تجاوز الأمر ذلك، فلم يسلم هو نفسه من الضّرب والصّفع، وكلّ ذلك بفعل ما أثاره في النّفوس من رتابة وملل، يقول[3]:

ومُسْمِعٍ قَوْلُهُ بالكُـرْهِ مَسمُوعٌ مُحَجَّبٌ عنْ بُيُوتِ النّاسِ مَـمْنُـوعُ
غنّى فبرّقَ عينيْهِ وحَرّكَ لحـ ـييه ، فَقُلنا الفتى لا شكّ مَصْـروعُ
وقطّعَ الشّعرَ حتّى ودّ أكثرنا أنّ اللّسانَ الّذي في فيْـهِ مَقْطـوعُ
لم يأتِ دَعْوةَ أقْوَامٍ بأَمْرِهمُ ولا مَضَـى قَـطُّ إلاّ وهو مَصْفُوعُ

---

(١) المصدر السابق: ١٨٩.

(٢) هو أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين، كان شاعراً وخطيباً ومترسّلاً، توفي بعد سنة ٥٥٠هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): ٢/ ٤٧١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٠٥.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٠٨؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: ٦/ ٢٠٧.

وكان حسن الهيئة وجمال الخِلْقة من المواصفات المطلوبة لدى المغنّيات خاصّة، إذ لم يكتف بحلاوة الصّوت واتّساقه فحسب، وإنّما كان يُفضَّل أن يصاحب هذا جمال وجه وقوام. ولذلك تندّر الشُّعراء ببعض المغنّيات اللائي كنّ يفتقرن لميسم الجمال؛ فقد سخر القاضي الفاضل من قينة كبيرة الأنف، معبِّراً عمّا خالجه من شعور منفِّر ساعة غنّت بهذه الصّورة (الكاريكاتوريّة) المضحكة[1]:

وَقَيْـــنَةٍ كُلُّ وَجْهِـها أَنْفُ كأنّما وَجْهُها لَهَا خَلْفُ

غنّتْ ، فلَمْ تَبْقَ فيّ جارحةٌ ألاّ تَمَـنَّتْ أنّهـــا كَفُّ

ويجسِّد مثل هذا الموقف - بأسلوب طريف - أُميّة بن أبي الصّلت، حين يهجو مغنّياً قبيح الصّورة. لكنّه حسن الصّوت، فيصوّر حالة من التّناقض تبدّت في تعذُّب طرفه من معاينة وجهه، مقابل تنعُّم سمعه من طلاوة إنشاده، فتكون الحالة على درجة واحدة من المساواة، يقول[2]:

يُعذَّبُ طَرْفي حِيْنَ يَلْحَظُ وَجْهَهُ ويَنْعمُ سمعي دونَهُ عِنْدَما يَشْدُو

إساءةُ مَرآهُ لإحسَـــانِ فِعْـــلِهِ كفاءٌ فَلاَ حُسْنٌ يدومُ ولا سَعْدُ

-٤-

وكان المزيّنون (الحلاقون) من أصحاب المهن الّذين ورد - علـــى قلّة- هجـاؤهم في هذا الشِّـعـــر، وقـد بالغ ظافـر الحـدّاد[3] في رســـم صـورة ســاخـرة لمزيّن

---

(١) القاضي الفاضل، عبدالرحيم بن علي (ت٥٩٦هـ)، ديوانه ، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، ط١، دار الكتاب العـربيّ، القـاهرة، ١٩٦١م: ٢/ ٤٢٦؛ وانظر في المعنى نفســه: ابن الشّعـار الموصليّ، قلائد الجمان (مخطوط): ١٠/ ٢٩٤؛ عرقلة الكلبيّ، ديوانه: ٨٨.

(٢) أُميّة بن أبي الصّلت، ديوانه: ٧٩.

(٣) هو أبو المنصور ظافر بن القاسم الجذاميّ الإسكندرانيّ، شاعر مصري مجيد، توفي في مصر سنة ٥٢٩هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): ١-١٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٥٤٠.

يسمّى(مسعوداً)، جمع فيها ما بين قُبْح وجهه الذي لا يبهج ناظراً، وصنعته التي لم تقرن- يوماً - بنجاح، ذلك أنّ من يـــزره مرّة فلن يعاودها بأخرى، وكلّ ذلك لأنّه[1]:

. . لا يَحْلِقُ الرّأسَ إلا مَرَّةً وبِهَا تُغْـنيهِ عَنْ عَـــوْدَةٍ ما مدَّهُ العـمرُ

لأنّ أَلْطَفَ لَمْسٍ مِنْ أَنَامـــلِـهِ سَلْخٌ، وهلْ بَعْدَ سلْخٍ يَنْبتُ الشَّعَرُ؟

-٥-

وثمّة ظاهرة بارزة بدت في شعر هذه الفترة، ولا سيما في أواخرها (أي ما يصادف بداية عهد المماليك)، تلك هي هجاء بعض الشّعراء لمهنهم، وتبرّمهم من الأوضاع التي يعيشونها. فقد عرفنا في مدخل هذه الدّراسة أنّ بعضاً من شعراء هذا العصر كانوا أصحاب مهن، فكـــان منهم المعلّم والحدّاد والورّاق والكحّال وغير ذلك. ومن الواضح أنّ الذي ساقهم إلى ذلك هو الفقر والحاجة، فلم تعد حرفة الأدب تقيم الأود، وتحفظ للمرء كرامة العيش، كما كان العهد في عصور خلت. وقد عبّر غير ما شاعر عن هذا الوضع؛ فابن منيرة الكفرطابي[2]، يشكو - بمرارة - كساد سوق الأدب، وسوء حال العاملين به بقوله[3]:

يا قَوْمُ خَابَ مَطْلبي لا آخـــذَ الـلّـهُ أبي

لأنّـــه درَّ سَـــنـي أصنافَ عِلْمِ الـعَـرَبِ

وَعنْـــــدهُ أنّي بِهـا أحْوي جَزِيلَ النّـسبِ

---

(١) ظافر الحدّاد (ت٥٢٩هـ)، ديـــوانه، تحقيق: حسين نـصّار، ط١، مكتبة مصر، القاهـــرة، ١٩٦٩م: ١٣٣.

(٢) هو محمّد بن يوسف بن عمر، ابن منيرة الكفرطابيّ، أديب وفقيه نزل شيزر وتوفي سنة ٥٥٣هـ. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق (صورة عن نسخة المكتبة الظّاهرية بدمشق): ١٤٨/١٦.

(٣) المصدر نفسه.

فما أفـــادتْني سوَى حرفَـــةِ أهـــلِ الأدبِ

فـــليْتَـــهُ دَرّسنـــي في الطّينِ أو في الحَطَبِ

أوليتَـــهُ عَلّمـــني صَنْعَتَـــهُ وهـــو صَبي

فإنّ نَسْـجَ الكُـبَبِ نظِيرُ نَسْخِ الكُتُـــبِ[1]

ولعلّ من الأسباب التي أدّت إلى هـــذه الحال، وجـود تـلك الهـوّة مـا بين الحكّام الّذين لم يكن بعضهم يتذوّق الشّعر ويفهمه بسبب عُجمـــته، وقصور ذائقتـــه في اللّغة العـربيّـة، والشّـــعراء الذين لم يجـــدوا ممدوحاً يقدّر ما يقولون[2]، وقد صوّر السّراج الورّاق[3] جانباً من هذا الواقع المحبط في بدايات الفـــترة المملوكيّة، بقوله[4]:

وكانَ النّاسُ إنْ مُدحُوا أثَابُوا وللكُرماء في المَدْح افتخَارُ

وكَانَ العُذرُ في وقتٍ ووَقْتٍ فصُرْنا لاعطَاء ولا اعْتذَارُ

ومع هذا فلم تكن المهن الأخرى التي ظنّ الشّعراء أنّهم بمزاولتها سيتحسّن واقعهم، أفضل حالاً؛ فابن دانيال-مثلاً- يبدي استياءه من حرفة الكحالة التي لم يكن

---

(١) الكُبَب: جمع كُبّة وهو ما جمع من الغزل.

(٢) بدأ هذا الواقع بصورة ملحوظة منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجريّ (بداية عصر المماليك)، في حين شهد الفنّ الشعريّ رعاية وتشجيعاً من قبل ملوك بني أيوب الذين كان أغلبهم أهل ثقافة وأدب. انظر: ناظم رشيد، الأدب عند بني أيّوب، مجلة المورد، م٥، ع٣، وزارة الإعلام العراقية، خريف ١٩٧٦م: ٣٥-٤٠؛ هنريت سابا، الشعر في بلاد الشام: ١٠٤- ١١٢، ١٢٠-١٢٥.

(٣) هو عمر بن محمد بن حسن، سراج الدّين الورّاق، شاعر مصري فكه، توفي سنة ٦٩٥هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ١٤٠؛ الزّركليّ، الأعلام: ٥/ ٦٣.

(٤) الصّفدي، صلاح الدّين بن أيبك (٧٦٤هـ)، الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧٥م : ٢/ ٣٥١؛ ويلاحظ تنامي هذه النّغمة ووضوحها في شعر هذه الفترة، بصورة عامّة . انظر على سبيل المثال: عرقلة الكلبيّ، ديوانه: ٩٤؛ العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): ١/ ٦؛ ابن السّاعاتيّ، ديوانه: ٢/ ٣٤١؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٢٨٦.

يحصّل الدّرهم منها إلا مكابدة وعناداً[1]:

يا سائلي عَنْ حِرْفتي في الورَى وثَـــرْوتي فيْهم وإفلاسي

ما حـــالُ مَن درهـــمُ إنفـــاقه يأخذُهُ منْ أعْينِ النّـــاسِ

والتّورية واضحة في قوله «من أعين الناس».

أما أبو الحسين الجزّار، فقد اشتهر بكثرة شكواه من حرفة الجـــزارة. وله في ذلك مقطّعات كثيرة يشكو فيها بؤســـه وشقـــاءه، وما كانت تجلـــبه له هذه المهنة من متـاعب وأحـزان. من ذلك قـوله شـاكـيـاً من سـوء أوضـاع هذه المهنة، وقلّة أجـرها المكتسب، على الرّغـــم من معاناته وتعبـــه فيـــها، مورداً كلّ ذلـــك بصور من المفارقة صارخة[2]:

حسْبي حِرافاً بِمِهْنَتِي حَسْبي أَصْبحْتُ فيْها مُعذَّبَ القَلْبِ

موسّخ الثّوبِ والصّحيفةِ منْ طُولِ اكـتسابي بلا كَسْـبِ

أَعملُ في اللّحمِ للعشاءِ ولا أنالُ منهُ العَشَا فمـا ذنبـي!

خلّى فؤادي ولي فمٌ وسخٌ كأنّنـــي في جـــزارتي كلـبي

***

جـ- الهجاء المذهبيّ والطائفيّ:

عبّـر شعـر الهـجاء عن جـوانب من النّزاع المحـتدم بين بعض التّـيارات المذهبـيّة والطّائفيّة التي سادت البلاد في هذه الفترة. ويُمكن أن يُلْمس - من خلال هذا الشّعر-

---

(١) ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: ٩٢.

(٢) ابن سعيد الأندلسيّ، علي بن موسى (ت٦٨٥هـ)، المغرب في حلى المغرب (القسم الخاصّ بمصر)، تحقيق: زكي محمد حسن وآخرين، مطبعة جامعة فؤاد الأوّل، ١٩٥٣م: ٣١٦؛ وللاستزادة انظر: نفسه: ٣٣٣.

ما كان يسود السّاحة -أحياناً- من توتّر وجدل سببهما تعصُّب كلٍّ فريق لمذهبه ومعتقده.

-١-

وقد كان المذهب السُّنيّ هو السّائد في بلاد الشّام بصورة عامّة، في حين كان المذهب الشّيعيّ هو الغالب على مصر حتّى سقوط الدّولة الفاطميّة، حيث تحوّلت بعد ذلك إلى المذهب السّنيّ[١]. غير أنّه لا بدّ من الإشارة إلى وجود بعض الفرق الشّيعيّة في مصر والشّام التي وجدت إلى جانب المذهب السّنيّ. ومن هذه الفرق: الإماميّة والزّيديّة والإسماعيليّة والنّصيريّة وغيرها[٢].

ويستبان من الشّعر موضوع الدّراسة أنّ الخلاف كان يحتدم في بعض الفترات ما بين الشّيعة والسُّنة، فقد حاول شعراء كلّ طرف الانتصار لأنفسهم من الطّرف الآخر. ومن أبرز الشُّعراء الذين عُرفوا بتشيّعهم ابن منير الطّرابلسيّ الذي وصف -في موضع سابق من هذه الدراسة- بمغالاته في تشيّعه. ومن أشهر قصائده التي تعبّر عن ذلك، قصيدته المعروفة بـ «التّتريّة»[٣]، وهي ممّا يدخل في باب الهزل الذي يراد به الجدّ[٤]. والقصيدة تشفّ -في بعض أبياتها- عن سخرية غير ظاهرة ببني أميّة، يعقبه تعريض

---

(١) مصطفى زابد، النثر الفني في عهد الدّولتين الزنكيّة والأيوبيّة بمصر والشّام، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٣م: ١٧٠.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير: ٢٢٧.

(٣) سمّيت القصيدة بهذا الاسم، نسبة إلى مملوك اسمه «تتر» كان ابن منير قد عشقه وتعلّق به، وحول مناسبة القصيدة انظر: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر (ت٨٣٧هـ)، ثمرات الأوراق، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧١م: ٣٢٧؛ داود الأنطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشّاق، مكتبة الهلال، بيروت، بلا تاريخ: ٢/ ٣٦٣.

(٤) ابن حجّة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، ط٢، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١م: ١/ ٣٢٤.

خفيّ ببعض الصّحابة، ومنها قوله[1]:

. . . واليْتُ آلَ أُميّةَ الطـ ـطُهْرُ الميامينَ الغُـرَرْ

وجَحَـدْتُ بَيْعَةَ حيـدرٍ وَعَدَلْتُ عنهُ إلى عُمرْ

وإذا جرَى ذكْرُ الصّحا بةِ بينَ قومٍ واشْـتُهرْ

قلتُ: المقدَّمُ شيـخُ تَيْـ ـمٍ ثُمَّ صاحبُه عُمـرْ

وبكيـتُ عُثمانَ الشّهيـ ـدَ بُكاءَ نسوانِ الحَضَرْ

ورثيـتُ طلحَـةَ والزُّبيـ ـرَ بكلِّ شِعْـرٍ مُبتَـكَرْ

وأزورُ قبرَهمـا وأزْ جُرُ مَنْ لحاني أو زَجَرْ

والأبيات -كما هو واضح- تقصد عكس ما تظهر، وهي تكشف -زيادة على ذلك- عن معرفة الشّاعر ببعض الأحداث والوقائع المرتبطة بالتاريخ الإسلامي.

أمّا طلائع بن رُزّيك[2]، فقد تصدّى للدّفاع عن الشّيعة، واصفاً ما حلّ بهم مصائب عبر الحقب التاريخيّة المنصرمة، وذلك كمثل قوله[3]:

. . . يا فِعلةً جاءوا بها في الغَدْرِ فاضِحَةً شنِيْعَهْ

خابَ الّذي أضْحى الحسيـ ـنُ لطولِ شقْوتِهِ صريْعهْ

أفذَاكَ يرْجُو أنْ يكو نَ مُحمّدٌ أبداً شفيْعَهْ

---

(١) ابن منير، ديوانه: ١٦٢.

(٢) هو أبو الغارات طلائع بن رزّيك، الملقّب بالملك الصالح، كان متشيّعاً إماميّاً، ولي الوزارة في مصر، وقتل سنة ٥٥٦هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٥٢٦؛ الزركلي، الأعلام: ٣/ ٢٢٨.

(٣) طلائع بن رُزّيك، ديوانه، تحقيق: محمد هادي الأميني، ط١، المكتبة الأهليّة، النّجف، ١٩٦٤م: ٩٣.

وقوله[1]:

. . . يا أمَّةً غَدَرتْ بآل نبيِّها ونبيُّها في مَـوْتِه ما غمّضـا

فأتوا كما يأتي غريمٌ خصـمَه حتّى كأنّ لهم دُيُوناً تُقْتَـضَى

نكروا وصيّةَ أحمدٍ واستبدلوا ممّن أحبّ بعلمِـهمْ مَنْ أبغضا

فالشّاعر يؤكّد -من خلال الأبيات السّابقة- على ما أصاب آل البيت من محن ومآسٍ، تمثّلت -كما يرى- في الغدر بهم، وانتزاع حقّهم في الحكم، ولذلك نجده يشنُّ حملة شديدة -وإن بدت ذات طابع تعميميّ- على خصومهم. وليس مثل هذا الموقف بمستغرب من طلائع الذي وصفَ بالمغالاة «وفرط العصبيّة في المذهب»[2] إلى جانب كونه أشهر رجالات الفاطميين ووزرائهم .

ومن الشُّعراء الذين بدا تشيّعهم -كذلك- واضحاً من خلال شعرهم، عرقلة الكلبيّ، وذلك على نحو ما يبدو من قوله معرِّضاً ببعض الخلفاء الأمويّين[3]:

سقّياني كأساً على نَهرِ «ثَوْرا» وَذَرانـي أبولـها في «يزيدِ»[4]

أنا منْ شيعةِ الإمامِ حُسـينٍ لسـتُ من سُنّةِ الإمام ولـيدِ

مذهبي مُذْهَبٌ ولكنّني فـي بلدةٍ زُخْرفـتْ لكلِّ بلـيدِ

وفي المقابل وقف شعراء السُّنة في وجه غلاة التّشيّع، ودافعوا عن الصّحابة الّذين

---

(١) المصدر السابق: ٨٣؛ وفي المعنى نفسه انظر: ابن فضل العمريّ، مسالك الأبصار (مخطوط): ١١/ ١٦٠.

(٢) عمارة اليمنيّ ، نجم الدّين بن أبي الحسن (ت٥٦٩هـ) النّكت العصريّة في أخبار الوزراء المصريّة، اعتنى بتصحيحه هرتويغ درنبرغ، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م: ٤٨.

(٣) عرقلة الكلبيّ، ديوانه: ٣٣؛ وللاستزادة انظر نفسه: ١٤، ٤٩.

(٤) ثورا ويزيد: فرعان من نهر بردى. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٢/ ٨٦، ٥/ ٤٣٦، والتورية واضحة في يزيد.

تعرّضوا للطّعن وتشويه الصّورة. فقد ردّ محيي الدّين الشّهرزوري[1] على من لامه في حبّ الصّحابة، مبرزاً ما كانوا يتمتّعون به من صفات حميدة، واصفهم «بسادة الورى.. وصفوة البشر»، وذلك إذ يقول[2]:

لائمي في هوى الصّحا ... بةِ ارْجعْ إلى سَقَرْ

لا بلغتَ المنى ولا ... نِلْتَ من رَفْضِكَ الوَطَرْ

كيف تنْهى عن حُبِّ قو ... مٍ هُمُ السَّمعُ والبَصَرْ

وهُمُ سادةُ الورى ... وهُمُ صفوةُ البَشَرْ

وفصّل شهاب الدّين محمود الحلبي[3] القول في هذا المعنى في أبيات طويلة، راح يظهر -من خلالها- فضل صحابة رسول اللّه عليه السّلام، مبيّنا ما قاموا به من أعمال وتضحيات في سبيل الدّين، من مثل نصرة الرّسول ومؤازرته في وجه أعدائه. وهو يريد أن يخلص-من كلّ ذلك- إلى بطلان موقف من يسبّ الصّحابة، ويحاول النّيل من أقدارهم، ومما جاء في ذلك قوله[4]:

يا مُظْهراً حُبّ الرَّسولِ وجَهْلُهُ ... يُغْريْهِ من سَفَهٍ ببغْضِ صِحابِهِ

رُمْتَ الهدى فضللْتَ فيه لأنّهُ ... ما جئتَ حُبَّ محمّدٍ من بابِهِ

أتحبُّهُ وتُعيْبُ قَوْماً آمنوا ... بسَنى هداه حال كشْفِ حجابِهِ

---

(١) هو أبو حامد محمّد بن القاضي كمال الدين بن الشهرزوريّ، ولي قضاء دمشق نيابة عن والده، توفي سنة ٥٨٤هـ، وقيل سنة ٥٨٦هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): ٢/ ٣٢٩؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٢٤٦؛ الصّفديّ، الوافي بالوفيات: ١/ ٢١٠.

(٢) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): ٢/ ٣٣٤

(٣) هو محمود بن سلمان بن فهد الحلبيّ، ولد سنة ٦٤٤هـ، وتوفي سنة ٧٢٥هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ٤/ ٨٢.

(٤) شهاب الدين الحلبيّ (ت٧٢٥هـ)، ديوان أهنى المنائح في أسنى المدائح، مطبعة جريدة الشورى، مصر، بلا تاريخ: ١٠١-١٠٢

. . نصروا النبيَّ ووازروه وقاطعُوا فيـــه العِدا وتمسّـــكوا بجنـابهِ

لبّوه طوْعاً إذ دعاهُمْ للـــهُـــدى وهـــمُ لدى ظُفْرِ العـــدوِّ ونَابهِ

وقد دعا بعض الشُّعراء- نتيجة تطرّف بعض الفئات- إلى انتهاج موقف وسطيّ معتدل، يدعو إلى حبِّ الصّحابة جميعاً دونما تمييز لأحدهم على الآخر. وذلك كما يبدو من قول منتصر بن الحسن الأُدفويّ[1] الذي يرى الفوز بمرضاة الله في نهج هذا الطّريق[2]:

إنّ النّواصبَ في عليّ أفْـــرطُوا إذ أبْغضُوه كما الرّوافضُ فرّطُوا

جَرحُوا الصّحابةَ عامدينَ فكلُّهم أهلُ الجهـــالةِ مُفْرِطٌ ومُفـرِّطُ

فالفوزُ عِنْدَ اللّهِ حُبُّ جميْـعِهم وولاؤهُمْ هَذَا الطّـريقُ الأوْسطُ

- ٢ -

ومن جانب آخر، كان ثمّة جدل عقائديّ بين أتباع بعض التيارات المذهبيّة. وقد اتّخذ هذا الجدل صوراً من المحاجّة العقليّة التي أثقلت على الشّعر روحه وحيويته. ومن البيّن أنّ الشّعراء في هذا الاتّجاه، قد عدّوا الشّعر أحد الأسلحة التي استخدموها للدّفاع عن معتقداتهم التي آمنوا بها. ومن هذا القبيل ما قاله محيي الدّين الشّهرزوريّ الذي دافع عن مذهبه في التّنزيه مقابل من كان يدعو إلى التّعطيل (من خلال التّشبيه والتّمثيل)، حيث يوضّح أُصول هذا المعتقد بقوله[3]:

أقسمتُ بالمبعُوث من هـــاشـــمٍ والشّافعِ المَقبُـــولِ يومَ الجِـــدَالْ

---

(١) هو منتصر بن الحسن بن منتصر الكنانيّ العسقلانيّ الأصل، فقيه ومتصوّف ولد في أدفو سنة ٦٤٩هـ، وتوفي فيها سنة ٧٣٤هـ. انظر: الأدفويّ، الطّالع السّعيد: ٦٦.

(٢) الأُدفويّ، الطّالع السّعيد: ٦٦١.

(٣) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): ٢/ ٣٣.

ما ربُّنا جسمٌ ولا صُـــورَةٌ موصُوفَةٌ بالميـــلِ والاعتـــدالْ

وهو على العرشِ استوى لا كما تستوطِنُ الأجســـامُ فوقَ الرِّحالْ

نُـزُولُـهُ حـــقٌّ ولـــكنَّـــهُ مُقـــدَّسٌ عـــنْ رحلةٍ وانتِـــقالْ

هذا هو الحـــقُّ ومـا قـــالهُ الـ ـمشـــبِهـيُّ الـــغِرُّ المُحَـــالْ

. .ومـــنْ يقُـلْ: للّهِ في خَلـقـهِ مِـــثْلُ فقدْ جَـاوَزَ حدّ الضَّـلالْ

وقريب من هذا الجدل المستفيض الذي أخذ أبعاداً واضحة من الشّرح والتّـــوضيح في سبيل إقناع الآخرين، قول البهاء زهير مخاطباً أحد الملحدين، إذ يذهـب إلى تسـفيه موقفه ودعواه، متّهمه بالجهل وقلّة المـعرفة، واصفاً بطلان فكره وعدم جدواه[1]:

وجـاهلٍ يدّعي في العلـــم فلـــسَفةً قدْ راحَ يكفُرُ بالرَّحمَنِ تقليدا

وقالَ أعرفُ معْـــقُولاً فقُـــــلتُ لهُ عنّيتَ نفسَكَ معْقُولاً ومعْقُـودا

منْ أينَ أنتَ وهذا الـــــشّيءُ تـذكُرُهُ أراكَ تقـرَعُ باباً عنكَ مسْدُودا

-٣-

ولم يسلم المتصوّفة -في هذا الإطار- من النّقد والتّعريض، نلمسُ مثل هذا لدى كُتّاب النّثر؛ فقد سخر الوهرانيّ منهم ومن طريقتهم القائمة على العجز والكسل، وذلك حين يقول في إحدى مناماته: «فلمّا انتهى (الرّسول عليه الصّلاة والسّلام) إلى شاطئ المشرعة، وقف عندها، فتقدّمتْ إليه الصّوفيّة من كلّ مكان، وعلى أيديهم الأمشاط وأخلّة الأسنان، وقدّموها بين يديه، فقال صلّى اللّه عليه: من هؤلاء ؟ فقيل له: هؤلاء

(١) البهاء زهير، ديوانه: ٧٧؛ وانظر أبياتاً مشابهة لهذا المعنى في: ابن دانيال، المختار من شعره: ٢٢٦-٢٢٨.

قوم من أمّتك ، غلب العجز والكسل على طباعهم، فتركوا المعايش، وانقطعوا إلى المساجد يأكلون وينامون، فقال: فبماذا كانوا ينفعون النّاس، ويعينون بني آدم، فقيل له: واللّه ولا بشيءٍ البتّة، ولا كانوا إلا كمثل شجر الخروع في البستان، يشرب الماء، ويضيق بالمكان، فساق ولم يلتفت إليهم»[1].

أما الشّعراء فقد ركّزوا في هجاء المتصوّفة على بعض السلوكيّات غير السّويّة التي كانت تصدر من بعضهم؛ فابن عنين -مثلاً- يكشف عن شيء من ذلك من خلال هجاء الملقّ الصّوفيّ[2] الذي حاد -على حدّ قول ابن عنين- عن أُصول التّصوّف الحقّة، واتّبع طريق الإثم والزّلل، وفي ذلك يقول[3]:

أخْلَقَ الشّعرَ مدلويهِ وأهْلِيهِ وأزْرى المُلِقُّ بالصّوفيّهْ

حادَ عنْ مَذْهَبِ التّصوُّفِ إلا كَثْرَةَ الأكلِ فيه واللّوطيّهْ

وعبّر ابن دانيال عن استشراء مظاهر من الانحراف الخلقيّ بين صفوف نفر من هؤلاء المتصوّفة بأبيات قالها في هجاء صاحب له كان قد ترك الغناء، وأزمع على التّصوّف، وممّا جاء فيها قوله[4]:

. . لا تقُلْ قدْ لبستُ صُوفاً فإنّ الـ ـكَبْشَ جُلبابُهُ مع القَرْنِ صُوفُ

يُطْربُ الضّأنَ وهو مثلُكَ في الألـ ـحانِ أسماعُ قَوْمِهِ والخروفُ

طارَ منكَ المقصوصُ في حلقِكَ الرأ سَ لِزُهْدٍ وَفَاتَكَ المُتُوفُ

هَبكَ بُدِّلتَ بالمُدامِ حشيشاً ثمّ آوى إليكَ عِلْقٌ نتيفُ

. . الخ

---

(١) الوهرانيّ، مناامات الوهرانيّ ومقاماته ورسائله: ٤٨.

(٢) متصوّف، كان من مقرّبي الملك المعظّم عيسى. انظر: أبو شامة ، الذّيل على الرّوضتين: ١٤٢.

(٣) ابن عنين ، ديوانه: ١٨٦.

(٤) ابن دانيال، المختار من شعره: ٨٦.

وصوّر جوبان القوّاس[1] -بشيء من التّهكّم والسّخرية- ما كان يصدر عن بعض المتصوّفة من شطحات ومواجد مزعومة، فيقول على لسانهم هازئاً[2]:

متُّ في عشقي ومعْشُوقي أنا ففؤادي منْ فراقي في عَنَا

غِبتُ عنّي فمَتَى أجْمعُني أنا منْ وجْديَ منّي في فَنَا

أيّها السّامعُ تدْري ما الذي قُلتُ: واللّهِ ولا أدْري أنا

وقد وُجِد -مقابل هذا- من دافع عن الصّوفيّة، وحاول أن ينسب لهم كثيراً من المناقب والكرامات، على نحو ما يبدو من قول البهاء زهير الذي يبدي حماسة واضحة في الوقوف بوجه من يتعرّض لهم بالقدح والتّشهير[3]:

أتقدَحُ فيمَنْ شرَّفَ اللّهُ قدْرَهُ وَمَا زالَ مخْصُوصاً به طيّبُ الثَّنَا

لعَمْرُكَ ما أحسَنتَ فيما فَعَلتَهُ وليسَ قَبيْحُ القَوْلِ في النّاس هَيِّنا

نطقْتَ فَلمْ تُحْسِنْ ولمْ تبقَ ساكناً لقدْ فاتَكَ الأمرُ الّذي كان أحسنا

دعِ القومَ إنّ القومَ عَنْكَ بمعْزِلٍ وإنّك عنْ هذا الحديْثِ لفي غِنَى

رجالٌ لهُمْ حال مع اللّه خالصٌ ولا أنتَ منْ ذاكَ القبيلِ ولا أنا

ويلحظ النّاظر في هذه الأبيات، ما كان يتمتّع به أهل التصوّف من مكانة في نفوس النّاس، وهذا واضح من خلال قول الشّاعر: «أتقدح فيمن شرّف اللّه قدره»، وقوله: «رجال لهم حال مع اللّه خالص»؛ فقد كان التّصوّر يذهب إلى

---

(١) هو جوبان بن مسعود بن سعداللّه، سكن دمشق، وتوفي في حدود سنة ٦٨٠هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/٣٠٣.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٠٥.

(٣) البهاء زهير، ديوانه: ٢٦٣.

تميّزهم عن غيرهم بكرامات ومعارف أُلقيت إليهم إلقاء[1]. ولذلك نجد البوصيريّ يؤكّد مثل هذا المعنى حين يعرِّض بالفقهاء، واصفهم بأخذ علومهم من الكتب، في حين أنّ المتصوّفة يتلقّونها مباشرة من لدن اللّه تعالى، فهم -في رأيه- أكثر نقاء وصفاء من أولئك الفقهاء، يقول[2]:

. . . قُلْ للّذين تكلَّفُوا زِيّ التُّقى ... وتخيَّرُوا للـدَّرسِ ألفَ مُجلَّدِ

لا تَحْسَبُوا كُحْلَ العُيونِ بحيْلَةٍ ... إنّ المَهَا لمْ تَكْتَحِلْ بالإثمِدِ

ما النّحلُ ذلّلتِ الهدايةُ سُبْلَها ... مثْلَ الحميرِ تقودُها للمـوردِ

منْ أمْلتِ التّقوى عليه وأنفقتْ ... يدُهُ من الأكـوانِ لا مِنْ مِزْوَدِ

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ المتصوّفة لم يكن جميعهم على هذه الشّاكلة من السّلبيّة والتّواكل والانحراف، ولا سيما في القرن السّادس الهجريّ الذي شهد ازدهاراً للتّصوّف السّنّيّ من خلال حظوة السّلاطين وتشجيعهم[3]. وقد نقل ابن جبير بعضاً من مآثرهم وصفاتهم، بقوله: «وهم على طريقة شريفة، وسُنّة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة»[4]. وكان لهم -إلى جانب ذلك- دور فاعل في المشاركة بالأحداث الدّائرة في عصرهم؛ فحين حثّ نور الدّين -مثلاً- النّاس في سنة ٥٥٢هـ على الجهاد «تبعه من الأحداث والمتطوّعة والفقهاء والصّوفيّة والمتديّنين العدد

---

(١) حول اعتقاد النّاس بالمتصوّفة وتبرّكهم بهم ، انظر: ابن الأثير، ضياء الدين الجزريّ (ت٦٣٧هـ)، رسائل ابن الأثير ، دراسة وتحقيق: نوري القيسيّ وهلال ناجي، دار الكتب للطباعة والنّشر، جامعة الموصل، بلا تاريخ: ١٤٧-١٤٨.

(٢) البوصيريّ، ديوانه: ١٢٤.

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير: ٢٣١.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

الكثير»[1]، وحين تمّ فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، كانت جماعات من المتصوّفة من جملة من شهده[2].

-٤-

أمّا في في مجال النّزعات الطّائفيّة، فقد أبرز الشّعر ما كان يطرأ -في بعض الأحيان- على العلاقة السّائدة بين بعض العناصر السّكانيّة من نزاع وخلاف، وبخاصّة بين المسلمين من جهة وأهل الذّمة من يهود ونصارى من جهة أُخرى. ويبدو أن نفوذ هؤلاء في الدّولة كان يتنامى في بعض الفترات؛ مما دعا شاعراً مثل فتيان الشّاغوريّ إلى الشّكوى والاستياء من قوّة سطوة اليهود في دولة الملك الأمجد بهرام شاه[3]، وذلك إذ يقول[4]:

الملكُ الأَمجَدُ الّذي شَهِدَتْ ... له مُلُوكُ الزّمَانِ بالفَضْلِ

أَصْبَحَ في السّامريّ مُعْتَقِداً ... ما اعتقَدَ السّامريُّ في العِجْلِ

والسّامريّون كالبرامكِ منْ ... قبْلُ فأينَ الرَّشيدُ للقَتْلِ

ومثل هذا ما قاله البهاء زهير في الأسعد بن صاعد الفائزيّ[5] الذي كان من

---

(١) ابن القلانسيّ، تاريخ دمشق: ٥٢١.

(٢) ابن شدّاد، النوادر السلطانية: ٨٤.

(٣) هو مجد الدين أبو المظفر، بهرام شاه بن فرّوخ شاه بن أيّوب، صاحب بعلبك، كان شاعراً مجيداً، قتل على يد مملوك له سنة ٦٢٨هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/٢٢٦؛ ابن العماد الحنبليّ، شذرات الذّهب: ٥/١٢٦.

(٤) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: ٣٥٩.

(٥) هو الصّاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزيّ، ولي الوزارة، وكان صاحب حظوة عند الملوك، توفي سنة ٦٥٥هـ. انظر: ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة: ٧/٥٨.

المسالمة، ووصف بكثرة مظالمه، وإثقاله كاهل النّاس بما كان يَفرض من ضرائب[1]:

لَعَنَ اللهُ صاعداً وأباه فَصَـاعِـدا

وبنـيه فنـازِلاً واحِداً ثُمَّ واحِدا

وقول البهاء -كما هو واضح- لا يتضمّن نقداً، ولولا الاعتماد على المصادر التاريخيّة في ذلك، لما استبان الدّارس منه شيئاً[2]. غير أنه -وهذا المهمّ- يعبّر عن شعور طافح بالمرارة، تمثّل في لعنة الشّاعر التي لم تقتصر على ذلك المستخدم، وإنما تجاوزته إلى تتبع آبائه وأبنائه معاً، ومثل هذا الشُّعور هو استجابة لمسبّبات دفعت أصلاً إليه.

وأكثر البوصيريّ من التّنديد بالنّصارى، فصوّر تعصّبهم لبعضهم بعضاً، وسوء معاملتهم المسلمين، مظهراً ما كان يصدر عنهم من تخريب وزعزعة للأمن، ولذلك نجده يحرّض أولي الأمر على معاقبتهم، ووضع حدٍّ لخطرهم المتفاقم[3]. ويكشف في قصائد أُخرى عن تحكّمهم في أموال الدّولة والطّرق غير المشروعة التي ينفقون فيها هذه الأموال[4]. غير أنّ للبوصيريّ تجربة شخصيّة، واتّصالاً مباشراً مع كتّاب النّصارى في المحلّة، نشأ عنهما خصومة محتدمة بينه وبينهم، فقد ورد في بعض المصادر أنّ البوصيريّ «كان قليل المعرفة بصناعة الكتابة، يباشرها ويبغض طائفة الكُتّاب»[5]؛ فربّما

---

(١) البهاء زهير، ديوانه: ٨٩؛ وتنسب الأبيات لابن مطروح كذلك، انظر: ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة: ٧/٥٨.

(٢) السيوطي، جلال الدين (ت٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٨م: ٢/٢١٦-٢١٧.

(٣) البوصيريّ، ديوانه: ١٦٣-١٦٤.

(٤) المصدر السّابق: ٢٦٢-٢٦٥.

(٥) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ)، كتاب المُقفّى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط١، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩١م: ٥/٦٦٩.

كان دافع هذا الهجاء أو بعضه بسبب من ذلك.

وقد أكثر الشّعراء من السّخرية بأهل الذّمة، وشكّكوا في صدق سرائر بعضهم وصحة إسلامه. وهو أمر يعكس حالة من التوجُّس وسوء النّوايا بين الجانبين. فمن ذلك ما قاله ابن الذّرويّ في أسعد بن المُهذَّب[1] الذي كان يتولّى ديوان الإقطاعات، فلمّا علم أسد الدين شيركوه بنصرانيّته عزله عن هذا العمل، فبادر (المهذّب) إلى اعتناق الإسلام، ممّا دفع شيركوه إلى إقراره -ثانية- على الدّيوان، ثمّ ما لبث أن عزله، وفي ذلك يقول ابن الذّرويّ ساخراً[2]:

لم يُسْلِمِ الشَّـيْخُ الخَطِـيـ ـرِ لِرَغْبةٍ في دينِ أَحمدْ
بلْ ظَـنّ أنّ محـالَـهُ[3] يُبْقـي لهُ الدّيوانَ سَرْمَدْ[4]
والآن قدْ صَـرَفُـوهُ عَنْـ ـهُ فَدِينُهُ فالـعَوْدُ أَحـمَدْ

وكان لهذا النّزاع الطائفيّ جانب آخر، تمثّل في جدل عقائديّ قام على الحجاج والنّقاش والتّعليل؛ إذ حاول كلٌّ طرف أن يدافع عن دينه وعقيدته في مقابل خصمه الآخر. ويُعدُّ البوصيريّ أشهر من قام بهذا الدّور من الجانب الإسلاميّ؛ فقد وقف في وجه اليهود والنّصارى، مدافعاً عن عقيدته الإسلاميّة، طاعناً في كثيرٍ من معتقداتهم ومبادئهم، وقد أهّلته ثقافته الدّينيّة الواسعة التي تمثّلت في«دراسة الإنجيل والتّوراة دراسة

---

(١) هو أسعد بن المهذّب ممّاتي، أصله من نصارى أسيوط، تولّى رئاسة الدّيوان في الدّيار المصريّة، توفي في حلب سنة ٦٠٦هـ. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٦/ ١٠٠.

(٢) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ٦/ ١٠٩؛ وانظر مثل هذا المعنى في: ابن عنين، ديوانه: ١٩٤؛ ابن سعيد الأندلسيّ، المغرب في حلى المغرب (القسم الخاص بمصر): ٣١٨؛ ابن دانيال، المختار من شعره: ٩٣.

(٣) المحال: المكر والكيد والخديعة.

(٤) سَرْمَد: دائم.

دقيقة»[1] القيام بهذا الدّور خير قيام.

ومن أبرز قصائده في هذا المجال، قصيدة أسماها «المخرج والمردود على النّصارى واليهود»[2]، تجاوز عدد أبياتها مئتين وثمانين بيتاً، تناول فيها -بأسلوب مسهب- كثيراً من المعتقدات التي جاءت بها كتب اليهود والنّصارى. وهو لا يكتفي بذلك بل يتعدّاه إلى التّعليق على مقاطع هذه القصيدة نثراً؛ ليزيد الأمر توضيحاً وجلاءً.

ومن المعتقدات التي حاول تفنيدها والطّعن في صحّتها، قول النّصارى بألوهيّة عيسى عليه السّلام، حيث يذهب إلى تسفيه رأي كلّ من يؤمن بهذا المعتقد لاجئاً إلى أُسلوب المحاجّة والجدل العقليّ. فيبيّن -أوّلاً- حقيقة موقفه من السّيّد المسيح، ثمّ يبرز موقف قومه منه، الذين حاولوا نصرته، ولكنّهم أساءوا له من حيث لا يدرون، وفي ذلك يقول[3]:

. . . جاءَ المسيحُ من الإلهِ رَسُوْلا ... فأبى أقلّ العالمين عُقُولا

قَوْمٌ رأوا بَشَراً كَرِيْماً فادّعوا ... مِنْ جَهْلِهِمْ للّه فيْهِ حُلُولا

فاعجبْ لأمّتِهِ الّتي قدْ صيّرتْ ... تَنْزِيْهها لإلهها التّنكيلا

هم بجّلوه بِبَاطلٍ فابتزّه ... أعداؤه بالباطلِ التّبجيلا

ومن معتقدات النّصارى التي سخر منها البوصيريّ كذلك، معتقد (التّثليث)؛ إذ يعرض لسخافته التي لا تستند لأدنى قدر من المنطق والعقل، فيقول من همزيّته المشهورة

---

(١) البوصيريّ، ديوانه: ٧ (مقدّمة المحقق).

(٢) المصدر السابق: ١٧٥-٢١٩.

(٣) المصدر السابق، ١٢٧-١٢٨.

التي مدح بها الرّسول عليه الصّلاة والسّلام[1]:

. . . أإلهٌ مركّبٌ ما سمِعْنا ... بإلـــهٍ لِـذَاتِـــهِ أجْـزَاءُ

ألكلٌّ مِنْهُمْ نصيْبٌ من المُلْـ ... ـكِ فهلا تميّز الأنْصِـــباءُ

أمْ هُمُ حلّلوا بها شِرْكَة الأبـ ... ـدانِ أمْ هُمْ لِبَعضِهم كفلاء

وعلى هذا النّحو تستمرّ الأبيات في التّهكّم من بطلان هذه الأفكار وفسادها. وكان لأسلوب الاستفهام الذي خرج به الشّاعر عن حقيقته، أثر في تأكيد سخريته واستنكاره لهذا المعتقد.

وبمثل هذه الطّريقـــة نجده يجادل اليهود في بعض معتقداتهم، وذلك كمثل تعريضه بعبادتهم العجل[2]. وذهابهم إلى تجســـيم اللّه جلّ وعلا حين جعلوه يتصارع مع إسرائيل[3]. ثمّ مـــا كـــان يصـــدر منـــهم في حقّ أنبـــياء اللّه من قـــدح وتشـــهير[4].

والملاحظ على هذا الهجاء المذهبيّ والطائفيّ عامّة، غلبة النزعة العقـــليّة، وخفوت العاطفة فيه، مما قرّبه من الأسلوب التقريريّ المباشـــر، وهو أمر كان بتأثيـــر من مضامين هذا الشّعر الذي لـــم ير فيه قائلـــوه إلاّ وسيـــلة لنشر مبدأ ، أو لتشويه آخر.

---

(١) البوصيريّ، ديوانه: ٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ٩٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٢.

(٤) المصدر نفسه والصّفحة نفسها؛ وانظر تفصيلاً وافياً لهذا الموضوع في: فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكيّ الأوّل: ٢٢٣-٢٣٧.

د- هجاء المدن وبعض المرافق:

-١-

لم يكن هجاء المدن ظاهرة جديدة على شعر هذه الفترة، إذ عرف واشتهر في عصور سابقة[١]، وقد استمرّ الشّعراء في هذه العصور على نهج سابقيهم، بل لقد أكثروا من القول فيه بصورة واضحة.

وعلى الرّغم من أنّ هذا الهجاء قد عبّر -في بعض الحالات- عن موقف شخصيّ، ونزوع ذاتيّ، إلا أنّ نشأته كانت بفعل عوامل اجتماعيّة، نتجت عن علاقة الشّاعر بالمدينة وسكّانها، وما انبثق عن هذه العلاقة -أحياناً- من موقف عدائيّ، تمثّل في انتقاد الشّاعر لبعض قيم سكّان المدينة وسلوكيّاتهم؛ فتطوُّر المدينة وتعدّد مناحي نشاطها «جعلها تتضمّن في وقت واحد عوامل جذب وعوامل تنفير. وهذه في الحقيقة صفة لكلّ مدينة كبيرة تستوعب قطاعات وشرائح مختلفة ومتفاوتة من المجتمع ، كما تستوعب كلّ وسائل الثّقافة وألوانها، وكلّ أسباب الحضارة والتمدّن»[٢].

وكانت دمشق من أكثر المدن تعرُّضاً للهجاء؛ فقد أمعن ابن عُنين -مثلاً- في الانتقاص من قدر أهلها بقصيدة طويلة سمّاها «مقراض الأعراض»، تناول فيها شخصيات اجتماعيّة متعدّدة من فقهاء وخطباء وقضاة وغيرهم. وقد أفحش الشّاعر في بعض أبيات هذه القصيدة متجاوزاً حدود العرف والذّوق[٣].

---

(١) انظر: محمد محمد حسين، الهجاء والهجّاؤون في صدر الإسلام، ط٢، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ١٩٦٩م: ٣٤-٤٠؛ محمد مصطفى هدارة، اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن الثاني الهجريّ، دار المعارف، مصر، ١٩٨١م: ٤٥٨؛ التّميميّ، اتّجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجريّ: ٨٥-٩١.

(٢) عزالدين إسماعيل، في الشعر العباسيّ (الرؤية والفن)، ط١، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٤م: ٣٤٤.

(٣) ابن عنين ، ديوانه: ١٧٩-١٨٤.

أمّا فتيان الشّاغوريّ، فقد تمحور هجاؤه لدمشق حول وصم أهلها بالبخل وقلّة الإحسان. ومما قاله فيهم، مشهّراً ببخلهم الذي قصّر -على حدّ قوله- عن بيوت اللّه[1]:

أهلُ دمشقٍ لهمُ جامعٌ لَيْسَ علَى ما فَيْهِ تَعْويْلُ
بالجامعِ الصَّحْنُ ولكنّهُ مِنْ كلِّ ما يُؤْكَلُ مَغسُولُ
وَفِيْهِ أشجارٌ ولكنّها لم يُجْنَ مِنْها الدَّهرَ ماكولُ

ومن الملاحظ أنّ هجاء فتيان هذا ناتج عن موقف شخصيّ، يبدو أنه لم يلْقَ على إثره ما كان يرجو من حفاوة وإكرام، وذلك لأنّه يصرّح في موضع آخر من ديوانه عن تجاهل أهل دمشق له وإغضائهم عن محاسنه بقوله[2]:

أراني غَرِيْباً عَنْ دِمَشقَ ، وأهلُها بصيرونَ بيْ لكنْ عَمُوا عَنْ محاسني
فياضَيْعَتي فيهمْ وَفَضْليَ ظاهرٌ كأنّيْ لديهمْ مُصْحَفٌ عِنْدَ باطني

وتتعرّض دمشق لمثل هذا الهجاء من قبل ملك النّحاة الذي يذمّ -إضافة إلى أهلها- مناخها وطبيعتها، مصوّراً فساد مائها وهوائها، وذلك إذ يقول[3]:

لأُرَحِّلَنّ مطيّتي عَنْ بَلْدَةٍ شَعْثَاءَ يُكْرَهُ ماؤها وهواؤها
ولأَرْمِينّ دِمَشقَ غَيْرَ مُجحّفٍ بفواقرَ التبستْ لها أنباؤها[4]
ولأَزْجُرَنّ العِيْسَ عَنْها مُعْرِضاً إنْ أَقْدَرَتْني دَوْلَةٌ ولواؤها

---

(١) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: ٣٦٢؛ وللاستزادة انظر: ٤٦٤.

(٢) المصدر السابق: ٥١٨.

(٣) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم العراق): ٣/١/١٢٤؛ وفي هجاء دمشق انظر أيضاً: ابن منير، ديوانه: ١٦٧؛ ابن دنينير، ديوانه: ١٩٩, ٥٩٢، ٦٠٦؛ الكتبي، فوات الوفيات: ١/١٣٦.

(٤) مُجَحّف: بالتضعيف : مضرّ، الفواقر: الدواهي.

وكان لحلب -كذلك- حصّة من هذا الهجاء، وذلك كما يبدو من قول ابن عنين الذي يعبّر عن إحساس فاتر تجاهها، مبرزاً -إلى جانب ذلك- ما كان يصطرع في المدينة من نزعات مذهبيّة متضاربة. وقد تجاوز الشّاعر هذا إلى الفحش في القول، والطّعن في أعراض أهل المدينة في أواخر الأبيات. ومما ورد فيها قوله[1]:

لا عَادَ في حَلَبٍ زَمَانٌ مـرَّ لي ... ما الصُّبْحُ فِيْهِ من المـسَاء بأَمْثَـلِ

سيّانَ في عَرَصاتِها رأدُ الضُّـحى ... عِنـدي وديجورُ الظَّـلامِ المُسْبِـلِ

في مَعْشَرٍ لَعَنُوا عَتِيْقاً ، لا سُقُوا ... صَوْبَ الغَمَامِ، وَمَعْشَرٍ لَعَنُوا عَـلي

ومن البلدان الشّاميّة الأُخرى التي تعرّضت للقدح والهجاء: يافا[2]، والزّبداني[3]، وحماة[4]، وبعلبك[5]، والشّاغور التي هجاها فتيان ورمى أهلها باللصوصيّة، على الرّغم من انتسابه إليها، وذلك إذ يقول[6]:

وبَيْنَ نُهَيْرَي الشّـاغورِ قـومٌ ... يَرَوْنَ الفَخْرَ كونهُمُ لُصُـوصا

وما طَبَخَتْ قُدُورُهُمُ حَـلالاً ... فَلَيْتَهُمُ بِهَا طَبَخُوا مَصُوصا[7]

ولو أنّا نُصَافِـحُ خَيِّريـهِـمْ ... لسلُّوا مِنْ خَوَاتِمنا الفُـصُوصا

---

(١) ابن عنين، ديوانه: ٢٣٠.

(٢) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): ٢/ ١١٨ (أبيات لخالد بن سنان الإسكندريّ).

(٣) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: ٢٠٣، ٤٦٤؛ والزّبدانيّ: كورة مشهورة بين دمشق وبعلبك. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٣/ ١٣٠.

(٤) ابن سناء الملك، ديوانه، تحقيق محمد جادالحق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥٧م: ٣٠٧؛ الصفديّ، الغيث المسجم: ٢/ ٤٠٥ (أبيات لمحاسن الشّواء).

(٥) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: ٣٦١.

(٦) المصدر السابق: ٢٥٣؛ والشّاغور: محلّة مشهورة بالباب الصّغير من دمشق. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٣/ ٣١٠.

(٧) المصوص: طعام من لحم يطبخ وينقع في الخلّ.

وفي البيت الأخير براعة واضحة؛ فإذا كان هذا حال «خيِّريهم»، فكيف يكون حال الآخرين منهم؟!.

أمّا مصر ومدنها، فقد كانت -أيضاً- عرضة لهجاء غير ما شاعر. ومن هؤلاء التّلعفريّ الذي يهجو القاهرة، مصوّراً ما لاقاه فيها من ذُلّ وخمول قدر[1]. وظافر الحدّاد الذي يذمُّ أهل الإسكندريّة -مع تغنّيه بها وبطبيعتها في غير ما موضع من ديوانه-[2] مبرزاً سوء خلقهم، وشدّة بخلهم من خلال إيراد صور من المقابلات اللفظيّة التي طغت عليها النّزعة المنطقيّة[3]:

لَهْفي على الإسكندريـ ... ـيَةِ كَيفَ يَسْكنُها اللِّئامُ

بلدٌ عَدِمْتُ بها السّرو ... رَ كما بِهَا عُدِمَ الكرَامُ

حَسُنتْ وقُبِّح أهْلُها ... فَضياؤها بِهمُ ظَلامُ

قَومٌ إذا استيقَظْتَهمْ ... لمكارِمِ الأخْلاقِ نَامُوا

قومٌ إذا قَعَدَ الكِرا ... مُ عَلى بِسَاطِ العِزِّ قامُوا

فَحَلالُهمْ مِنْ شُحّهمْ ... في كلِّ مَسْألةٍ حَرَامُ

قومٌ إذا اسْتَطْعَمتَهمْ ... في يَوْمِ عيْدِ الفِطْرِ صَامُوا

وواضح ما في البيت الأخير من تمحُّل تبدّى في تطلُّب الشّاعر لهذا المعنى المتكلّف.

غير أنّ هجاء الشّعراء -في هذا الجانب- كان -في أغلبه- منصبّاً على مصر، ومما

---

(١) التّلعفريّ، ديوانه: ٢٥٨.

(٢) ظافر الحدّاد، ديوانه: ١٨، ٢٢، ٢٦، ٣١، ٩٧، ومواضع غيرها.

(٣) المصدر السابق: ٢٩٣.

جاء في ذلك قول العبدوسي[1] الذي يعبّر عن شحّ أهلها ونفاقهم بهذه الأبيات[2]:

يا أهلَ مِصْرَ مَدَحتُمْ مِصْراً بلا بُرْهَانِ
وقُلْتُمُ هي عينٌ نَعَمْ بلا إنْسانِ
أرْضٌ عدِ مْنا لَدَيْها عَوارفَ الإحسانِ
وكلُّ برٍّ تَراهُ فإنّهُ في اللِّسانِ
يومَ ارتحاليَ عَنْها جَعَلتُهُ مِهْرَجَانِ

وقد تحوّل هذا الهجاء لدى شعراء آخرين إلى شعور مليء بالغيظ والكره تجاه مصر وأهلها. وذلك على نحو ما يبدو من قول التّلعفريّ الذي يدفعه مثل هذا الشّعور إلى الدّعوى لها بعدم السُّقيا والغيث[3]:

مالي ولمصرَ لا سَقَاها رَبّي غيْثاً غدقاً منْ ساريات السُّحبِ
بالرُّوحِ دَخلْتُها وبالقلبِ فلا بالرُّوحِ خَرَجْتُ لا ولا بالقَلْبِ

وامتدّ هذا الهجاء ليشمل مدناً أخرى، خارج حدود مصر والشّام؛ فقد هجا الحافظ ابن عساكر[4] مدينة نيسابور، وشكا شدّة بردها، وقلّة الأصدقاء فيها[5]. وهجا

---

(١) هو محمد بن عبدوس الواسطيّ، ولد في واسط بالعراق،و توفي في مصر سنة ٦٠١هـ. انظر: ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: ١٢.

(٢) ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: ١٤؛ وفي المعنى نفسه انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٤٤١.

(٣) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٤/ ٧١؛ وانظر مثل هذا في: ابن الساعاتيّ، ديوانه: ٢/ ٧٠.

(٤) هو علي بن الحافظ بن الحسن بن عساكر الحافظ الدمشقيّ، أحد أئمة الحديث المشهورين، من مصنفاته: تاريخ مدينة دمشق، توفي سنة ٥٧١هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): ١/ ٢٧٤؛ ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ١٣/ ٧٣.

(٥) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٣/ ٨٧.

ابن عنين مدينة بخارى بقوله[1]:

آليْتُ لا آتي بُخَارى بَـــعْدَها ولو انّها في الأَرْضِ دَارُ خُلُودِ

فَلَقَدْ حَلَلْتُ بِهَا حَنِيْفاً مُسْلِماً وَرَحَـلْتُ عَنها باعْتِقادِ يَهودي

ولعلّ هجاء ابن عُنين لهذه المدينة، كان بتأثير من غربته وأزمته النّفسيّة التي ولّدها نفيه من دولة صلاح الدّين الأيوبيّ بسبب كثرة هجائه لأرباب السّلطة فيها، حتّى لم يسلم من هذا الهجاء صلاح الدّين نفسه[2].

والمتأمّل لهذه المقطوعات الهجائيّة، يلاحظ أنّ أغلبها قد تناول فكرة واحدة هي رمي هذه المدن وسكّانها بصفة البخل. وفي هذا ما يؤكّد على أنّ دوافع هذا الهجاء كانت -في بعض الأحيان- ذاتيّة، حرّكتها أطماع الشّعراء ورغبتهم في العطاء، وإن لم يخل بعضه من مواقف ناقدة.

-٢-

وتعرّض الشّعراء -إلى جانب ذمّ المدن- لبعض المرافق العامّة؛ وبخاصّة الحمّامات التي انتشرت في هذه الفترة انتشاراً واسعاً[3]، وباتت -كما يقول أحد الدّارسين- من أبرز ما تميّزت به الحضارة الإسلاميّة[4]. وقد تناول قسم من هذا الهجاء مجموعة من مساوئ هذه الحمّامات وافتقارها للنّظافة. وذلك على نحو ما يلمس من قول أميّة بن أبي الصّلت الذي انتقد -بأسلوب ساخر- أحد هذه الحمّامات، فبدل أن يخرج منه

---

(١) ابن عنين، ديوانه: ٢١؛ وللاستزادة انظر: ١٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٠-٢١١.

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير: ٢٠٢.

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع الإسلاميّ في بلاد الشّام في عصر الحروب الصليبيّة: ٢٢١.

نظيفاً معافى كما هو مفترض، إذ به يغيّر سحنته، ويقلب لونه، حتّى غدا كأنّه من جنس آخر[1]:

حمّامُنا هَذَا أَشَـــدُّ ضُـــرُورةً ... مِمّنْ يَحـــلُّ بِهِ إلى حـــمّامِ

تَبْيضُّ ألـوانُ الوَرَى في غيْـــرِهِ ... ويُعِيْرُها هذا ثيابَ سُخَـــامِ

قدْ كُنتُ مِنْ (سَامٍ) فَحِيْنَ دَخَلْتُه ... لِشَقاءِ جَدّي ردَّني مِنْ (حَامِ)

وفي هذا الاتّجـاه ذاته، يورد ظافـر الحدّاد مـا حَـدَث معه حين أراد الذّهاب إلى الحمّام؛ طلباً للرّاحة بعدما أحسّ من تعب وكـــلال. ولكنّه مـا أن يدخـل فيه حتّى يفـاجأ بغـير مـا ظنّ، فـإذا بداخله مـا يسوء النّفس من حرّ وروائح نـــتنة كريهـة، يقول[2]:

دَخَلـتُ حمّاماً عَلى غِـرّةٍ ... لمّا دَعَاني سُوءُ حـظٍّ وحَيْـن

تـوفُّراً منّـي عَلى رَاحَـــةٍ ... أحْظَـى بها إثْرَ كـلالٍ وأيْـن

فَنِلْتُ مِنْها كلَّ ما سـاءَنـي ... مِنْ هَمٍّ نَفْـسٍ ثُمَّ إسْخَانِ عَيْن

حَرٌّ أَذابَ القَلْبَ غمّا كَمَا ... يَفْعَلُ بالعُشَّاقِ هَجْـــرٌ وَبَـيْن

. . وفرطُ نَتْنٍ كامِنٍ خِلْتُهُ ... يُطالبُ الأَنْـــفَ بثـــأرٍ وَدَيْـن

وواضح من هذا الوصف المسهب الذي أورده الشّاعر بهذه الطّريقة الهازئة، سوء حال بعض هذه الحمّامات التي كانت تفتقد إلى أدنى شروط الصّحة العامّة.

---

(١) أميّة بن أبي الصّلت، ديوانه: ١٤٤؛ وتنسب الأبيات -كذلك- للنّاجي المصريّ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): ٢/١٠٣.

(٢) ظافر الحدّاد، ديوانه: ٣٠١؛ وفي المعنى نفسه انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/٣٠٧، ٣/٩١.

أمّا القسم الآخر من هذا الهجاء، فقد تناول بالنّقد والسّخرية القائمين على هذه الحمّامات ، أو ما كان يطلق عليه اسم «الحمّاميّ»، وهي مهنة عرفت وشاعت في ذلك الزّمن. ومن الأمثلة الطّريفة في هذا المجال، ما قاله زكي الدّين بن أبي الإصبع[1] في أحد هؤلاء ، حين يصوّر المعاناة التي لاقاها من ذلك القيِّم الذي افتقر عمله لكلّ لطف ولين[2]:

وَقَيِّمٍ كَلّمَتْ جِسْمـــي أَنامِـلُهُ بِغَيْـرِ أَلْسِنَةٍ تَكْلِـيْمَ خُرصَـانِ[3]

إنْ أَمْسَكَ اليدَ منّي كادَ يَخْلَعُها أَوْ سَرَّحَ الشَّعَر بَعْدَ الغَسْلِ أَبْكَانِـي

فَلَيْسَ يُمْسِكُ بالمعْرُوفِ مِنْهُ يَداً وَلا يُسرِّحُ تسْـــرِيْحاً بإحْسَـانِ

-٣-

ونستطيع أن ندخل في هذا الإطار ، ذمّ الشّعراء لمنازلهم وأماكن سكناهم. ولهذا الشّعر أهميّة خاصّة؛ إذ يمكن -من خلاله- أن يتعرّف الدّارس أحوال بعض الشّعراء، وما كانوا يعانون من فقر وبؤس حال. وهو أمر سيكون له -بالتّالي- انعكاسه على هذا الشّعر الذي ينتجون، ولذلك فليس غريباً أن تكثر نغمة الشّكوى والحزن -كما سيتّضح بعد- لدى عدد من الشّعراء الذين كانوا ضحيّة لمثل هذه الأوضاع الاجتماعيّة القاسية. ولا بدّ أن يدرك أنّ هذا الوضع ليس مقتصراً على الشّعراء وحدهم، وإنّما هو يشمل -دون ريب- قطاعات اجتماعيّة أخرى، ممّن كانت ظروفهم معدمة كظروف هؤلاء الشّعراء.

---

(١) هو عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر المصري، شاعر ومصنّف ، توفي في مصر سنة ٦٥٤هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٣٦٣.

(٢) الكتبيّ ، فوات الوفيات: ٢/ ٣٦٥.

(٣) الخرصان: الرّمح.

وقد اقترن هذا الهجاء -في الغالب- بالسّخرية والتّهكّم، فصوّر الشّعراء منازلهم تصويراً ساخراً بيّن سوء أوضاعها الصّحيّة، وخلوّها من أبسط مستلزمات الحياة الكريمة، وقرنوا كلّ هذا بما كانوا يكابدون من تعاسة وشظف عيش. ومن الصّور المضحكة المبكية في هذا المجال ما قاله ابن مكنسة في وصف قُبح منزله وما كان يعانيه فيه من قسوة وسوء إقامة[1]:

لِيَ بيْتٌ كأنَّهُ بَيْتُ شِعْرٍ ... لابنِ حجّاج مِنْ قَصيْدٍ سَخِيْفِ

ضَايَقَتني بناتُ وردان حتّى ... أنا فيهِ كَفَارَةٍ في كَنِيْفِ

أَيْنَ للعَنْكَبُوتِ بيْتٌ ضَعيْفٌ ... مِثْلُهُ وهو مثْلُ عَقْلِ الضّعِيفِ

بُقْعةٌ صَدَّ مَطْلَعُ الشّمسِ عنها ... فأنا مُذْ سَكَنْتُها في الكُسُوْفِ

والأبيات تشفّ عن إحساس مؤثّر، تبدّت -من خلاله- شدّة وطأة هذا الواقع البائس الذي كان يعيشه ابن مكنسة. وقد كان لاعتمادها على روح الدّعابة والنّكتة أثر في تقريبها من نفس القارئ، إضافة إلى ما تتسم به من بساطة وعفويّة ظاهرتين.

أما ابن دانيال الموصليّ، فيفصّل القول في هجاء منزله تفصيلاً، ويقلّبه على غير ما وجه في قصيدة طويلة، تناول فيها تفاهة مقتنيات هذا المنزل التي تنبي عن شدّة فقر صاحبه، حيث لم يبق منها إلا رسوم حصيرة ومخدّة باليتين، ذاكراً ما كان يعجّ في أرض هذا المنزل من حشرات وحيوانات متعدّدة، بدت أشبه ما تكون بجيوش متطاحنة لا يهدأ لها بال، ناقلاً ذلك بصور مضحكة، ولكنّها واقعيّة انتقى أغلبها من محيطه

---

(١) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): ٢/ ٢١١.

القريب ، ومنها قوله[1]:

. . . وتَرى بَراغيثاً بجِسمي عُلِّقتْ مِثْلَ المحَاجمِ في المساءِ وفي الغَدِ

وكَذا البَعوضُ يطيْرُ وهو بـريشـهِ فمتى تمكّـنَ فَوقَ عِرْقٍ يَفْـصُدِ

وتَـرى الخنافسَ كالزّنـوج تصفّفَتْ مِنْ كلِّ سوداءِ الأديـمِ وأَسْـودِ

ولربّما قُرِنَتْ بجَمْـعِ عَقـاربٍ قتّـالةٍ قـدرَ الحمـام الرُّكّـدِ

وليس غريباً - إن كان حال منزله على ما وصف- أن نجده متبرّماً منزعجاً من هذا المسكن الذي يشبّهه بالقبر، بل لقد بدا القبر لديه أهنأ مسكناً منه؛ ذلك لأنّه يرى في القبر خلاصاً له من هذا الواقع القاسي[2]:

في مَنْزلٍ كالقَبرِ كَمْ قَدْ شاهَدتْ فِـيْهِ نكيْـرَا مُقْلـتاي ومُنْكَرا

لو لَمْ يكُنْ قَبْراً لما أَمسيْتُ نسياً فِـيْهِ حتّـى أنّنـي لـمْ أُذكَـرا

والقبرُ أَهنأُ مسْكِـناً إذْ لمْ أكُـنْ مـع ضيـقِ سُكْنَاهُ أُطالـبُ بالكَرَى

***

هـ- مظاهر أخرى:

-١-

شكوى ومعاناة: والشّكوى نتيجة حتميّة لسوء الأوضاع التي عاينها الشّعراء في مجتمعهم. وقد تمثّلت هذه الشّكوى في غير ما صورة؛ فهناك من بلغ به التّشاؤم مداه، فهجا الزّمان كلّه، وكأنّ بوادر الأمل قد توارت، حتّى لم يُر في هذا الوجود ما يبهج

---

(١) ابن دانيال، المختار من شعره: ١٥٥؛ وانظر في المعنى نفسه: ظافر الحدّاد، ديوانه: ٢٢٤، ٢٤٢؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/٨٩-٩١.

(٢) ابن دانيال، المختار من شعره: ١٥٢.

النّفس. ولا شكّ أنّ مثل هذا الشّعور متأثّر -إلى حدّ ما- بعاطفة الشّاعر المتأجّجة التي غلبت على نظرته الموضوعيّة. ولكنّه -مع كلّ هذا- يكشف عن شيءٍ من تعاسة الواقع وسوداويّته التي دفعت -أصلاً- إلى مثل هذا الموقف المتطرّف منه. ومن الأمثلة على هذا قول أسامة بن منقذ الذي يرى أنّ الضّرّ في زمنه قد انتشر وعمّ النّاس جميعاً، فبدا كاللّيل الذي يغشى البريّة كلّها[1]:

الضّرُّ في أيّـامِنا هـذه ... كاللّيلِ يَغْشى سائرَ النّاسِ

وكلُّهُمْ راضٍ وَفَوقَ الرِّضا ... بِبُلْغَةِ الـطّاعمِ والكاسي

ودونَ ما يَرجُونَهُ مانِـعٌ ... يَلْقَى وجُوْهَ النّاسِ باليـاسِ

فالشّاعر -كما يبدو من أبياته السّابقة- يجسّد حالة من اليأس واللامبالاة يعيشها النّاس في أيّامهم تلك؛ فهم راضون بواقعهم رضا المضطر المكره، فبين "ما يرجونه" و "ما يتمنّونه" موانع ومثبّطات. ولعلّ لموقف أُسامة هذا ما يسوّغه، وبخاصّة إذا استذكرنا الجانب الشّخصيّ من حياته، وما تخلّله من آلام وأحزان[2].

ومن صور الشّكوى في هذا الشّعر، الشّكوى من النّاس، ومن سوء أفعالهم وصفاتهم. وهي حالة ليست مقتصرة على عصر دون آخر، إذ إنّها تكاد تتكرّر في كلّ زمان. ولكنّ حدّتها وقوّتها تختلف من وقت لآخر، تبعاً لظروف كلّ مرحلة وأحوالها. وقد تنامت هذه الشّكوى وانتشرت في هذه الفترة بصورة واضحة، وكلّ ذلك مرتبط -في رأيي- بظروف هذا العصر وأحواله المضطربة، سواء ما كان منها متعلّقاً بالوضع

---

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه: ٣٠٢.

(٢) لمعاينة هذا الجانب من شخصيّة أُسامة انظر: حلمي الكيلاني، الغربة في شعر أسامة بن منقذ، مجلة مؤتة للبحوث والدّراسات، م٨، ع٢، جامعة مؤتة، ١٩٩٣م: ٦٩-١١٨؛ شفيق الرقب، ظاهرة الحزن في شعر أسامة بن منقذ، مجلّة دراسات، العلوم الإنسانيّة والاجتماعية، م٢٤، ع٢، الجامعة الأردنية، ١٩٩٧م: ٤٥٩-٤٧٩.

الدّاخليّ أو الخارجيّ، على نحو ما اتّضح في مدخل هذه الدّراسة.

ومن النّماذج على هذا المعنى، أبيات لمعين الدّين بن تولوا[1]، عبّر فيها عن عدم ثقته بالنّاس، لقلّة مكارمهم وزيفها، واستشراء البخل بين صفوفهم، يقول[2]:

أمّا السَّماحُ فقدْ أفْوتْ مَعَالِمُهُ ... فَمَا على الأرضِ مَنْ تُرْجَى مكارمُهُ

فلا يَغُرّنْكَ منْ تَلْقَاهُ مُبْتَسِماً ... فَطَالما غَرّ برقٌ أنتَ شائمُهُ

لا تُتعِبِ النَّفْسَ في اسْتِخْلاصِ راحتِها ... مِنْ باخِلٍ لؤمُهُ في الجُودِ لائمُهُ

أخى المذلّةَ إعْزَازاً لِدِرْهَمِهِ ... وَيَصْحَبُ الذُّلَّ مَنْ عَزّتْ دَرَاهِمُهُ

وبلغ التّشاؤم حدّه لدى مجير الدّين بن تميم[3] الذي افتقد الخير في كلّ النّاس، بل لقد طالت هذه الدّرجة من عدم الثّقة نفسه لم يبرئها هي الأخرى مما اتّهم به الآخرين[4]:

لَكَ الخَيرُ كَمْ صَاحَبْتُ في النّاسِ صَاحِباً ... فما نالَني مِنْهُ سوى الهمِّ والعَنَا

وَجَرّبتُ أَبْنَاءَ الزَّمانِ فلمْ أجدْ ... فَتَىً مِنْهُمُ عندَ المضيْقِ ولا أنا

وكان من النّتائج المترتّبة على هذا الاتّجاه، أنْ دعا بعض الشُّعراء إلى العزلة، واجتناب الاختلاط بالنّاس. وذلك على نحو ما يبدو -مثلاً- من قول أميّة بن أبي

---

(١) هو عثمان بن سعيد بن عبدالرّحمن ، شاعر مصريّ، توفي سنة ٦٨٥هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٤٤٠.

(٢) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٤٤١؛ وفي المعنى نفسه انظر: البهاء زهير، ديوانه: ١٤١؛ العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): ٢/ ١٩٣.

(٣) هو محمد بن يعقوب بن علي، مجير الدين بن تميم الإسعرديّ، سكن حماة وتوفي بها سنة ٦٨٤هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ٤/ ٥٤.

(٤) الصّفديّ، الغيث المسجم: ٢/ ٣٥٠.

الصّلت الذي يفضّل لزوم بيـــته وحـــيداً؛ لأن سعادته وراحته -كما يرى- تتحقّق في ذلك[1]:

لـمّا رَأيتُ النّاسَ قدْ أصْبَحتْ صُدُوْرُهُمْ بالغلِّ مَغْشُوشَـهْ

وكلّ مَـنْ أحبَبْـــتُهُ مِنْهُـــمُ مُنْقَلب العَـهْدِ ولا الرِّيْشَهْ

لزِمْـــتُ بَيْتـي وَتَجنّبْـتُهُم فـصرْتُ منْ أطْيَبِهِم عِيْشَهْ

ومن الواضح أنّ مثل هذا الموقف، يحمل مضموناً سلبيّاً، يدعو إلى التّواكل والهروب من الواقع ومواجهته.

وامتدّت شكوى الشّعراء -في هذا المجال- لتصل إلى أنفسهم؛ فتناولوا ظروفهم القاسية، وأحوالهم المعيشيّة الصّعبة. وكان الفقر هو المعنى الأكثر تردّداً في هذا السّياق؛ فابن دانيال -مثلاً- يصوّر تعاسة حاله التي تمثّلت في سوء مظهره، ورثاثة ثيابه، ويقرن كلّ هذا بفقر أولاده ومعاناتهم من العوز والجوع، يقول[2]:

لي جِـــبَّةٌ فَنِيَـــتْ ممّا أنشـــيّها ومـــا أُخيِّطُـــها إلا بأشْـــراسِ[3]

ورثّ شَاشي[4] حتّى ظنَّ مُبصِـرُهُ أنّ العناكبَ قدْ سَدّتْ على راسـي

ولي عيالٌ بهمْ قدْ عِيْلَ مُصْطبَـري وصِرْتُ للهمِّ فيهمْ مثلَ بُرْجاسِ[5]

يسعونَ حَوالِيَ كالجُرذانِ منْ سَغَبٍ مقـــرَّضينَ بأنيـــابٍ وأضـــراسِ

---

(١) أميّة بن أبي الصّلت، ديوانه: ١٣٢؛ وللاستزادة انظر نفسه: ١٤٣

(٢) ابن دانيال، المختار من شعره: ٧٢-٧٣.

(٣) الأشراس: ما صغر من الشوك.

(٤) الشاش: نسيج رقيق يستعمل لفافة للعمامة.

(٥) البُرْجاس: هدف ينصب على رمح أو سارية.

معظمها بسخرية لاذعة. من ذلك قوله متحدّثاً عن نفسه بضمير الغائب الذي كان لاستخدامه أثر في تعميق مأساويّة المشهد؛ فكأنّه يتحدّث عن شخصٍ مغيَّب لا أثر فاعلاً له، يقول[1]:

ولا تغرّنّكَ منهُ جُـوْخَـةٌ فصَّـلها وَهوَ عَليـها نَادِمُ

كمْ أَعْجَبَتْهُ نفسُه فيها إلـى أنْ نَفِدَتْ منْ كُمِّه الدّراهِمُ

وبيعُها في البَرْدِ غيرُ مُمكنٍ ورَهْنُها لا يَرْتضِـيْهِ الحـازمُ

ومنه قوله في وصف جانب من همومه التي كان للشّتاء بمتطلباته وأعبائه الثّقيلة، وكساد سوق الشّعر، وسوء حال مهنة الجزارة، أثرها في زيادة بؤسه وحرمانه[2]:

أصبحتُ في أمري ولا أَشْكُو لِغَيرِ الـلّه حَـائـرْ

ولكَمْ يُذكّرُني الشّـتا ءُ بأَمْرِه ولَـكَمْ أُكـاسِـرْ

واللّحمُ يَقْبُحُ أنْ أعـو دَ لبـيْعِه والـشّـعـرُ بائِرْ

يا ليْتَني لا كُنْـتُ جَزْ زَاراً ولا أَصْبحتُ شاعِـرْ

-٢-

انقلاب قيم: رصد الشّعراء في هذا الجانب بعضاً من أوجه المتناقضات في مجتمعاتهم، فعبّروا عمّا كان يسود منظومة القيم الاجتماعيّة من خلل واضطراب؛ فقد ساء أُسامة بن منقذ -مثلا- أن يرى تضاؤل شأن "ذوي الفضل" واستعلاء أمر "ذوي

---

(١) ابن سعيد الأندلسيّ، المغرب في حلى المغرب (القسم الخاصّ بمصر): ٣٠٣؛وللاستزادة انظر نفسه: ٣٠٠، ٣١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٣٣١.

النّقصان" كما يصفهم[1]:

زهّدني في العَـقْلِ أنّـي أرَى عِـنَايـةَ الأيّـام بالجَـهْلِ

والدَّهرُ كالمِيْزَانِ: ذو الفَضْلِ يَنْـ ـحطُّ، وذو النّـقصَانِ يَسْتَعْلي

وعلى ما في قول أُسامة من تجسيد لمدى التناقض بين الواقع والمثال في زمنه ذاك، فـإنّه يشفّ عن منزع عـاطفيّ، قـد يتكرّر على لسـان كل من لم يرقـه واقع الحـال؛ لإحساسه بنكد الحظّ، وسوء التّقدير.

ويسوق ابن الفرّاش[2] جملة من المتقابلات، مقارناً -بصورة غير مباشرة- بين سوء الأحوال السّائدة، وما يتمنّى أن يكون عليه واقع الحال فعلاً[3]:

فَـتَبّاً لِـدَهرٍ يُعـزُّ اللّـئام وَقَدْرُ الـكرَامِ بهِ مُـطَّرَحْ

ذلولٌ إذا ما امتـطاهُ الجَهُـولُ وما رامَهُ الحُـرُّ إلا جَمَـحْ

لقَدْ شَاهَ في النّاسِ وَجْهُ القريضِ وَلَمْ يبقَ في دَهْرِنا مُمْـتدَحْ

وقَدْ طُمِسَتْ أوْجُـهُ المُكـرَمات وقَدْ عُطِّلتْ هُجْنُهَا والصُّرُحْ

غير أنّ الشّاعر قد أبان عن مكنون نفسه، حين كشف عن أسباب نقمته التي بدت في البيت الثّالث بوضوح.

وممّن نقد هذه الظّاهرة مجير الدين بن اللمطيّ الذي يشير -بسخرية- إلى مقاييس التّفاضل بين فرد وآخر في عُرْف نفر من أبناء مجتمعه؛ فيرى أنّها مقاييس مغلوطة، تقيّم الشّخص بمظهره ولباسه، لا بجوهره وعلمه؛ فالجاهل مقدّم لأنّه غنيّ، والعالم

---

(١) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٣٠٨.

(٢) هو القاضي شمس الدين أبو عبدالله محمّد بن محمّد، شاعر دمشقيّ، عمل في خدمة نور الدّين زنكي، ومن بعده صلاح الدين. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): ١/ ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٢٩٣.

مؤخّر ومنبوذ لأنّه لا يمتلك شيئاً[1]:

أُعيذُكَ إنّ القومَ من كَانَ فِيْهِمُ ... فَقِيْراً رَمَوْهُ بالقطيعةِ والهَجْرِ

وعَدُّوهُ ذا نَقْصٍ وإنْ كانَ كاملاً ... وغُودِرَ فيما بيْنَهُمْ خَامِلَ الذِّكْرِ

وقدْ أَصبحَ المَرْمُوقُ فيْهم بِسُؤدُدٍ ... وَرِفْعَةِ قدْرٍ في الوجُود هو المُثْري

وإن كانَ ذا جَهْلٍ وجُبْنٍ وخِسّةٍ ... وتَلكَ وبيْتِ اللّه قاصِمةُ الظّهْرِ

ولا يختلف موقف ابن دقيق العيد عن هذا ، فنجده يشكو من الإجحاف الذي لحق بأهل العلم، وما كانوا يلاقونه من زراية وإهمال على يد بعض أصحاب المناصب والمتنفّذين الذين ربّما عاملوهم بهذه الطّريقة لشعورهم بضآلة قدرهم أمام من هو أكثر منهم علماً ومعرفة[2]:

أهلُ المناصبِ في الدُّنيا وَرِفْعَتِها ... أَهلُ الفَضَائِل مَرْذُولُونَ بيْنَهمُ

قدْ أَنْزَلُونا لأنّا غَيْرُ جِنْسِهِم ... منازلَ الوَحْشِ في الإهمالِ عِنْدَهمُ

فما لهمْ في توقّي ضُرّنا نظرٌ ... وَ مَا لَهُمْ في تَوقّي قدْرِنا هِمَمُ

فليْتَنا لوْ قَدرنا أنْ نُعرِّفَهُمْ ... مِقْدَارَهم عندنا أو لو دروهُ هُمُ

لهم مُريحانِ من جَهْلٍ وفَرْط غنىً ... وعندنا المُتْعبان العِلْمُ والعَدَمُ

على أنّ مثل هذه النّماذج الشعريّة، لا بّد أن تؤخذ بقدر من التحفّظ، إذ لا يصحّ أن تقبل على إطلاقها، فلم تكن الحال كلّها -كما يستبان من بعض المصادر التاريخيّة- على مثل هذا السّوء، وهذه السّوداويّة؛ فقد لقي العلم والعلماء -على طول هذه الفترة- كثيراً من التّقدير والاحترام وحسن الرعاية[3].

---

(١) الأدفويّ، الطّالع السّعيد: ٤٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ٥٩٢.

(٣) حول ذلك انظر مثلاً: ابن الأثير، الباهر: ١٧١-١٧٣؛ ابن شدّاد، النوادر السلطانية: ٣١.

أمراض اجتماعيّة: يستدلُّ من بعض المصادر أنّ بعض المنكرات والمعاصي كانت متفشّية بين بعض قطاعات المجتمع؛ فقد ذكر ابن إياس -مثلاً- أنّه في سنة ٦٦٥هـ" أمر السّلطان (الظّاهر بيبرس) بإبطال ضمان الحشيشة وإحراقها، وأخرب بيوت المسكرات، وكسر ما فيها من الخمور وأراقها، ومنع الحانات من الخواطيء واستتوب العلوق واللواطي، وعمّ هذا الأمر سائر جهات الدّيار المصريّة، وبرزت المراسيم الشّريفة بمنع ذلك من سائر الجهات بالبلاد الشّاميّة، فطهّرت في أيّامه سائر البقاع، وامتنع الناس من ذلك غاية الامتناع"[١]. وفي صدور مثل هذا المرسوم السُّلطانيّ دلالة صريحة على ما وصلت إليه الحال -في بعض الأحيان- من تردّ وسوء. ومن الملاحظ أنّ هذا التّيار المجونيّ بدأ يتزايد -بصورة واضحة- منذ بداية العصر المملوكي[٢].

وقد وجد انتشار مثل هذه الظّواهر السّلبيّة صدى في شعر الهجاء. وأولى هذه المنكرات التي سجّلها الشّعر تعاطي الحشيش والإدمان عليه. وقد بدا شيءٌ من هذا عند الحديث عن انحرافات المتصوِّفة. غير أنّ الأمر تعدّى ذلك؛ إذ وُجِدت هذه الظّاهرة بين طبقات اجتماعية مختلفة من جملتها الفئات الفقيرة التي ربما أقبلت عليها نظراً لرخص سعرها[٣]، أو ربما كان ذلك بدافع من ظروفها المعيشيّة القاسية في محاولة للهروب من مرارة الواقع أو تناسيه. وقد عبّر الشّاب الظّريف[٤] عن جانب من هذا الواقع حين صوّر

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدّهور: ج١، ق١، ٣٢٦.

(٢) لمزيد من التّفاصيل حول هذا الجانب، انظر: سعيد عاشور، المجتمع المصريّ في عصر سلاطين المماليك، ط١، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٩٦٢م: ٢٢٥-٢٣٣.

(٣) فوزي محمدأمين، أدب العصر المملوكيّ الأوّل: ٣٥١.

(٤) هو محمد بن سليمان بن علي التلمسانيّ، المعروف بالشّاب الظّريف، توفي في دمشق سنة ٦٨٨هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ٣٧٢؛ ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة: ٧/ ٣٨١.

ما تركته هذه الحشيشة في هؤلاء الفقراء من أضرار بالغة، بهذين البيتين اللذين كانا إلى لغة النثر المباشرة أقرب منهما إلى لغة الشّعر[1]:

هذا الفـــقيرُ الّذي تراه　　كالفرْخِ مُلْقَىً بِغَيْرِ رِيْشِ

قدْ قَتَلَتْهُ الحشيشُ سُكْراً　　والقتلُ منْ عادَةِ الحشيشِ

وممّن بيّن أضرار الحشيشة، على نحو أكثر تفصيلاً، النّور الإسعرديّ[2] الذي يقول في معرض أبيات يفضّل فيها الخمر على الحشيش[3]:

. . . حَشيْشَتُهُمْ تَكسُو المهيبَ مَهَانَةً　　فَتَـــلْقاهُ مثْـــلَ القاتل المُتعمّد

ويبدُو على خدّيه مثلُ اخضـــارِها　　فيضحي بِوَجْهٍ مُظْلِمِ اللّونِ أرْبَدِ

وَتُفْسدُ منْ ذِهْنِ الـــنّديمِ خَـــيَالَهُ　　فَيَنْظُرُ مبيضَّ الصَّبـــاحِ كأسْـوَدِ

وعلى الرّغم من أنّ هذه الأبيـات جـاءت على سـبيل الفكاهة والدّعـابة، حـيث يذهب في أبيات سابقة إلى تفضيل الحشيش على الخمر[4]، إلا أنّها تعبّر -مع ذلك- عن انتشار هذه العادة ، واستفحال أمرها بين بعض أفراد المجتمع آنذاك.

ومن الظّواهر التي انتقـدها الشّعـر ، تفشّي بعض الموبقات من انحـلال وشـذوذ ومجون، وقدفصّل الشّاب الظّريف -في قصيدة طويلة- القول في ضروب مختلفة من مظاهر الفساد والانحلال في مجتمعه[5]. وأسهب ابن دانيال في ذكر صور من اللهو

---

(١) الشّاب الظّريف، ديوانه، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط١، مكتبة النّهضة العربية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م: ٣٣؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: ١٠١.

(٢) هو محمد بن عبدالعزيز بن رستم الإسعرديّ، كان من شعراء الملك الأيوبيّ النّاصر، توفي سنة ٦٥٦هـ. انظر الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ٢٧١.

(٣) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ٢٧٥؛ وفي هذا المعنى انظر: المصدر نفسه: ١/ ١٥٢.

(٤) المصدر نفسه: ٣/ ٢٧٣-٢٧٤.

(٥) الشّاب الظّريف، ديوانه: ١١٥-١١٦.

والمجون في أبيات قالها بعدما أصدر الظّاهر بيبرس -كما ذكر- مرسوماً بإبطال المنكرات في مملكته، فقدّم وصفاً دقيقاً لإراقة الخمور، وتعطيل الحانات وإغلاق بيوت الدّعارة، ومما قاله فيها واصفاً وقع هذا الأمر على نفر من الخلعاء ممّن لم يطب لهم مثل هذا الإجراء[1]:

. . . وذوو القَصْفِ ذاهِلُونَ وَقَدْ كَادَ تْ عَلَى سلّها تسيلُ النُّفُوسُ

كمْ خَليعٍ يَقُوْلُ ذا اليَومُ يومٌ مثلما قِيْلَ قمْطَرِيْرٌ عَبُوْسُ

وظهرت -كذلك- صور من الشّذوذ الجنسيّ، بين الرِّجال والنّساء على حدّ سواء، وذلك على نحو ما يبدو -مثلاً- من قول سيف الدّين المشد[2]:

بَطَلَ التّناسلُ في الوَرَى بَيْنَ اللِّياطَةِ والسّحَاقَهْ

وَغَدَا الّذي لا يَرْتَضِي هَذِيْن مِنْ أَهْلِ الحَمَاقَهْ

---

(١) ابن دانيال، المختار من شعره: ١١٢.

(٢) سيف الدين المشد، عمر بن قزل (ت٦٥٦هـ)، ديوانه (ميكروفيلم) رقم ٨٣٣، الجامعة الأردنية: ٤٩؛ وسيف الدين المشد هو: علي بن عمر بن قزل المشد ولد في مصر سنة ٦٠٢هـ، وتوفي في دمشق سنة ٦٥٦هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ٥١.

الفصل الثالث
الهجاء السِّياسيّ

أولاً: في الصّـراع الدّاخليّ:

أ- نزعة تعميميّة

ب- هجاء أمراء الشّام

جـ- شعر الهجاء والدّولة الفاطميّة.

ثانياً: في الصّـراع الخارجيّ:

أ- هجاء الفرنجة.

ب- هجاء التتار.

يتضمن شعر الهجاء السّياسيّ في هذه الدّراسة جانبين رئيسين :

أوّلهما : يتناول الصّراعات السّياسيّة الدّاخليّة التي شهدتها مصر والشّام في هذه الفترة، والمتمثّلة في بعض الحركات المناوئة لخطّ السّياسة العامّ؛ كانشقاقات أُمراء الشّام، ومحاولاتهم الرّامية إلى الانفصال في عهد كلٌّ من نور الدّين وصلاح الدّين. وتتمثّل -كذلك- في الصّراعات التي شهدتها السّاحة المصريّة في أواخر عهد الدّولة الفاطميّة، وما كان يتخلّلها من نزاعات دامية في سبيل الاستئثار بالحكم .

وثانيهما : يتناول الصّراع الخارجيّ الذي تمثّل -تحديداً- في الصّراع مع الصّليبيين. وتناول هذا المحور يشكّل أهميّة بالغة نظراً لخطورة هذا الصّراع وما تركه على المنطقة من آثار جسيمة ٠

ولا بدّ من التّنبيه إلى أنّني لم أقصد أن أُقدّم في هذا الفصل عرضاً مُفصّلاً لصورة الحياة السّياسيّة كما انعكست ملامحها في شعر هذه الفترة؛ فهذا مما لا يتوافق وخطّة البحث المرسومة. كما أنّ شعر الهجاء لا يمكنه أن يقوم وحده بمثل هذا المطلب. وإنّما هدفت من ذلك إلى الوقوف عند بعض النّصوص الشّعريّة الرّافضة والنّاقدة لبعض المواقف السّياسيّة التي لم ترق الشّعراء؛ فعبّروا -بطريقة أو بأُخرى- عن رفضهم واستهجانهم لها ٠

***

أوّلاً : في الصّراع الدّاخليّ :

أ- نزعة تعميميّة :

-١-

اتّخذ جانب من شعر الهجاء السّياسيّ في مصر والشّام زمن الحروب الصّليبيّة

طابعاً تعـميـميّاً، لجأ الشُّعراء من خلاله إلى انتقـاد الأوضـاع السّياسيّة القـائمة في البلاد، دون اللجوء إلى تخصيص حادثة بعينها، أو التّعريض بأشخاص باسمهم. ومن الأمثلة على هذا المنحى أبيات لابن القـلانسيّ[1] صوّر فيها حالة الضّعف والتفكّك التي آلت إليـها أوضاع الشّام عـقب مقتل عـماد الدّين زنكي سنة ٥٤١هـ[2]. وهي حـالة مصدرها -حسب الشّاعر- العبث بمقدرات الدّولة، ونـهب أموالها، وتفرُّق كلمة أمراء البلاد لاختلاف مآربهم وغاياتهم[3]:

. . وأَضْحتْ بُيُوتُ المالِ نَهْبَى لغَيْرِه ... يُمـــزِّقُها أَبْنَـــاؤه ومــظَالِــمُهْ

فَلمّا تـــولّى قَـــامَ كلُّ مُخـــالِـفٍ ... وشامَ[4] حُسَاماً لَمْ يَجُدْ وهو شائمُـهْ

وأطْلَقَ مَـنْ في أَسْـــرِهِ وحُبُوسِـــهِ ... وفُكّتْ عَنِ الأَقْدَامِ مِـــنْهُ أَدَاهِمُهْ

وعـــادَ إلى أَوطَـــانِه بَعْـــدَ خَوْفِه ... وطابَتْ لَهُ بَعْدَ السّغـوب[5] مَطَاعِمُه

والأبيات طويلة تضمّن القسم الأكبر منها رثاءً حاراً لعماد الدّين، وتعداداً لمآثره ومناقبه المتمثّلة في عدله وجهاده وقوّة بأسه في ردع أعداء الدّين.

وعبّر ظهير الدّين السّمرقنديّ[6] - على الرّغم مما يبدوفي قوله من سلبيّة وعدم

---

(١) هو حمزة بن أسد بن علي أبو يعلى التّميميّ الدّمشقيّ (-٥٥٥هـ)، أديب ومترسّل، صاحب كتاب «ذيل تاريخ دمشق» . انظر: ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة: ٥/ ٣٣٢.

(٢) أبو شامة، كتاب الروضتين: ١/ ١٥٤ وما بعدها.

(٣) ابن القلانسيّ، تاريخ دمشق: ٤٤٨.

(٤) شام الحُسام: سلّه.

(٥) سغَب: سَغْباً وسُغوباً: جاع بعد تعب.

(٦) هو أبو بكر أحمد بن علي البلخي السّمرقنديّ، المعروف بالظّهير، قدم حلب في أيّام نور الدّين ، توفي في دمشق سنة ٥٥٣هـ. انظر: ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت٦٦٠هـ)، بغية الطّلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٨م: ١/ ٤٣٤١.

مبالاة بما يجري -عن سوء أحوال الشّام واضطراب أوضاعها التي يبدو الظّاهر منها بخلاف المستور[1]:

الشّامُ كامرأةٍ لَهادلٌ، بها شُغِفَ الرِّجالُ وإنّها حَسْنَاءُ

فاقْنَعْ بذاكَ وخلِّها بِقناعِها لا تكشفَنَّ، فإنّها قَرْعَاءُ

وتبدّت في هذا الهجاء التّعميميّ صور من الشّكوى والاستياء؛ وذلك على نحو ما يبدو-مثلاً- من قول أبي المجد المعري[2] الذي يُعبِّر -في وقت مبكّر نسبيّاً من هذه الفترة- عن تردّي الواقع السّياسيّ نتيجة تسلُّط بعض العناصر، وتمكّنها من أمر النّاس[3]:

زَمانٌ غاضَ أهلُ الفَضْل فيهِ فَسُقْيا للحِمامِ بهِ وَرُعْيا

أسارى بَيْنَ أتْراكٍ وروم وفَقْدِ أحبّةٍ ورِفَاقِ شعْيَا[4]

وظلّت نغمة الاستياء هذه تلازم شعر هذا العصر حتى مرحلة متأخّرة؛ فهذا -مثلاً- البهاء زهير الذي عاصر أواخر عهد الدّولة الأيوبيّة (وهي فترة تميّزت بكثرة صراعاتها ونزاعاتها المتجدّدة كما سيتّضح في هذا الشّعر لاحقاً)، والسّنوات الأولى من حكم المماليك، يعبِّر عمّا كان يخالجه من شعور تجاه واقع البلاد السّياسيّ بقوله[5]:

دَوْلة كَمْ قَدْ سَألْنا ربَّنا التَّعويضَ عَنْها

---

(١) المصدر السابق: ١٠/ ٤٣٤٢.

(٢) هو القاضي أبو المجد محمد بن عبدالله بن محمد بن أبي المجد المعريّ (-٥٢٣هـ). انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): ٢/ ٧.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشّام): ٢/ ١١.

(٤) رِفاق: مصدر رافقه في السفر. وشَعْيا هو غلام أبي المجد (الشاعر) انظر: المصدر نفسه.

(٥) البهاء زهير، ديوانه: ٢٨٨.

وفَرِحْنا حِيْنَ زَالَتْ جاءَنا أنْحسُ منْها

-٢-

وقد اتّخذت هذه النّزعة التّعميميّة في الهجاء السّياسي -إلى جانب ما سبق- صوراً من المقارنة التي كشف استحضارها عن سياسة بعض الحكّام المتوانين عن الجهاد. فثمّة -كما يتّضح من الشّواهد الشّعريّة- نموذجان من الحكّام: نموذج الحاكم المجاهد التّقيّ، ونموذج الحاكم المتخاذل. ومن الواضح أنّ الإشادة بالنّموذج الإيجابيّ والوقوف عند منجزاته، تمكّن الشّاعر -على نحو بيّن- من نقد النّموذج الآخر، وكشف مساوئه. وقد ساعد على استدعاء هذه الصّور من المقابلة، ظهور أبطال المسلمين الكبار في هذه الفترة، من أمثال عماد الدّين زنكي، وابنه نور الدّين، وصلاح الدّين الأيوبيّ.

فحين تزعّم عماد الدّين حركة الجهاد في بلاد الشّام والجزيرة الفراتيّة، وحمل على عاتقه عبء تنظيم قوى البلاد لمقاومة الوجود الصّليبيّ المتفاقم[1]. أخذ الشُّعراء -بدافع من هذا الواقع المبشِّر- يقارنون بين هذا البطل المجاهد، وغيره من حكّام عصره، دون أنْ يعيّنوهم أو يخصّصوا واحداً منهم بالاسم. ومن النّماذج على هذا التوجّه ما قاله ابن منير الطّرابلسيّ مخاطباً عماد الدّين من قصيدة أنشده إيّاها سنة ٥٤٠هـ، يهنّئه بالعافية من مرض ألمّ به؛ مصوّراً مقدار التّمايز والخلف بينه وبين غيره من الملوك[2]:

ملوك أطرافِ حمى أطرافَها عَزْمُكَ هذا اللاحق السَّباقُ

لو لمْ ترق ماءً كرى العين لَمَا ساغَتْ بأفواههم الأرْياقُ

---

(١) حول دور عماد الدّين زنكي في هذا الجانب انظر مثلا: ابن الأثير، التاريخ الباهر: ٣٢ وما بعدها؛ فايد حمّاد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية(العصر الفاطميّ والسلجوقي والزّنكيّ): ١٧٩-٢٠٤.

(٢) ابن منير، ديوانه: ٢٠٢.

شققْتَ منْ دونهِمْ مَوْجَ الرّدى وشــقَّ أكبادَهُــمُ الشّـقـاقُ

أُقسمُ: لوْ كلّفتَهُمْ أن يَسْمعُوا حدْيثَ أيّامِــكَ مـا أطــاقُوا

لما اشتكيْتَ دبَّ في أهْوائِـهـمْ توجُّسٌ للسّـمـعِ واستِــراقُ

تطاولُوا، لا عدمتْ آمــالهُـمْ قصراً ولا جانبَـها الإخفــاقُ

توهّموها غَسَقاً ثمّ انجــلَـتْ والصَّفوُ من مشربِهمْ غَسَّاقُ[1]

وتغدو المقارنة التي ترمي إلى إبراز التّباين في المواقف أكثر وضوحاً في الشّعر الذي قيل في الملك العادل نور الدّين؛ ولعلّ ذلك يعود إلى الإنجازات العسكريّة التي حقّقها، والسّمات الشّخصيّة الحميدة التي كان يتّصف بها[2]؛ فقد عرّض ابن القيسرانيّ -مقابل إشادة وتقدير ظاهرين بنور الدّين- بركون بعض الحكّام إلى حياة الدّعة ، وتثاقلهم عن الجهاد في سبيل تحقيق بعض المكاسب الدّنيويّة الآنية[3]:

يا ساهدَ الطّرفِ والأجفَـانُ هاجعَةٌ وثابتَ القلبِ والأحشاءُ تَضطَرِبُ

. . .

منْ كانَ يغزو بلادَ الشّرك مُكْتسِباً من المُلوكِ فَنُــورُ الدّيـن مُحْتسِبُ

. . . .

هذا وَهلْ كان في الإسلامِ مكرمةٌ إلا شهــدْتَ وعُبّادُ الــهوى غُيُبُ

ويقدّم العماد الأصفهانيّ[4] -في معرض مدحه لنور الدّين وإشادته بجليل أعماله

---

(١) الغَسّاق: ما يسيل من جلود أهل النار وصديدهم.

(٢) في مآثر نور الدّين وصفاته، انظر: ابن الأثير، الكامل: ١١/٤٠٣-٤٠٥؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ١/٣١-٥٠؛ محمود السرطاوي، نور الدّين زنكي في الأدب العربيّ (في عصر الحروب الصّليبيّة)، ط١، دار البشير. عمان، ١٩٩٠م: ٦٠-٧٤، وغيرها من صفحات.

(٣) ابن القيسرانيّ، شعره: ٦٥-٧٣.

(٤) في ترجمة العماد الأصفهانيّ، انظر: ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ١٩/١١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/١٤٧.

-جملة من المقابلات الهادفة إلى نقد مواقف بعض القادة المتقاعسين عن واجب الجهاد، وذلك إذ يقول[1]:

. . يا أعظمَ النّاسِ قدْراً وهلْ لغَـيْرِكَ قـدرُ؟

وسـاهراً حـينَ نامُوا وقائمـاً حينَ قـرُّوا

ما اعتـدْتَ إلا وفـاءً وعـادةُ القـوم غَدْرُ

وفعْـلُكَ الدَّهـرَ غَزْوٌ للمـشركينَ وقَـهْرُ

وفعـلُ غَيْرِكَ ظُـلـمٌ للمسـلمينَ وقـسْرُ

أما ابن منير فيصف بعض هؤلاء الحكّام "بالثّعالب" التي خنست حين سمعت زئير "الأسد- نور الدّين" ، واختبأت في قصورها خوفاً من بطشه، وقوّة بأسه[2]:

خَنَس[3] الثّعالبُ حينَ زمْجَرَ مُصْحرٌ ملأَ البـلادَ هماهمـاً وزَئيرا

تركُوا مُشَاجَرَةَ الرِّماحِ لحـاذِقٍ جَعَلتْ مخافتُهُ القُصورَ قُبورا

وأكثر الشّعراء في عصر صلاح الدّين من التّعريض الذي أخذ شكل المقارنة ببعض الحكّام المتوانين عن الجهاد. على نحو ما يبدو من قول سعادة الأعمى[4] الذي أنشد صلاح الدّين سنة ٥٧١هـ قصيدة بدمشق، ندّد -في بعض أبياتها- بسياسة من يسعون

---

(١) العماد الأصفهاني، ديوانه، تحقيق: ناظم رشيد، جامعة الموصل، ١٩٨٣م: ١٧٥.

(٢) ابن منير، ديوانه: ٢١٨.

(٣) خنس: تأخّر.

(٤) هو سعادة بن عبدالله بن أحمد من أهل حمص، كان ضريراً مملوكاً لبعض الدمشقيين، سافر إلى مصر في أول عهد صلاح الدين. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): ١/٤٠٦؛ الصّفديّ، خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ)، نكْت الهمْيان في نُكَت العميان، تحقيق: أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، مصر، ١٩١١م: ١٥٧-١٥٨.

إلى عرقلة جهود صلاح الدّين في مواجهة الصّليبيين ، كاشفاً -بشيء من المفارقة- عن سموّ غاية صلاح الدّين، ونبل مساعيه، وزيف همم أولئك الحكّام وصغر مراميهم[1]:

لا يُقْعِدَنَّكَ ما حَلُّوا وما عَـقَدوا هُمُ الذِّئابُ وأَنتَ الضَّيْغَمُ الأسـدُ

كم يَخْطِفُونَ بُرُوقاً ما بِها مـطَرٌ ويقـصِفُونَ رُعـوداً ما بها بَـرَدُ

والقومُ قدْ قَعَدُوا عمّا نهضْتَ بهِ من السِّدادِ ، فلا قامُوا ولا قَعَدُوا

فلا ثيابُ المعالي فَوقَهُمْ جُـدُدٌ ولا طريقُ الأمانـي نَحْوَهُم جَدَدُ[2]

ويقابل ابن جبير الأندلسي[3] -في الإطار ذاته- بين حـيـاة بعض الملوك، ومـا يتخلّلها من دعة وعيش نضِر، وحياة صلاح الدِّين المجاهد المصابر، وذلك إذ يقول[4]:

. .تبيتُ المُلُوكُ على فُرشِهِمْ وتَرْفُلُ في الزَّرَدِ السَّابـري

وتُؤثِرُ جاهدَ عيْشِ الجـهادِ على طيْـبِ عَيْشِهِمُ النّاضرِ

وَتَسْهَرُ ليْلَكَ في حـقٍّ منْ سيُرْضِيكَ في جَفْنِكَ السَّاهرِ

أمّا ابن سناء الملك، فيعبّر -في سياق ابتهاجه بتولّي صلاح الدِّين مقاليد الحكم- عن غياب القيادة القادرة على إصلاح حال البلاد، وانقاذها من مهاوي التردّي التي سقطت بها بفعل بعض إدارة القيادات غير المؤهّلة، يقول[5]:

. .أرْضُ الجزيرةِ لم تَظْفَرْ مما لكُها بمالـكٍ فَطِنٍ أو سائسٍ دَرِبِ

---

(١) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): ١/ ٤١٢.

(٢) الجَدَد: الأرض المستوية.

(٣) هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير. . . الكناني الأندلسيّ، ولد في بلنسية، ورحل إلى المشرق ثلاث مرات، توفي سنة ٦١٤هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٢١؛ الزركليّ، الأعلام: ٥/ ٣١٩.

(٤) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٣/ ٣٧٢.

(٥) ابن سناء الملك، ديوانه: ٣ ؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٣/ ١٦٤.

ممالـكٌ لمْ يُدبّـرْها مُدبِّـرُهـا إلا برأي خصيٍّ أو بعقل صبي

حتّى أتاها صلاحُ الدِّينِ فانصلحَتْ من الفَسادِ كما صحّتْ من الوَصَبِ[1]

ولا يكاد العماد الأصفهانيّ يخرج عن المعاني التي ذكرها الشّعراء السّابقون حين يقارن بين صلاح الدِّين الذي يستهلّ يومه بالتّقى والصّلاح ومجاهدة الأعداء، وغيره من الحكّام الغارقين في ضروب من اللّهو والفجور[2]:

. . إليكَ هَجَرْتُ مُلوكَ الزَّمانِ فـمالَكَ ، واللّهِ، فيهم نَظِيْرُ

وفجرُكَ فيه القِرى والقُـرانُ جميعاً، وفَجْرُ الجميع الفُجُورُ

وأنتَ تُريـقُ دمـاءَ الفِرَنْـجِ وَعِنـدَهمُ لا تُراقُ الخُـمُورُ

وفي الاتّجاه نفسه ، يلحّ ابن الدّهان الموصليّ[3] على جملة قضايا؛ منها: سؤال العدالة المفقود لدى فئة من الحكّام. وانشغال بعضهم بالتّرف والمجون وإشباع الرّغبات ، على حساب ما هو أولى وأهمّ، كالإنفاق في الخيرات (باعتبار ذلك من وجبات الحاكم التّقيّ الذي يحرص على قدر من العدالة الاجتماعيّة)؛وجمع الأموال للتّعبئة ، وإمداد الجيوش بالعدد والعدّة (وهو أمر يتطلّبه الظّرف التّاريخيّ بصورة ملحّة)، وذلك إذ يقول مخاطباً صلاح الدّين[4]:

مُلوكٌ جُلّهمْ مُغْـرىً بظُـلْمٍ وَمَشْـغُولٌ بلهوٍ أوْ بـراح

إذا ما جالـتِ الأبطـالُ ولّى ويُقْدِمُ نحوَ حَاملةِ الوِشـاحِ

---

(١) الوصب: التعب والمرض.

(٢) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ١٩٤.

(٣) هو المهذّب عبدالله بن أسعد بن علي الموصليّ الشافعيّ، توفي في حمص سنة ٥٨١هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام) : ٢/ ٢٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ١٠٠.

(٤) ابن الدهان، ديوانه، تحقيق: عبدالله الجبوري، ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م: ٦٤-٦٥.

يَرى الإنْفاقَ في الخيراتِ خُسْراً وأنــتَ تراهُ من خيرِ الرِّباحِ

هُمُ جمعُوا وقد فرّقتَ لكنْ جمعتَ بهِ الرِّجالَ مع السِّلاحِ

وبونٌ بينَ مالكِ بيْــتِ مالٍ ومــالكِ رقِّ أمـلاكِ النّواحي

-٣-

غير أنّ هذا المنزع التّعميميّ في نقد الأوضاع السِّياسيّة في مصر والشّام في هذه الفترة، قد تحوّل لدى بعض الشّعراء إلى نقد مباشر وصريح تناول بعض الأحداث المعاصرة، والشّخصيات السيّاسيّة المعروفة التي كان لها مواقف سلبيّة أثارت الاستياء الشّعبيّ العامّ. وذلك على نحو ما حدث سنة ٥٩٣هـ، حين قصد الفرنج بيروت في جمع كبير[١]، وكان بها صاحبها الأمير عزّالدين أُسامة[٢] الذي تركها حين أحسّ باخطر، وولّى هارباً. فقال فيه العماد الأصفهانيّ مقرّعاً وموبّخاً على فعلته تلك[٣]:

إنّ بيعَ الحُصُونِ منْ غير حربٍ سُـنَّةٌ سنَّــها ببــيروتَ سَامهْ

لعنَ اللّهُ كلَّ من باعَ ذا البــيـ ـعَ وأخزى بخَــزْيِهِ منْ سامَهْ

ومثل هذا الاستياء ، نلمسه -على نحو أوضح- حين تمّ تخريب بيت المقدس وهدم سوره سنة ٦١٦هـ[٤] على يد الملك المعظّم عيسى، بسبب خوفه -كما يذكر المؤرّخون- من استيلاء الفرنج عليه. ومما قيل في استنكار هذا العمل واستهجانه، وذمّ الملك المعظّم هذان البيتان لمجهول[٥]:

---

(١) ابن واصل، محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ) مفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، بلا تاريخ: ٣/ ٧٤.

(٢) من أمراء الدولة الأيوبية، كان بيده قلعة عجلون وكوكب، اعتقله الملك المعظّم ومات رهن الاعتقال سنة ٦٠٩هـ، وقيل سنة ٦٠٨هـ. انظر: الصفدي، الوافي: ١٥/ ٩٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٠٥.

(٣) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٤٤٥-٤٤٦.

(٤) أبو شامة، الذيل على الرّوضتين: ١١٥-١١٦

(٥) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب: ٥/ ٦٦.

في رَجَبٍ حلّلَ الحُـمـيّا وأَخْربَ القُدْسَ في المُحرّمْ

واستخدمَ القِبطَ والنّصارى وبَعْـــدَ ذا وَزرَ المُـكـرَّمْ

ومن الطّبـــيعيّ ألا يعذر النّاس الملـــك المعظّم على فعلته تلك مهـما حسنت نواياه؛ وذلك لما لبيت المقدس من مكانة دينيّة عظـــيمة في نفـــوس المسلمين جميعاً. وإن كـان الشّـــعر الذي عبّر عن صدى هذا الفـــعل -لسبب أو لآخر- يُعدُّ باهتـــاً وضعيفاً[1].

ومن الأحداث الهامّة التي لاقت صدى من النقد والتّعريض لدى الشّعراء ، تنازل الملك الكامل سنة ٦٢٦هـ عن بيت المقدس وتسليمه للفرنجة بدافع من خلافات البيت الأيوبيّ المتكرّرة. غير أنّ أغلب الشّعر الذي عبّر عن هذا الحدث يقع تحت باب البكاء والاستعبار[2]. ومن النّماذج القليلة التي تصادف الدّارس في التّنديد بالحكّام الذي فرّطوا ببيت المقدس ، قول شاعر مجهول[3]:

إنْ يكُنْ بالشّآم قلَّ نصيري وتـــهدَّمْتُ ثمّ دامَ هُلوكي

فَلَقد أصبحَ الغَداة خرابـي سمةَ العارِ في جباه الملوكِ

---

(١) عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقـــدس في أدب الحـــروب الصليبيّة، ط١، دار البشير، عمان ١٩٨٩م: ١٧٧.

(٢) انظر نماذج من ذلك في : عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية (جمع وتحقيق وتقديم)، دار البشير، عمان، ١٩٨٩م: ٢٤٠-٢٤٦.

(٣) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت٨٧٦هـ)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون العراقية، ١٩٧٨م: ٣١٢-٣١٣.

ولعلّه بسبب من موقف الملك الكامل ذاك، وجد الشُّعراء في موته سنة ٦٣٥هـ، فرصة لهجائه والنيل منه؛ وذلك على نحو ما يبدو لدى شرف الدّين الرّحبي[١] الذي يُعبِّر عن حادثة موته بقوله[٢]:

. . وَافَاهُ مقضيُّ الحمام ولمْ يُـرَعْ حيٌّ ولم يَحْـفِلْ به اثنانِ

فَغَدا لقى[٣] تحتَ التُّراب مُـجَنْدَلاً لمْ ينتطِح في مَوْتِه عنْـزَانِ

. . فلبئسما ذَهَبتْ وساوسُ فكْرِه منْهُ إلى دَعوى بغـيرِ بيَانِ

أنّى وما فوقَ البسيطـةِ فاسِـدٌ إلا ويخلـفُهُ بديـلٌ ثانِ

وعلى الرّغم من ذاتيّة هذا الهجاء، وخلـوّه -تقريباً- من أيّ نقد واضح، إلا أنّه يعبِّر - مع ذلك- عن شعور باد من التّشفّي والمرارة. ومثل هذا الشّعور لا بدّ أنْ يكون انعكاساً لحالة من الاستياء وعدم الرّضا تجاه ذلك الحاكم[٤].

***

ب- هجاء أمراء الشّام:

-١-

كان لبعض حكّام الشّام مواقف مناهضة لجهود نور الدّين الرّامية إلى توحيد بلاد

---

(١) هو شرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف الرحبيّ، له في الطّب غير مؤلف، توفي بدمشق سنة ٦٦٧هـ. انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٦٧٥.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٦٧٨-٦٧٩.

(٣) لقى: منبوذ.

(٤) يؤكد حالة الاستياء هذه ما ورد على لسان بعض مؤرّخي هذا العصر؛ فابن الأثير ينقل وقع هذه الحادثة على نفوس المسلمين بقوله: «استعظم المسلمون ذلك وأكبروه». الكامل: ١٢/ ٤٨٣؛ وابن واصل يقول في المناسبة ذاتها: «وأنكروا (المسلمون) على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه». مفرج الكروب: ٤/ ٢٤٣.

الشّام. ومن هؤلاء حكّام دمشق الّذين استعانوا -في سبيل إعاقة الوحدة- بالصّليبيين، وعقدوا المعاهدات معهم[1]. وقد دفعت هذه المواقف نور الدّين إلى حصار المدينة غير مرّة لمحاولة ضمّها إلى حلب «ومن ثمّ، توحيد الإمارات الشّاميّة، في ظلّ دولة زنكيّة موحّدة، تقف متماسكة بقوّة في وجه الصّليبيين»[2].

ففي سنة ٥٤٦هـ، فرض نور الدّين حصاراً على دمشق "لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم»[3]. وقد استثار هذا الموقف الشُّعراء، فراحوا يعنّفونهم عى فعلتهم تلك، محرّضين نور الدّين عليهم، وممّا جاء في ذلك، قصيدة لابن منير يصوّر في بعض أبياتها، محاولة أولئك الحكّام تثبيط أيّ مسعى وحدويّ مرجوّ، إلى جانب تعبيره عمّا كانوا يتّصفون به من نفاق، وإثارة فتن بغيضة[4]:

يا نورَ دِيْنِ اللّهِ وابن عمادِه ... والكوْثَرِ ابنِ الكَوْثَرِ ابنِ الكَوْثَرِ[5]

صفِّرْ بِحدِّ السّيفِ دارَ أشائبٍ ... عقلُوا جيادَكَ عن بناتِ الأصفَرِ[6]

هم شيَّدُوا صرْحَ النّفاقِ وأوقدُوا ... ناراً تُحَشُّ بهم غَداً في المحْشَرِ

أذكوا «بجلَّقَ» حرَّها، واستشعَرتْ ... لفحاتُها بيْنَ «الصَّفا» و «المشْعَرِ»

شرِّدْ بهمْ[7] مَنْ خَلْفهم مُستَنْجِداً ... ما ظَاهرَ الكفّارَ منْ لم يَكْفُرِ

---

(١) أبو شامة، كتاب الرّوضتين : ١/٢٣٩.

(٢) محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبيّ في شعر ابن القيسرانيّ: ١١٨.

(٣) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ١/٢٥٩؛ وكان نور الدين قد ضرب حصاراً آخر على المدينة سنة ٥٤٤هـ، للأسباب ذاتها، انظر تفصيل ذلك في : ابن القلانسيّ، تاريخ دمشق: ٤٧٨-٤٧٩؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ١/٢٤٠-٢٤١.

(٤) ابن منير، ديوانه: ٢٢٩.

(٥) الكوثر: الرجل السخيّ.

(٦) الأشائب: أخلاط الناس.

(٧) في الديوان: شرِّدتَهُمْ، وهو تصحيف، انظر توجيه محقّق كتاب الرّوضتين: ١/٢٥٩ (حاشية رقم ٥).

لا تَعْفُ، بل شُقَّ الهُدى نفسَ الذي ادَّ (م) رعَ الضَّـلالَ على أغرَّ مُشَهَّرِ

قَلِّدْهُ ما أهـدى عليٌّ لمرحَـبٍ[1] فلقد تهكَّمَ في الخِداع الخَيْبَري

ما الغِـشُّ ممّن أُمُّـهُ نصـرانةٌ لمْ تختَتِنْ كالغِشّ منْ مُتَنَـصِّر

وفي المناسبة ذاتها، ينال ابن منير في قصيدة أُخرى من مجير الدّين أبق[2] صاحب دمشق وقتذاك ، ويحمل عليه حملة عنيفة، فيها من الازدراء والسّـخرية الكثير. متوسّلاً -في سبيل أن يكون لهجائه حدّته وقوّته- بالمعاني الدّينيّة التي من شأنها أن تستثير مشاعر السّامعين، وتستحوذ على اهتمامهم، باعتبار أنّ لموقف هذا الحاكم المنحرف عن خطّ الجماعة الإسلاميّة أثراً في إضعاف شوكة هذه الجماعة أمام عدوّها الخارجي[3]:

فيا راكباً إمّا عرضْـتَ فبلّـغنْ بيوتاً على «جَيْرُون»[4] بالـذّلّ تُعمَدُ

وقلْ لـ «مُبير الدِّين» وهو «مجيرُه» بزَعمٍ لهُ وجْهُ الحقيـقةِ أَربَـدُ[5]

حملْتَ الصَّـليبَ باغياً، ونَبَـذْتَهُ وثَغْرُكَ مطووس[6] النّبات وأَدْرَدُ[7]

وحاربتَ حزبَ اللّه، واللّهُ ناصرٌ لناصِـرِه، وديـنُ أحمدَ أحمدُ

تنصّـرْتَ حيناً، والبلاءُ مُوكَّـل ولا بُـدَّ مـن يـومٍ به تتـهوَّدُ

---

(١) مرْحب هو اليهودي الذي قتله علي بن أبي طالب في خيبر سنة ٧هـ. وقيل إنّ الذي قتله محمد بن مسلمة. انظر: ابن الأثير، الكامل: ٢/٢١٨-٢١٩.

(٢) هو مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طَغْتكين، ولي دمشق بعد أبيه ، ومنه أخذها نور الدين سنة ٥٤٩هـ، توفي سنة ٥٦٤هـ، أو ٥٦٥هـ. انظر: ابن تغـري بردي، النجوم الزاهرة: ٥/٣٨١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٤/٢١١-٢١٢.

(٣) ابن منير، ديوانه: ٢٣١.

(٤) جَيرون: حصن بدمشق. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: ٣/١٩٩.

(٥) اربدّ: اختلط سواده بكدرة.

(٦) مطووس: جميل.

(٧) أدرد: أهتم ، أي ليس في فمه أسنان.

ويحطّ ابن منير من قدر مجير الدّين، فينفي عنه صفة الرّجولة، ويصوّره عاجزاً عن القيام بجليل الأعمال:

وَجَالدْتَ جلاداً وأنتَ مُـــؤنَّثٌ تذكّرتَ، والجلادُ أدْهَى وأجْلَدُ

تطاولتَ لا نَفْسٌ تُسمّى ولا أبٌ وراءك زَحْـفاً، إنّما أنتَ مُقْعَدُ

وإمعاناً في التّهكّم منه، والانتقاص من شأنه ، يعمد الشّاعر إلى مقارنته بنور الدّين ، فيبدو الفارق كبيراً:

أمسعاةَ نورِ الدّين تبغي ودونها الـ أســنّةُ بُتْرٌ والعــواملُ تُعضَدُ

وهلَ يستوي سارٍ تأسّد طـــاوياً ونشوان يُعْلي مِعصماً ويؤيّدُ

ثمّ يبيّن أنّ من أسباب سوء أحوال مجير الدّين اتّخاذه البطانة الفاسدة المنحرفة:

تَخذْتَ بني الصّوفي[1] أسْراً[2] وأُسرةً لكي يُصْلِحُوا ما في يديكَ فأفسدُوا

لعَمْري لَنِعْمَ العبدُ أنتَ ، تُجيـعـهُ الـ ـمـوالي، وتُـــوليه هَوَاناً فَيَحْمدُ

ومن أمراء الشّام الذين ساءت علاقتهم بنور الدّين ، الأمير غازي بن حسّان[3]

---

(١) من الأسر التي كان لها دور في واقع دمشق السّياسيّ، ومن أشهرهم الوزير مؤيد الدّين بن المسيب بن علي. انظر: أبو شامة، كتاب الروضتين: ١/ ٢٢٢-٢٢٣؛ وقد كشف أسامة بن منقذ -كذلك- عن انحراف هذه الأسرة ، وخطرها على سياسة حكّام دمشق، وذلك على نحو ما يتّضح من قوله محذّراً معين الدين أنر (حاكم دمشق) من سوء سريرتهم:

. .هُمُ الأعادي، وقاكَ اللّهُ شرَّهُمُ وهُمْ بزعْمِهمُ الأعوانُ والخَدَمُ

إذا نهَضْتَ إلى مَجْـد تؤثّلُـــهُ تَقاعَـــدُوا فإذا شيّدتَهُ هَدَمُـوا

وإنْ عرتْـــكَ من الأيّـامِ نائـبةٌ فكلُّهُمْ للّذي يُبكيكَ مُبتَسِـــمُ

انظر: أسامة بن منقذ، ديوانه: ١٩٧.

(٢) الأسْر: القوّة.

(٣) من أمراء نور الدين زنكي. انظر: أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٢/ ٣٢.

صاحب مَنْبج[1]، الذي أرسل إليه نور الدّين سنة ٥٦٣هـ من قام بحصاره، وانتزاعها -بالتّالي- منه[2]، وفي ذلك يقول العماد الأصفهانيّ - من قصيدة له في مدح نور الدّين- ساخراً من عصيان ذلك الأمير، وساسة الأمر في هذه المدينة[3]:

. . ما أعجزتْكَ الشُّهبُ في أبراجِها طلباً، فكيف خوارجٌ في أبْرُجِ

وَلَقَدْرُ منْ يعصيكَ أحقَرُ أنْ يَرى أثرَ العُبُوسِ بوَجْهِكَ المتبلِّجِ

لكنْ تُهذِّبُ من عَصاكَ سياسةً في ضِمْنِها تقويمُ كلِّ مُعوَّجِ

-٢-

غير أنّ هذه الجهود الوحدويّة التي حرص نور الدّين على تحقيقها في فترة حكمه (٥٤١-٥٦٩هـ) ما لبثت أن أصيبت بانتكاسة مؤثّرة عقب وفاته، فاضطربت «الأمور في تلك البلاد بعد أن سيطر على ولده الصّبيّ جماعة من الطّامحين الذين كانت مصالحهم الشّخصيّة هي المحرّكة لتصرّفاتهم، وبلغ الأمر بهم أن تنازلوا عن أجزاء من بلاد المسلمين في الشّام للفرنج في مقابل سكوت هؤلاء عنهم، ونصرتهم على إخوانهم من المسلمين إذا استلزم الأمر ذلك»[4]. وكان لا بدّ -والحالة هذه- أن يسعى صلاح الدّين الذي كان يحكم مصر في هذا الوقت، إلى العمل على وحدة البلاد، والحفاظ على ما تمّ إنجازه في عهد نور الدّين[5]، ويلحظ أنّ صوت الشّعر كان قويّاً في تأييد هذا

---

(١) مَنْبج: بلدة كبيرة، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وهي من حلب على عشرة فراسخ: انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٥/٢٠٦.

(٢) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٢/٣٢.

(٣) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ١٠٢.

(٤) محمود إبراهيم، حطّين بين أخبار مؤرّخيها، وشعر مُعاصريها، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٨٧م: ٤٠.

(٥) حول موقف صلاح الدّين في هذا الشّأن، انظر: عبدالكريم حتاملة، صلاح الدّين وموقفه السّياسيّ من أمراء الشّام بعد وفاة نور الدّين زنكي، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، م١، ع٢، ١٩٨٥م: ٧-٢٨.

الاتّجاه، فراح الشّعراء يسخرون من أيّ توجّه انفصاليّ، مصوّرين الآثار السّلبيّة التي يمكن أن يجلبها مثل ذلك التوجّه على المسلمين. ومن الشّواهد الشّعريّة على هذا ما قاله وحيش الأسديّ[1] بمناسبة استيلاء صلاح الدّين على مدينة دمشق سنة ٥٧٠هـ[2]، مُعبّراً عن فرْحَتِه بصلاح أحْوالها بعدما أصابها من خراب وسوء[3]:

رأيتُ جلّقَ ثَغْـــراً لا نظِيرَ لَهُ فَجِئْتَها عامــراً منها الّذي خَـرِبا

نادتْكَ بالـــذُّلِّ لما قلَّ ناصِــرُها وأزْمَـعَ الخَــلْقُ مِنْ أوطَانِها هَرَبا

أحيتَها مثلَ ما أحييْتَ مِصرَ فقدْ أعَدْتَ منْ عدْلها ما كانَ قد ذَهَبا

وكان لموقف حكّام حلب المناوىء لمبادرات صلاح الدّين تلك، صدى أكثر وضوحاً وأشدّ نبرة في شعر الهجاء السيّاسيّ في هذا العصر؛ ولعلّ ذلك يعود إلى تشبّث الشّعراء وتعلّقهم بكلّ مسعى وحدويّ يهدف إلى تقوية الجبهة الإسلاميّة الدّاخليّة في وجه الأخطار المحدقة بها من جهة، وإلى شدّة المقاومة التي لقيها صلاح الدّين من أولئك الحكّام من جهة أُخرى؛ مما دفع صلاح الدّين إلى ملاقاتهم في معركة قرون حماة سنة ٥٧٠هـ[4]، حيث ألحق بهم هزيمة نكراء. وقد كان لنتيجة هذه المعركة رنّة فرح وارتياح بالغين في نفوس عدد من الشّعراء الذين وجدوا في هذه المناسبة فرصة لهجاء الحلبيين والمواصلة والنّيل منهم. ومن هؤلاء ابن الفرّاش الدّمشقيّ الذي عبّر عن الموقف بقدر من الدّقة والتّفصيل، فبيّن ضراوة مقاومة هذه المدينة، وسوء سيرة حكّامها ،

---

(١) هو الأديب سبع بن خلف بن محمد بن عبدالله.. الأسديّ الفقعسيّ، يحدّد العماد مولده بحدود سنة ٥٠٤هـ. ويذكر أنه لقيه شيخاً بدمشق. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام) : ١/ ٢٤٢.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانيّة: ٥٠.

(٣) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام) : ١/ ٢٤٢؛ وانظر أبياتاً مشابهة لابن نفاذة الدمشقي في المصدر نفسه: ١/ ٣٢٩-٣٣٠.

(٤) ابن شدّاد، النوادر السلطانيّة: ٥١.

ومحاولتهم الهيمنة على ابن نور الدّين الذي استغلّوا صغر سنّه لتحقيق ما في نفوسهم من مطامح وغايات ، وذلك إذ يقول[1]:

. . عَصتْ حلبٌ وقاتلَ ساكنُوها ... وليسَ قِتالُهُمْ لكَ بالعَجيبِ

لأنّك ناصرُ الإسلامِ حقّاً ... وهم رَهْطُ المغيرةِ أو شبيبِ

جهادُكَ إنْ طلبْتَ الغزوَ فيهمْ ... أهمُّ إليكَ من غَزْوِ الصّليبِ

أناسٌ دبّتِ الأعلالُ فيهمْ ... وليسَ لهُمْ كسيفِكَ منْ طبيبِ

ولم يذخرْكَ نورُ الدّينِ إلا ... لَتدْفعَ عنهُ نائبةَ الخُطُوبِ

فخلّصْ ابنَهُ بالسّيفِ منْهُمْ ... فقدْ حبسُوهُ في بلدٍ جَديبِ

يبيتُ وقلبُهُ المحزونُ أشْهَى ... إلى لُقْياكَ منْ ضمِّ الحبيبِ

صغيرٌ بينَهُمْ ، لا بلْ أسيرٌ ... غضيضُ الطَّرفِ مَبْخُوسُ النّصيبِ

تذكّرْ عَهْدَهُ واحْننْ عليهِ ... ونفِّسْ عنْهُ تضييقَ الكُرُوبِ

ولا يغْرُرْكَ مَنْ يُولِيكَ ودّاً ... ويُلْوي عَنْكَ أجفَانَ المُريبِ

ويدعو سعادة الأعمى -في الاتّجاه ذاته - إلى اتّخاذ القوّة وسيلة لتحقيق وحدة المدن الإسلاميّة، فيحرّض - من أجل ذلك- ممدوحه على انتهاج الحزم مع هؤلاء المنشقّين. مستثمراً -في سبيل هذه الغاية- بعدين، الأوّل : استثارة العاطفة الدّينيّة من خلال الإلحاح على المعاني الإسلاميّة. والثّاني: تذكير صلاح الدّين بعداوة أولئك القوم، ومواقفهم المناهضة لمساعيه[2]:

---

(١) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام) : ١/ ٣٠٠.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٢٦-٤٢٧.

. . سيـرتِقُ فتْقَ هذا المُـلْكِ مِنْهُ قواضـبُ، للرؤوسِ بها انْقضَابُ

ويُمـرِعُ بالـبَـوَار جـنابُ قَوْمٍ لَهُمْ عنْ نُصْـرَةِ الدِّينِ اجتنابُ

فَلا تَقْبلْ لَهمْ، ما عِشْتَ، عُـذْراً وإنْ خَضَـعُوا لَديكَ وإنْ أنابُوا

هُمُ حَشَـدُوا علَيْـكَ بكـلِّ وادٍ عَصَائبَ، بالضّلالِ لها اعْتصابُ

وجيـشاً مُذْ دعـاكَ على اغْترارٍ صلاحَ الدِّينِ، عاجَلَهُ الصَّوابُ

أمّا العماد الأصفهانيّ، فيساوي بين الحلبيين والمواصلة من جهة، والصّليبيين من جهة أُخرى، باعتبار كلا الطّرفين مصدر ضرر وخطورة. ويعمد - في الوقت نفسه- إلى استحضار جانب من صفات صلاح الدّين وأعماله السّامية؛ لإظهار مدى التّفاوت والاختلاف بين هذا القائد المسلم المجاهد، وبين أولئك القادة[1]:

. .وأنْتَ أجَرْتَ الشّامَ مِنْ شُؤْمِ جارِهِ ولم يكْفِ رهـط الكُـفرِ حتّى بَغَى رهْطُ

أَجَرْتَ وَقَدْ جَارُوا، ودنْتَ وقدْ عَدُوا وَصلتَ وقدْ خَارُوا، ولِنْتَ وَقد لـطُّوا[2]

فلا يعْبأ المولى بمن ملءُ جأشِهِ هوىً، وبقَوْمٍ حشو جَيْشِهـمْ زطُّ

كثيرٌ تعدّيهمْ، قلـيلٌ غناؤهـمْ وهُمْ لا أصابُوا رُشْدهمْ هَمَلٌ رهطُ

ولم تقف مناوءة الحلبيين والمواصلة لصلاح الدين عند هذا الحدّ؛ ففي سنة ٥٧١هـ، التقى الجمعان ثانية في مكان يُدْعى (تلّ السّلطان)[3]، حيث دارت معركة أسفرت - أيضاً - عن انهزام معسكر الموصل وحلب. وللعماد الأصفهانيّ في ذلك

---

(١) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٢٨٢؛ وللاستزادة: ١٦٥، ٢٨٨.

(٢) لطّوا: جحدوا.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١١/٤٢٧؛ وتلّ السّلطان : موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢/٤٢.

قصيدة طويلة، سخر فيها من المصير الذي آل إليه أولئك المنهزمون، يقول في بعض أبياتها[1]:

عَادَ العدوّ بظُلْـــمةٍ منْ ظُـــلْمه ... فـــي ليْلِ وَيْـــلٍ قد خَبا مصْباحُهُ

رَكَدتْ قبولُ قبـــوله مِنْ بعْد أن ... هبَّتْ غروراً بالرِّيـــــاءِ رياحُـــهُ

أوفى يُريـــدُ له بجـــرٍّ جنـــوده ... ربحاً فجرّتْ خَـــسْرةً أرباحُـــهُ

وَجَـــنى عليـــهِ جهلُهُ بوقـــوعِـهِ ... في قبْضةِ البازي، فهيْضَ جناحُهُ

حَملَ السِّلاحَ إلى القتالِ وما دَرى ... أنّ الـــذي يجْني عليه سِـــلاحُهُ

ولّى بكسرٍ لا يُرَجّـــى جـــبرُهُ ... وبقَـــرْحِ قَلْبٍ لا تُبلُّ جـــراحُهُ

ويعمد الشّاعر إلى ضروب من السخرية والاستخفاف بهم، فيصوِّر جيشهم لا يضمّ إلا الرّعاع غير المدرَّبين على حمل السّلاح وخوض معترك الحروب :

عَدمُوا الفلاحَ مِن الرِّجالِ فجاءهمْ ... من كـــلِّ صوبٍ مُكْرهاً فلاحُهُ

فهمُ لحرثٍ لا لحرْبٍ حزْبهُـــــمْ ... أيثيرُ قُرحاً مَنْ يثارُ قـــراحُهُ[2]؟

ويتّفق حديث العماد عن هذه الواقعة مع ما ذكره بعض المؤرّخين من أنّ عسكر الموصل كان كالحانة لكثرة ما فيه من خمور ولهو ومغنّيات[3]. وهو إذ يورد ذلك، فإنّما ليتّخذه مدعاة لثلبهم، والانتقاص من قدرهم، من خلال اتّكائه على هذه الصّور من المقابلة التي جسّدت ما بين صلاح الدِّين وأعدائه من فارق :

راحُ النَّجيعِ بها صحافُ صِفاحِكُمْ ... مَـــلأى وتمـــلأُ كلَّ كاسٍ راحُهُ

---

(١) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ١٠٨.

(٢) القرح: العضّ بالسلاح، القراح: الأرض المخلصة للزرع والغرس.

(٣) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٢/٤٠١-٤٠٢.

وتجولُ في صهواتِها فرسانُـكمْ وتدورُ في خلواتِه أقداحُهُ

ويروقُهُ الخمرُ الحرامُ، وعندكمْ مما يُـراقُ من الدِّماءِ مُباحُهُ

-٣-

واستكمالاً لهذا المحور، لا بدّ من الإشارة إلى ما حَصلَ بينَ أبناءِ البيت الأيوبيّ عقب وفاة صلاح الدّين سنة ٥٨٩هـ من نزاع وشقاق كانت نتائجه على المسلمين قاسية؛ فقد تَفاقم الخلاف بَيْنَ الإخوة والأقارب، وطمع كلّ منهم بالآخر، حتّى بلغ الأمر بهم إلى أنْ استعان الأخ على أخيه أو ابن أخيه أو عمّه بالأجنبيّ، وقد أصاب القاضي الفاضل في وصف واقع حال الأيّوبيّين في هذه الفترة حين قال: « أمّا هذا البيت، فإنّ الآباء فيهِ اتّفقوا، فملكوا، والأبناء اختلفوا فهلكوا، وإذا غَربَ نجم فما في الحيلة تشريقه، وإذا بَدَا خرق ثوب فما يليه إلا تمزيقه»[١].

وعند النظر في الشّعر الذي عبّر عن جوانب من هذا النّزاع، يلاحظ أنّ أغلبه يدخل في باب الاستعطاف والشّكوى وإسداء النّصح[٢]، مما يجعله خارجاً عن نطاق هذه الدّراسة واهتمامها. غير أنّ بعض هذا الشّعر قد حمل موقفاً رافضاً لما كان يجري، وإن جاء هذا الرّفض هادئاً غير جارح؛ ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ المقام الذي كان يقال فيه هذا الشّعر هو مقام ملوك، وهذا يتطلّب تلطُّفاً في القول إمّا احتراماً وتقديراً، أو رهبة وخشية، أو هما معاً. إضافة إلى أنّ هؤلاء المتخاصمين هم في النتيجة إخوة وأقرباء، لرابطة الدّم بينهم سند كبير، وهذا ما يجعل الشّاعر في موقف المصلح الذي يسعى إلى تأليف القلوب بدل تفريقها.

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٢٠.

(٢) انظر نماذج من ذلك في : ابن واصل، مفرج الكروب: ٣/ ٣٧-٣٨، ٦٩، ١٨٥-١٨٦، ٥/ ٣٦٥-٣٦٨.

ومن الشّواهد الشّعريّة التي يمكن إيرادها في هذا السّياق، أبيات للرّشيد النّابلسيّ، قالها بمناسبة الصّلح الذي تمّ بين ابني صلاح الدّين: الملك الأفضل[1]، والملك العزيز عثمان،[2] بعدما حصل بينهما من خلاف، حيث يعمد الشّاعر إلى التّأنيب وانتقاد ما جرى من خلال الكلمة الرّقيقة النّاصحة، يقول[3]:

.. لَمْ يَكُنْ لائقاً بنجْلِ صلاحِ الدْ ... دينِ حالٌ معــذوقةٌ بـفسـادِ

حاشَ للّهِ ما عهدْنا النُّجــومَ الزْ ... زُهْرَ يُدْعَى في شَمـلها ببدادِ

أرأَيْتَ الأشْبــالَ تخــرجُ يومـاً ... خُلُقُها عن خلائـق الآسـاد؟

أيّمــا والــدٍ به رحــم اللّــ ... ـهُ البــرايا وأيّــما أوْلادِ؟

وتبدو أبيات فتيان الشّاغوريّ التي يُعرِّض فيها بالخلاف بين الملك الأفضل من جهة، وأخيه الملك عثمان، وعمّهما العادل من جــهة أخرى، أكثر حدّة في نقد خلافات بني أيّوب، التي بدت آثارها شديدة على دمشق التي عانت -حسب ما يذهب الشّاعر - من الجدب والغــلاء بسبب الحصار المفــروض عليــها من قبل عســاكر الملك العزيز[4]، زيــادة على ما نجم عن ذلك من فتن وقع في براثنها كـثيـر من النّاس[5]:

---

(١) هو الملك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين يوسف، ملك الشّام في حياة أبيه ، ثم من بعده، توفي سنة ٦٢٢هـ. انظر: ابن تغري بردي، النُّجوم الزّاهرة: ٦/ ٣٦٦.

(٢) هو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح، ابن السّلطان صلاح الدين ، سلطان الديار المصريّة التي وليها في عهد والده، ثم استقلّ بها بعد وفاته، توفي سنة ٥٩٥هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ١٢٠.

(٣) الحنبلي، شفاء القلوب: ٢٣٧.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب: ٣/ ٦٢-٦٣.

(٥) فتيان الشاغوريّ، ديوانه: ١٣١-١٣٢.

وعساكرُ المصريِّ مُـــحْـدِقَـةٌ بنا أطلابُها[1] كأجيـجِ نارِ المَـوْقِـدِ

نارٌ أتتْ من مِـصْـرَ أذكتْـها لنـا إحَنٌ أُثيرَ كَمينُها منْ صـــرْخَـــدِ

هم أطلقُوا طِرفَ الغلاءِ فجاءنـا عن طرف رُخْـصٍ بالـغلاة مُقيَّد

ما بينَ جَدْبٍ نحنُ فيه ورُخصِهِمْ إلا كغلْوةِ سَهْـم رامٍ جيِّـــد[2]

لمّا رأيتُ النّـــاسَ هـرّوا فتـــنَةً ضبثتْ براثنُها بكـــلِّ مُـوحِّـدِ[3]

وتفرّقوا صِنْفَيْنِ: سُنـيّاً وشـــيـ ـعيّاً وكلٌّ قـائـــلٌ: أنا مُهْـــتدِ

هذا يميلُ إلـــى أبي بـــكرٍ وذا يبغي عليّاً مُخْـلِـــصاً بتـــودُّدِ

وسقتْهمُ الأهواءُ كأساً لم تَـــدَعْ ذا مُسْكةٍ[4] في النّاسِ غيرَ مُعَرْبِدِ

وقريب من هذا قول ابن عنين من قصيدة صوّر فيها حصار كتائب كلّ من الملك الأفضل، والملك الظّاهر لمدينة دمشق عقب وفاة الملك العزيز سنة ٥٩٧هـ[5]. والقصيدة -أصلاً- في مدح الوزير ابن شكر، وإبراز دوره في إنهاء هذه المحنة دون إراقة دماء. غير أنّ بعض أبياتها تضمّن تعريضاً وسخرية بالمحاصرين الذين لم يحقّقوا ما أرادوا العزم عليه، على نحو ما يذهب الشّاعر[6]:

. . حتّى إذا أَشْرفتْ منهمْ دمشقُ على حربٍ لها الويلُ من عُقباهُ والحَرَبُ[7]

---

(١) الأطلاب: جمع طلب، وهو لفظ كرديّ معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانيّة، ٦٢. (حاشية رقم (٣)).

(٢) الغلوة: المرة.

(٣) ضبثَ بالشّيء: قبض عليه. هرَّهرَّاً: ساء خلقه، وهرّ في وجهه: صوّت.

(٤) المُسكة: حصّة من عقل.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب: ٣/١٢٣، ١٢٥.

(٦) ابن عنين، ديوانه: ٤٨.

(٧) الحَرَب: الهلاك.

فكانَ رأيُكَ فيها رايـةً طلعـتْ بالنَّـصرِ، فانجابَتِ اللأواءُ[1] والكُرَبُ

وباتَ أثبتُهم جأشاً وأحزمُهُـمْ رأياً، وأمـضى سلاحاً عزمُهُ الـهَربُ

وكان ظنُّهُمُ أنْ تلتقي بهـمُ مصْرُ البوارَ وتـغـشَى النُّـوبةَ النُّوبُ

فأجْفَلُوا وزعيمُ القومِ غايةُ ما يَرْجُو من الـلّهِ أن تَبْـقى لهُ حَـلـبُ

أمّا راجح الحليّ[2]، فيذهب -من باب النّصح والإرشاد- إلى تأنيب الملك المعظّم عيسى، وتحذيره من مغبّة الخلاف الذي حصل بينه وبين أخيه الملك الأشرف[3] ، مذكّراً بما كان عليه سلفهما الصّالح من تآلف واتّفاق ، وذلك إذ يقول من قصيدة أنشده إياها سنة ٦٢٤هـ [4]:

أعيذُ علاكمْ أنْ يُبـاحَ لملكِـكـمْ حمـىً وبكمْ غُرُّ المعالكِ تحتَمي

أبتْ لكمُ آباءُ صِـدْقٍ نمتْـكُـمُ تخيُّلَ ضغْنٍ يقتضي نقضَ مُبْرِمِ

نصيحة عبدٍ عاشَ في ظلِّ ملككمْ تقابلُهُ بالنُّجـحِ أوجـه أنعُـمِ

ومن الواضح أن مواقف بعض الشّعراء في هذا الإطار ، تحمل ميلاً إلى هذا الطّرف دون ذاك، ممّا قد يدفع الدّارس إلى التّشكيك في موضوعيّة هذا الطّرح[5]. غير أنّ المهمّ في هذه النّصوص الشّعريّة هو تعبيرها عن هذا الصّراع، وإبرازها ما تركه من آثار كانت نتائجها سلبيّة على المسلمين عامّة.

---

(١) اللأواء: الشدّة.

(٢) هو راجح بن إسماعيل بن أبي القاسم الحليّ الأسديّ، مدح ملوك الشّام ونادمهم، توفي في دمشق سنة ٦٢٧هـ. انظر: ابن العديم، بغية الطلب: ٨/ ٣٥٣٩؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ٧٢.

(٣) هو أبو الفتح مظفّر الدين، ابن الملك العادل، ملك الرّها أيّام أبيه، ثم دمشق، وفيها توفي سنة ٦٣٥هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٠٠.

(٤) ابن العديم، بغية الطّلب: ٨/ ٣٥٤٥.

(٥) من الشّواهد التي تمثّل انحيازاً بيّناً في الموقف أبيات لشرف الدين الأنصاريّ، من قصيدة قالها في مناصرة الملك المظفّر الثاني (ملك حماة) حين تمكّن من أخذ قلعة (بارين) من أخيه الملك الناصر، ملحقها بمملكته حماة. انظر: شرف الدّين الأنصاريّ، ديوانه: ١٦٣.

جـ- شعر الهجاء والدّولة الفاطميّة:

شهدت الفترة الأخيرة من حكم الدّولة الفاطميّة في مصر اضطراباً شديداً، وفساداً بيّناً في شؤون الحكم. ومن الظّواهر اللافتة في هذه الفترة تعاظم شأن «الوزارة» وأهميتها؛ إذ بات الوزراء هم المتحكّمين الحقيقيّين في سياسة الدّولة ، ولم يكن للخلفاء - في هذا العهد- دور يذكر، «وظلّ ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطميّة، فقد أصبح الخلفاء الفاطميّون وراء الحجاب، ولا أمر لهم ولا نهي، إلا أن يخرجوا في مواكب أوّل العام الهجريّ ولصلاة الجمعة في رمضان وصلاة العيدين»[1].

وفي ظلّ هذا الواقع، كثر الصّراع حول الوزارة، وزاد عدد الطّامعين فيها. وقد دفع ذلك مصر إلى فوضى واضطربات مدمّرة، كانت آثارها وخيمة على البلاد التي تعرّضت -في الوقت نفسه- لأخطار خارجيّة، تمثّلت -بصورة أساسيّة- في الخطر الصّليبيّ الذي تمكّن -في هذا الوقت- من السّيطرة على ممتلكات مصر الفاطميّة في بلاد الشّام، دون أن تستطيع له دفعاً[2].

ولم يكن الشّعراء بمنأى عن هذه الأحداث السيّاسيّة؛ فقد رصدوا بعضها ، وعبّر كلّ عن موقفه المساند لهذا الجانب أو ذاك ؛ فحين غدر عبّاس الصّنهاجي[3] وابنه

---

(١) شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (مصر) : ٢٥.

(٢) فايد حمّاد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، (العصر الفاطميّ والسلجوقيّ والزنكيّ): ١١٦-١٢٤.

(٣) هو أبو الفضل عبّاس بن يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس، قتل سنة ٥٤٩هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤١٧ (ترجمة ابن السّلار).

بدر بالخليفة الظّافر[1] وتآمرا على مقتله سنة ٥٤٩هـ[2]، وجد ابن الدّهان الحمصيّ في ذلك مناسبة للنّيل من عبّاس، والتّنديد بفعلته تلك، يقول[3]:

. . ولمّا رأى عبّاسُ للغَدْرِ مذْهَباً وأَظْهَرَ ما قدْ كانَ عَنهُ يُنافقُ

وأَنْفَقَ منْ أنعَامِهمْ في هَلاكِهمْ جَزَاءً به عمري خَليقٌ ولائقُ

ومَدّ يَداً هُمْ طوّلوها إليهمُ وَحَلّتْ بأهلِ القَصْرِ منهُ البَوَائقُ

وفي المناسبة ذاتها، يستوحي القاضي ثقة الملك بن جرادة[4] أحداث التّاريخ، فيحمل على عبّاس، وينعته بالغدر والظّلم، وذلك من قصيدة يمدح بها الصّالح بن رزّيك، حين قام بنصرة أهل القصر من الفاطميّين بعد ما حلّ بهم من قتل وتعذيب، يقول[5]:

. . حامل الأعباء عن أهلِ العَبا آخذٌ بالثّأر منْ باغٍ وَعَادِ

من عُصاةٍ أَضْمَرُوا الغدْرَ فهمْ أَهلُ نصبٍ ونِفَاقٍ وعِنَادِ

قَتَلُوا الظّافرَ ظُلْما وانتحوا لبني الحافظِ[6] بالبيضِ الحِدادِ

---

(١) الظافر هو: أبو منصور إسماعيل بن الحافظ، تاسع الخلفاء الفاطميين، قتل سنة ٥٤٩هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٥/٢٨٨.

(٢) أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق فيليب حتّي، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠م: ٢٥.

(٣) ابن الدهان، ديوانه: ٢٢٩.

(٤) هو القاضي ثقة الملك الحسن بن علي بن أبي جرادة، شاعر من أهل حلب، سافر إلى مصر، وكان على صلة بالوزراء فيها، توفي سنة ٥٥١هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): ٢/١٩٧.

(٥) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): ٢/١٩٩.

(٦) الحافظ هو أبو الميمون عبدالمجيد، الخليفة الفاطميّ الذي سبق الظافر، ولي الخلافة سنة ٥٢٥هـ، وتوفي سنة٥٤٤هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/٢٣٥؛ والإشارة هنا إلى ولدي الحافظ (يوسف وجبريل) اللذين قتلهما عباس. انظر المصدر نفسه: ٣/٤٩١.

واعتدى عبّاسُ فيهمْ وابنُهُ فـوقَ عُدْوَان يَـزيدٍ وزيـادِ

مِثْل سَفْرٍ قَتَلُوا هاديَهُـمْ ثمّ ضلُّوا ما لـهم منْ بعدُ هادِ

وقد تحوّل بعض هذا الهجاء على أيدي شعراء آخرين إلى مادّة من التّحريض؛ وذلك على نحو ما يبدو من أبيات للقاضي الجليس بن الجباب الذي يحثّ الصّالح بن رُزّيك، على إدراك ثأر الخليفة الظّافر وأهله. مذكّراً -في سبيل تحقيق هذه الغاية- بمصرعهم، وما يمكن أن يكون له من تأثير عاطفيّ مؤثّر[1]:

فأينَ بنو رُزّيك عنها ونصـرهم ومَا لهـمُ مِنْ منعةٍ وزيادِ

فَلَوْ عَايَنَتْ عَيْناكَ بالقَصْرِ يَوْمَهُمْ وَمصْرَعَهُمْ لمْ تكتَحِلْ برقَادِ

تداركْ من الإيمانِ قبـلَ دُثُورِهِ حُشاشةَ نَفْسٍ آذنـتْ بنفاد

فمزّقْ جُمُوعَ المارِقـينَ فإنّـها بقـايا زُرُوعٍ آذَنـتْ بِحَصَادِ

وحين يتحقّق لطلائع الظّفر بخصومه والانتصار للخليفة الفاطميّ وأهله[2]، ينبري بعض الشّعراء لتسويغ هذا الموقف ومباركته؛ فهذا الشّريف أسعد بن الجوانيّ[3]، يُبدي تشفّيه بمقتل عبّاس بهذه السّخرية التي تتبدّى من خلال مخاطبته طلائعا قائلا[4]:

لئن كُنتَ قدْ نجّيْتَ عبَّاسَ منْ ظُبا فَرَنْجَةَ لمّا لم يَجدْ عَنْكَ مُسْتَعفَى

وأنْقَذْتَهُ منْ أَسرهِ وهـو ذاهـلٌ يردُّ عنِ الأهوالِ في المأزقِ الطَّرفا

---

(١) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام) :١/ ١٩٠.

(٢) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ١/ ٣٠٩.

(٣) هو الشريف محمد بن أسعد علي بن معمر الجواني، نقيب الأشراف بالديار المصريّة، توفي سنة ٥٨٨هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): ١/ ١١٩؛ الصّفدي، الوافي بالوفيات: ٢/ ٢٠٢.

(٤) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر) : ١/ ١١٩.

فقدْ سُقتَهُ إذْ فرَّ منكَ إلى مدىً تمدُّ مُـداهُ نحو مُقْـلَتِهِ الحَتْفَا

وما فرّ من وَقْعِ الأسنَّة صاغِراً وجدُّكَ إلا حينَ لمْ يَرَ مُستَخْفَى

ولا يحتاج الأمر كبير عناء لمعرفة سبب موقف الشُّعراء السّابقين من تلك الحادثة، فقد كان أغلبهم من شعراء الملك الصّالح طلائع وحاشيته المقرّبة. وكان هجاؤهم في هذا الجانب، عرضيّاً جاء في سياق مدحهم له. ومن الطبيعيّ -إذن - أن يدافع كلّ منهم عن شرعيّة سيِّده، وأن يتبنّى من المواقف ما يخدم توجّهه ، ويرضي هواه. غير أن الإنصاف يقتضي أن نشير أيضاً، إلى أنّه ربّما كان لمواقف طلائع الجهاديّة أثر في استمالة قلوب الشُّعراء نحوه، وبخاصّة إذا استحضرنا جانباً من رسائله الشّعريّة مع أسامة بن منقذ، وما كان يتخلّلها من دعوة صريحة إلى الجهاد وتحرير المقدَّسات[1].

وبعد أن تمكّن طلائع بن رُزّيك من الثّأر للخليفة الظّافر، واستقرّ في كرسي الوزارة ، لم تلبث أن ظهرت في عهده بعض الفتن والثّورات الدّاخليّة، كثورة (طَرْخان) في الإسكندريّة[2] التي سرعان ما يتمكّن من إخمادها والقضاء عليها. وفي ذلك يقول أحد الشّعراء معرِّضاً بطَرْخان هذا الذي لم يكتب لثورته النّجاح[3]:

لَقَدْ طمحتْ بطرخانٍ أمانٍ لهُ ولمـثلِهِ فيـها بَـوَارُ

وحاولَ خطّةً فيها شماسٌ علَى أمْثَـالِهِ وبـها نِـفـارُ

أتتْكَ بخائنٍ قدَماهُ سعْياً كما يسعَى إلى الأَسدِ الحمارُ

ولعمارة اليمنيّ في طَرْخان بعدما تمّ صلبه أبيات تتضمّن براعة واضحة في

---

(١) عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة: ٤٠-٤٢.

(٢) عمارة اليمني، النكت العصرية: ١١٣.

(٣) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): ١/١٩٢؛ وفي هجاء طرْخان انظر أيضاً: ابن الدهان، ديوانه: ١١٨-١٢٢.

التّصوير ، وهي قوله[1]:

أراد عـلوَّ منـــزلةٍ وَقَـــدْرٍ فأَصْبحَ فوقَ جِذْعٍ وهو عَالِ

ومدَّ على صليبِ الجذْعِ منهُ يمِيْـناً لا تطولُ على الشّمالِ

ونكّسَ رأسَهُ لِعِـتَابِ قلْـبٍ دَعَـاهُ للغـــوايةِ والضّـــلالِ

ومن الثّورات الدّاخلـــيّة التي شهدها عهد طلائع بن رزّيك أيضاً، ثورة بَهْرام الغُزّي[2] الذي حاول الاستقلال بالصّعيد، غير أنّ ثورته تنتـــهي بالفـــشل كسابقتها، وقد سخر عمارة اليـــمنيّ من تمرّد بَـــهْرام، وصوّر العاقبة التي انتهى إليها بقـــوله[3]:

. . لمّا تمـــــرَّدَ بَهْـرَامٌ وأُسـرَتُـهُ جَهلاً، وراموا قِراعَ النَّبعِ بالغَرَبِ

صَدَعتُ بالنّاصرِ المحيي زُجاجتَهم وللزُّجاجةِ صـدعٌ غيرَ مُنْـشَعِبِ

ظنّوا الشَّجاعةَ تُنْجيهم فقارعهـم أبو شُجاعٍ قريعُ المجدِ والحـسَبِ

سُقُوا بأَسْكَرَ سكْراً لا انقضـاءَ لهُ مِنْ قَهْوَةِ الموت لا مِنْ قَهْوةِ العِنَبِ

وحين تطال لعنة الوزارة طلائعاً نفسه، ويقتل بتدبير من عمّة الخليفة العاضد سنة ٥٥٦هـ[4] ، ينبري عمارة للنّيل من قاتليه، والتّعريض بهم، مستثمراً -في ذلك- البعد الدّينيّ استثماراً واضحاً؛ «فالإله» قد غضب على هؤلاء القتلة الذين يقرنهم بعقّار «ناقة

---

(١) عمارة اليمني، النكت العصرية: ٤٧؛ وللاستزادة انظر: ١١٣-١١٤.

(٢) المصدر نفسه: ٤٦.

(٣) عمارة اليمني، المختار من ديوانه (ضمن كتاب النكت العصرية): ١٦٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٢٧٤؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: ١/ ٣٩٠.

صالح»، وطلائع قد حلّ بعد قتله في «دار الكرامة» ، بينما حلّ قاتلوه في «البوار والنّار». وأخيراً فقد أوقع «القصاص» بهم، على الرّغم من فظاعة جرمهم الذي لا يعادله عقاب حسب ما يذهب[1]:

. . غَضِبَ الإلهُ علَى رجالٍ أقدَموا جَهْلاً عليهِ وآخرين أشارُوا

لا تَعْجَبَنْ لقُدارَ ناقةَ صالحٍ فلكلِّ عصْرٍ صالحٌ وقُدارُ

أحللْتَ دارَ كرامةٍ لا تَنقَضي أبداً وحلَّ بقاتليكَ بوارُ

وقَعَ القِصاصُ بهم وليسوا مُقنِعاً يرضى وأيْنَ من السَّماءِ غُبارُ

ضاقتْ بهمْ سِعَةُ الفِجاجِ وربّما نامَ الوليُّ ولا يَنَامُ الثّارُ

وكما كانت الأحوال السّياسيّة في مصر ، تمرُّ بمثل هذه الفوضى والاضطراب ، في أواخر حكم الدّولة الفاطميّة، كان بعض الشّعر يعيش حالة شبيهة بتلك إلى حدّ ما؛ فقد استغلّ الشّعراء الظّروف ، وانساقوا وراء المنتصر، يعظّمونه ويقلّلون من شأن خصومه، وكأنّهم بذلك كانوا يسيرون على نهج خلفائهم الفاطميين الذين كانوا «إذا غلب شخص صاحب المنصب، وعجز صاحبُ المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقّعوا للقاهر منهم، ورتّبوه ومكّنوه، فإن قوّتهم إنّما تكون بعسكر وزيرهم»[2]. ولعلّ مثل هذا قد اتّضح في مجمل ما ورد من شواهد ، ويتّضح مثله لدى ابن النّحاس[3] الذي ينتقص من قدر «آل رزّيك» حين زالت وزارتهم، وآلت إلى شاور، وذلك إذ يقول من قصيدة

---

(١) عمارة اليمني، النكت العصرية: ٦٤.

(٢) أبو شامة، كتاب الرّوضتين : ١/٤٠٦.

(٣) هو يحيى بن علم الملك المعروف بابن النّحاس المصريّ، كان من المقرّبين في عهد ابن رزّيك وولده، ثم في عهد شاور، وقد خدم صلاح الدّين، توفي سنة ٥٨٩هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): ١٢١/٢.

له في مدح طيّ بن شاور[1]:

يا ابْنَ مَنْ خلَّصَ الخلائقَ مِنْ ظُلْـ ـمِ وَعَسْفٍ وفكّهُمْ فاستراحوا
وغـــزَا في ديـــارهم آلَ رُزِّيْـــ ـكٍ فَلَمْ يُغْنِ جمعُهم والسِّلاحُ
أَيْنَ وَرْدٌ وبـــائـــسٌ وحُسْـــامٌ رأَوا الذّلَّ قدْ أحـــاط فراحُوا
فرَّ بدْرٌ في البَـحْرِ خَـوفاً وولّى قُلْ لهُ لا اهتدى بك المـلاحُ

ويشغل هجاء شاور السّعديّ حيّزاً واضحاً من شعر الهجاء في هذه الفترة؛ ولعلّ ذلك يعود إلى ما صدر عنه من مواقف تركت أثراً سيّئاً في نفوس الشّعراء، كان أبرزها تنكّره لجند الشّام الذي قدم لمعاونته على خصمه ضرغام[2]، واستعانته -في سبيل ذلك- بالفرنجة[3]. ويلاحظ أنّ أغلب الشّعراء الذين حملوا على شاور، وعرّضوا بمواقفه تلك كانوا شاميّين، بدت مساندتهم لأسد الدّين شيركوه (قائد الحملة الشّاميّة)، وابن أخيه صلاح الدّين واضحة؛ فالعماد الأصفهانيّ، يحمل -من قصيدة في تهنئة أسد الدّين

---

(١) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): ٢/ ١٢٣؛ وتعبّر عن مثل هذا الموقف أبيات لعمارة اليمنيّ في مناصرة شاور نفسه، حينما ثار عليه يحيى بن الخيّاط في الصعيد ، وذلك إذ يقول من قصيدة يمدح بها شجاع ابن شاور، ويعرّض فيها بابن الخياط:

. . جلبْتَ إليه عُصبَةً كاملـــيَةً بأمثالهم تُبْـــنَى المعـالي وتُـهْدمُ
إذا نطَقَتْ يومَ الجلاد سيوفُـها فإنّ لســـانَ النَّـصرِ فيهنّ يُفْـهَمُ
تَريكَ سنا الإصباح منها أســـنّةً حكتْهنّ في ليْل العجـاجة أنْجُـمُ
صدمْتَ بها يَحْيَى وقد كاد أمْرُهُ وتدبيـرُهُ الثـــاني يُتَـــمُّ ويُـــبْرَمُ
فعثّرتَ مَسْعاهُ وأطـــفأتَ نارَه وعوّقْتَ مجرى سيْلهُ وهو خِضْرِمُ
ولم يقدم الفُسطاط إلا وعـزمُهُ يؤخّـــر رِجْـــلاً خَـوفُه ويُـقـدّمُ

انظر: عمارة اليمني، المختار من ديوانه (ضمن كتاب النكت العصريّة): ٣٤٨-٣٤٩؛ وفي ثورة ابن الخياط انظر المصدر نفسه: ٧٨.

(٢) هو أبو الأشبال ضرغام بن سوّار اللخميّ، خرج على شاور، إلا أنّه قتل سنة ٥٥٩هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٤٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٢٩٩.

شيركوه وتقلّده الوزارة في مصر سنة ٥٦٤هـ- على شاور، منددّاً بتواطئه مع الفرنج[١]:

. . مِنْ شرِّ شاورَ أنقذتَ العبادَ فكَمْ وكَمْ قَضَيْتَ لحزْبِ اللّهِ مِنْ أربِ

هو الّذي أَطْمَعَ الإفرنجَ في بَلَدِ الـ إسلامِ حتّى سَعَوْا للقَصدِ والطَّلَبِ

أمّا عرقلة الكلبيّ، فيحتدّ في هجاء شاور؛ إذ يصمه بالبغي والطّغيان، ويدعو له بسوء الخاتمة. وذلك إذ يقول من أبيات له في مدح صلاح الدّين حين تمكّن من قتله (شاور)[٢]:

هو الأَسدُ الضَّاري الّذي جلَّ خَطْبُهُ وشاورُ كلـــبٌ للرِّجالِ عَقُورُ

بغى وطغَى حتّى لـــقَدْ قـــالَ قائلٌ على مِثْلِها كانَ اللّعـــينُ يَدُورُ

فلا رحـــم الرَّحـــمنُ تُرْبَةَ قَـبْرِهِ ولا زالَ فيهـا مُنْـــكَرٌ ونـــكيرُ

وتتصاعد حدّة الهجاء للفاطميين، حين يتمّ إسقاط دولتهم على يد صلاح الدّين سنة ٥٦٧هـ، بأمر من نور الدّين[٣]؛ إذ يندفع في هذه السّبيل كثير من الشّعراء الذين

---

(١) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٨٠-٨١؛ وللاستزادة انظر نفسه: ٨٦، ١٦١، ١٧١، ١٨١.

(٢) عرقلة الكلبي، ديوانه: ٥٢؛ وللاستزادة انظر نفسه: ٤٩، ٦٩، ١٠٨؛ وفي هجاء شاور انظر أيضاً: أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٢/ ٥٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٣٦٨؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٢/ ١٨٩ وما بعدها؛ وكان حكم صلاح الدين قد شهد منذ تولّى الوزارة بمصر قيام بعض الثورات والفتن الداخليّة التي استهدفت تقويض سلطته، غير أنّها باءت بالفشل، ومن الثورات التي عبّر عنها الشعر، واستهجن القائمين عليها، ثورة «مؤتمن الخلافة» سنة ٥٦٤هـ، وللعماد الأصفهانيّ في ذلك أبيات أشير لها لغاية تاريخيّة، على الرغم من قلّة قيمتها الفنيّة، ومنها قوله:

. . مُؤتمنُ الخلافة خَانَ حتّى غَـالتْهُ منْ شرِّه غَوائلْ

عا مَلَكُمْ بالخَنَا، فاضـحى ورأسُهُ فوقَ رأسِ عَامِلْ

وحـالفَ الـذُّلَّ بَعْدَ عـــزٍّ والدّهرُ أحْوالُهُ حَوائـلْ

انظر: ديوانه: ٣٢٥-٣٢٦؛ وحول هذه الثورة انظر: ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٣٤٥؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٢/ ١٣٠؛ ومن هذه المؤمرات أيضاً ما قام به بعض الموالين للدولة الفاطميّة سنة ٥٦٩هـ، بهدف إعادة حكمها الغابر، حيث يتمكّن صلاح الدين بمساعدة بعض رجالاته من كشف أمرهم قبل أن يتمّ، فيأمر بصلبهم، وكان من جملة المصلوبين الشاعر عمارة اليمنيّ، ولأحد الشعراء أبيات فيه، منها قوله:

عمارة في الإســـلام أبْـــدى خـيانةً وبـايـــعَ فيه بِيْعةً وصلـــيبا

وأمسى شريكَ الشّرك في بُغضِ أحمد فأصبح في حُبِّ الصّليبِ صليبا

انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٦٤م: ٣/ ١٠٥؛ وللمزيد من التفصيل عن هذه المؤامرة انظر: ابن الأثير، الكامل: ٣٩٨-٤٠١؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: ٢/ ٢٨٢-٢٩١؛ ابن واصل، مفرج الكروب: ١/ ٢٤٣ وما بعدها.

وجدوا في هذه الأجواء مجالاً رحباً لهجاء الفاطميين ونقد معتقداتهم. وقد كان دافع هذا الهجاء -في معظمه- مذهبيّاً، تمثّل في موقف الشّعراء الرّافض لمذهب هذه الدّولة الشّيعيّ. ومن يستقرئ هذا الشّعر ، يتبيّن مدى العداء الذي حمله هؤلاء الشّعراء لتلك الدّولة. فهناك من رأى في هذا الحادث «تطهيراً» لمصر من «الشّرك» الذي «دنّس» منابر مساجدها[1]، وهنـاك من نعت أرباب هذه الدّولة بالـزّندقة والمجوسـيّة والكفر[2]، وبلغ الأمر بأسامة بن منقذ حين قطعت الخطبة للعاضد، إلى القول مخاطباً صلاح الدّين[3]:

فما أَنْتَ إلا الشَّمْس، لولاكَ لم تَزَلْ على مِصْرَ ظلْماءُ الضَّلالةِ سـرْمَدَا
وكانَ بها طُغيانُ فِرْعـونَ لم يَـزَلْ كمـا كان لـمّا أنْ طَغَـى وتمرَّدَا
فبصّرْتَهُـمْ بعدَ الغَـوايةِ والعَـمَى وأَرْشدْتَهُمْ بَعْدَ الضَّلالةِ إلى الهُدى

أما العماد الأصفهانيّ، فقد كان له في هذه المناسبة هجاء كثير، انصبّ أغلبه على وصم الفاطميين بالضّلال والكفر؛ وذلك على شاكلة قوله من قصيدة يمدح بها نور الدّين ، ويهنّئه بملك مصر[4]:

. . وأَصبحَتْ بِكَ مِصرُ بعْدَ خيْفتِها لـلأَمْنِ والعزِّ والإقبال كالحـرَمِ
والسُّنَّةُ اتّسقتْ، والبِدعَةُ امحـقتْ وعَاودَتْ دولةُ الإحسانِ والكَرَمِ

وقوله في هجاء الخليفة العاضد حين توفّي ملصقاً به أشنع الأوصاف وأقبحها[5]:

---

(١) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدّريّة في السّيرة النوريّة: ١٩٩.

(٢) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٢/ ٢٢٣.

(٣) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٢/ ١٢٧؛ ولم ترد الأبيات في ديوانه.

(٤) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٣٨١.

(٥) المصدر نفسه: ٣٧٦؛ وللاستزادة: ٨١، ١٧١، ١٩٤، ١٩٨-٢٠٠.

توفي العاضـــدُ الدَّعـــيُّ فَما يَفـتحُ ذو بدعَـــةٍ بمـــصْرَ فَمَـــا

وعصْرُ فرْعَوْنِها انـقضى وغَدَا يُوْسُفُـــها فـــي الأُمُورِ مُحْتكـما

وانطفأتْ جمرَةُ الغُواةِ، وقـد باخَ[1] من الشِّركِ كلّ ما اضْطَر ما

ومن الطّبيعيّ أن يكون الأمر كذلك؛ فالعماد يُعدّ -كما يقال اليوم- النّاطق الرّسميّ باسم دولة نور الدّين السُّنيّة. كما أنّ ولاءه للخلافة العبّاسيّة بيّن لا يخفى[2].

ومن الواضح أنّ هذه الأشعار تفصح عن موقف واحد، هو موقف شعراء السّنّة من الدّولة الفاطميّة. وهو موقف ينطوي - فيما يبدو لي - على قدر من النفاق السياسي الذي حاول هؤلاء الشعراء استثماره لتحقيق بعض المكاسب والمنافع الشخصية.

---

(١) باخ: من باخت النّار: سكنت، وفي الديوان: "باح" ولعلّه تحريف، وأثبتُّ ما رأيته أقرب إلى المعنى.

(٢) يتضح هذا -مثلاً- من مدائحه الكثيرة لخلفاء بني العبّاس. انظر -على سبيل المثال- ديوانه: ٦٤، ٧٤، ١٥١، ١٩٨، ٢١٧، ٢٦٩، وغيرها.

ثانيا: في الصّراع الخارجيّ:

أ- هجاء الفرنجة:

كان للغزو الصّليبيّ لبلاد الشّام صدى ملموس في الشّعر العربيّ إبّان الحروب الصّليبيّة؛ فقد صوّر الشّعراء كثيراً من الجوانب المرتبطة بهذا الغزو ، منذ بداية ظهوره في المنطقة، وحتّى اجتثاثه منها نهائيّاً. وتحمّل الشّعراء دورهم في المقاومة والتّحريض من خلال الكلمة التي كان لها أثر فاعل في استثارة المسلمين، ودفعهم إلى مقاومة هذا الخطر الدّاهم والتّصدّي له؛ ولعلّ في قول صلاح الدّين ما يؤكّد أهميّة الكلمة وأثرها في عمليّة الجهاد؛ وذلك حين يقول في الإشادة بدور القاضي الفاضل وأثره في هذا المجال: «لا تظنُّوا أنّي ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل»[1].

وقد أولى بعض الدّارسين المحدثين -في مجال الدّراسات الأدبيّة- هذا الغزو عنايتهم واهتمامهم، وتتبّعوا أصداءه، وآثاره في الأدب. وتناول قسم من دراساتهم -في معرض الحديث عن قضايا هذا الغزو المتعدّدة- الصّورة التي رسمها الأدب لهؤلاء الغزاة[2]. وستقتصر هذه الدّراسة -اتّفاقاً مع منهجها- على جانب محدّد، هو إبراز الصّورة السّلبيّة (الهجائيّة) التي تبدّت في شعر هذه الفترة للصّليبيين.

---

(١) ابن تغري بردي، النّجوم الزاهرة: ٦/ ١٥٧.

(٢) من هذه الدراسات التي أفاد منها البحث في هذا الجزء منه:

- محمود عبدالله أبو الخير، الشّعر الشّاميّ في مواجهة الصّليبيّن، رسالة دكتوراة مخطوطة، جامعة الأزهر، ١٩٧٩م: ٢٠١-٢٣٣.

- محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبيّ في شعر ابن القيسرانيّ: ١٦١-١٦٩.

- عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصّليبيّة: ١٣٢-١٦٠.

- شفيق الرقب، الشّعر العربيّ في بلاد الشام في القرن السّادس الهجريّ، ط١، دار صفاء للطباعة والنشر، عمان، ١٩٩٣م: ٥٤-١٠٨.

وواضح من عناوين الدّراسات السّابقة أنها لم تقصد الموضوع لذاته؛ وإنما جاء تناولها له وفق محاور أخرى.

وعند استقراء الشّعر الذي قيل في هجاء الصّليبيين ، يلاحظ أنّه لم يكن يشكّل موضوعاً مستقلاً بذاته، وإنّما كان يرد -غالباً- في قصيدة الجهاد ضمن موضوعات أخرى، كالمديح، والرّثاء، وتصوير الانتصارات التي حقّقها المسلمون، وغير ذلك؛ ولذا يتوجّب على الدّارس -لغاية منهجيّة- أن يجتزئ هذا الشّعر من قصائد الجهاد، لاستخلاص مضامينه وأبعاده المختلفة.

-١-

وقد تعدّدت المضامين الهجائيّة التي عبّر عنها هذا الشّعر. وأبرز ما يستوقف القارئ منها. ذمُّ الشُّعراء لعقائد الصّليبيين، وازراؤهم بها. وليس مثل هذا المعنى بمستغرب، إذا ما علم أثر العامل الدّينيّ وأهميّته في إشعال أوار هذه الحروب، واستفحال أمرها؛ فقد كان لرجال الدّين في الجانب الصّليبيّ دور في استثمار هذا العامل وتوظيفه، من أجل استثارة مشاعر النّاس وتعبئتهم ضد المسلمين[١]. وفي المقابل وجد المسلمون في هذا الغزو الطارئ، تهديداً لدينهم الذي بات مستهدفاً في هذه الحروب الطّاحنة. وكان لا بدّ -والحالة هذه- أن يتمحور بعض هذا الهجاء بين الجانبين، حول «العقيدة»؛ إذ حاول كلّ جانب أن ينال من عقيدة الآخر ويغضّ منها. ويهمّنا هنا أن نتعرّف على ما جاء في هذا الهجاء لدى الشّعراء المسلمين الذين كان دورهم -في هذا الاتّجاه- واضحاً.

فمن المعاني التي رمى الشّعراء بها أعداءهم، وصمهم بالكفر والضّلال. وذلك على نحو ما يبدو -مثلاً- في قول ابن القيسرانيّ من قصيدة له في مدح نور الدّين، قارناً الفرنجة بقوم عاد في بغيهم وضلالهم[٢]:

---

(١) محمد علي الهرفي، شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبيّة، ط٣، مؤسسة الرّسالة ، بيروت، ١٩٨٠م: ١٩، ٣٥؛ فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، ط١، دار الشروق، عمان، ١٩٩٠م: ٣١ وما بعدها.

(٢) ابن القيسرانيّ، شعره: ١٥١-١٥٢.

. . وَصَارِمُ الإسْلامِ لا ينْثني إلا وشلو الكُـفْرِ مَقْـدُودُ

وإنّما الإفْـرنجُ منْ بغيـها عـادٌ وقدْ عـادَ لهُمْ هُـوْدُ

ويتردّد -بصورة لافتة- نعت الشّعراء للصّليبيين بالشّرك والطّغيان. وذلك كقول العماد الأصفهانيّ، في معرض مدحه لصلاح الدّين من قصيدة بمناسبة فتح بيت المقدس[1]:

. .أحيا الهُدَى، وأَمَاتَ الشّركَ صارمُهُ لقدْ تجلّى الهُدى، والشّركُ منْجابُ

بِفَتْحِهِ القُدْسَ للإسلامِ قد فُتحتْ فـي قمْـعِ طاغيةِ الإشْراكِ أبْوابُ

وذهب بعض الشُّعراء -في سياق تعريضهم بعقائد الصّليبيّين- إلى السُّخرية من مقولتهم «بالتّثليث»، وغالباً ما يرد ذلك على شكل مقابلة بين هذا التّصوّر والتّصوّر الإسلاميّ الدّاعي إلى التوّحيد. ومن هذا القبيل قول فتيان الشّاغوريّ من قصيدة يصوّر فيها الحال التي آل إليها العدوّ على يد صلاح الدّين في إحدى معاركه[2]:

. .أهْدَاهُمُ التّثليثُ للتّوحيـدِ يَوْ مَ لقيْتَهُمْ فَقَسَمْتَهم أثلاثَا

ومثل هذه المقابلة، تظهر على نحو أكثر تفصيلاً لدى ابن عُقيْل الزُّرعيّ الذي يسوق مجموعة من المعاني المرتبطة بعقيدة الصليبيين؛ ليقارنها -بهدف الإزراء والتّحقير- بمعانٍ أُخرى مرتبطة بالعقيدة الإسلاميّة؛ وذلك كقوله مخاطباً ممدوحه، من قصيدة يعرّض فيها بإحدى هزائم الإفرنج[3]:

. .نكّسْتَ صُلباً لهمْ من بَعْدِ ما رُفعتْ إنَّ الصَّليبَ بحمْدِ اللّهِ مكْسُورُ

---

(١) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٧٥.

(٢) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: ٦٩؛ وفي المعنى نفسه انظر: الجلياني، ديوان المبشرات: ١٣٤؛ ابن منير، ديوانه: ٢٤٥.

(٣) ابن عقيل الزُّرَعي، المختار من ديوانه (مخطوط): ٢٠.

وقابل الإفك والتّثليث إذْ كفرُوا لدَيْك للحقّ تهليلٌ وتكبيرُ

وما تلا النّصر منْ آياته سِوَراً إلا وذلّتْ لديهنّ التّصاويرُ

وفي معرض التّنديد بديانة الصّليبيين، أكثر الشّعراء من وصم عقائد أعدائهم، بالشّذوذ والانحراف. فهم طوراً "عُبّاد الصّليب" كما يبدو من قول فتيان الشّاغوريّ من قصيدة له في مدح الملك الأفضل[1]:

. . وَسَل عنهُ عُبّادَ الصّليبِ وخَيلُهُ سواهمُ منْ تَحْت العجاجِ لها نحْطُ[2]

وهم طوراً آخر "عبّاد عيسى"، على حدّ وصف شهاب الدّين محمود الذي يخاطب ممدوحه بمناسبة فتح عكّا سنة ٦٩٠هـ، قائلا[3]:

أغضَبتَ عُبّادَ عيْسى إذْ أبدتَهُمُ للّه أيُّ رضىً في ذلك الغَضَبِ؟

ولكنّ الشّعراء - مع هذا - قد فرّقوا بين الدّيانة المسيحيّة المتمثّلة في رسالة عيسى عليه السّلام السّامية، وبين ما لصق بها من زيادة وتغيير. وقد عبّر عن مثل هذه الفكرة، طلائع بن رزّيك بقوله[4]:

. . لو رآهُ المسيحُ لم يَرْضَ فِعْلاً زَعَمُوا أنّه لَهُ مَنْسُوبُ

أبعَدُ النّاسِ عنْ عبادةِ ربِّ النـ ـنَاسِ قومٌ إلههُمْ مَصْلُوبُ

ومن أجل استثارة مشاعر الجماعة الإسلاميّة في هذا الجانب، لجأ الشّعراء إلى تصوير قبح أفعال الصّليبيين، وتعدّياتهم التي طالت حتّى مقدّسات المسلمين. على نحو

---

(١) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: ٢٥٧.

(٢) نَحَطَ: زخر، وصات من الإعياء.

(٣) الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٤١٢.

(٤) طلائع بن رُزّيك، ديوانه: ٦٣.

ما يتّضح من قول شاعر مجهول، يصوّر ما حلّ ببيت المقدس من تجاوزات مشينة[1]:

وكمْ منْ مَسْجدٍ جَعَلُوهُ دَيْراً على مِحْرَابه نُصبَ الصَّليبُ

دَمُ الخنزيرِ فيه لَهُمْ خلوقٌ[2] وتَحْريقُ المصاحِفِ فيه طيْبُ

وشبيه بهذا قول ابن عُقيل الزُّرَعيّ الذي يصوّر الحال التي آلت إليها المساجد بعد احتلالها من قبل الصّليبيين. مورداً ذلك من خلال صور من المقابلات الهادفة إلى الاستثارة[3]:

كمْ مسجدٍ بالثَّغْرِ أضحى بِيْعَةً[4] يُتْلى بها الإنجيلُ بعْدَ المُصْحَفِ

ومنابرٍ أضْحَتْ صوامعَ مُشْرِكٍ باللّهِ بعْدَ مؤذّنٍ مُتَحنِّفِ

رَفَعُوا بها القُدّاسَ بعدَ تلاوةٍ وتبدَّلتْ بعدَ الخطِيْبِ بأُسْقُفِ

ولذلك لا نعدم وجود الدّعوة الدّائمة لتحرير المقدّسات وتخليصها من أيدي مغتصبيها؛ فهذا الحافظ بن عساكر، يحثّ نور الدّين -بشيء من الإلحاح- على تطهير المسجد الأقصى، وتخليصه من ربقة الاحتلال[5]:

وطَهِّرِ المسجدَ الأَقصى وَحَوزَتَهُ مِن النّجاساتِ والإشراكِ والصُّلُبِ

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٥/ ١٥٢.

(٢) خَلوقَ: ضرب من الطّيب.

(٣) ابن عُقيل الزُّرَعي، المختار من ديوانه (مخطوط): ٢٧.

(٤) البيعة: معبد النصارى.

(٥) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): ١/ ٢٧٧؛ وفي هذا المعنى، انظر: ابن القيسرانيّ، شعره: ٧١-٧٢؛ ابن النبيه، علي بن محمد (ت٦١٩هـ)، ديوانه، تحقيق: عمر الأسعد، ط١، دار الفكر، ١٩٦٩م: ١٢١.

ويتكرّر مثل هذا الإلحاح -في فترة لاحقة- على لسان العماد الأصفهانيّ الذي يذكّر صلاح الدّين بالمطلب ذاته، حين يقول[1]:

فَسِرْ وافْتَحِ القُدسَ واسْفكْ بهِ دمـــاءً متَى تُجْـرِها يَنْظَفِ

وخلّصْ منِ الكُفْرِ تلكَ البلادَ يُخلّصُـــكَ اللّهُ في المَوقِفِ

وحين يتمّ تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدّين (وهو حدث له أثره في نفوس المسلمين عامّة)، يعاود الشّعراء التأكيد على فكرة تطهير المقدّسات الإسلاميّة؛ فابن جبير -مثلاً- يرى أنّ القدس قد عادت -بعد فتحها- إلى سابق عهدها من الطّهارة؛ وذلك إذ يقول[2]:

فتَحْتَ المُقدَّسَ منْ أرْضِهِ فَعَادَتْ إلى وصْفِها الطَّاهِرِ

أما العماد الأصفهانيّ، فيربط -بأسلوبه الحافل بالصّنعة- بين تطهير المقدّسات الإسلاميّة، وعودة الشّعائر الدّينيّة التي عطّلت بسبب المحتلّين، وذلك إذ يقول من قصيدة له في المناسبة ذاتها[3]:

. . وطهّرتَهُ من رِجْسِهمْ بدمـــائهمْ فَأذْهبْتَ بالرِّجسِ الذي ذَهبَ الرِّجسا

نَزعْـتَ لباسَ الكُفرِ عنْ قُدْسِ أرْضِها وألبستَها الدّينَ الذي كـشف اللَّبسا

وعادتْ ببيتِ اللّـــهِ أحكـــامُ دينهِ فـــلا بَطْـــركاً أبقَـيْتَ فيها ولا قسّا

وقد شاعَ في الآفاقِ عـــنكَ بـشارةٌ بأنَّ أذانَ القُـدسِ قدْ أبْـطَلَ النّقسا

---

(١) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٣٠٤.

(٢) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٣/ ٣٧٥، وانظـــر أيضاً: الجلـــياني، ديوان المبشـــرات: ١٤٦، ١٤٧، ١٦٨.

(٣) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٢٣٢.

ومن المضامين الأخرى التي برزت في هذا الهجاء ، التّعريض بأخلاق الصّليبيين وأفعالهم ؛ فقد نعتهم الشّعراء بأشنع الأوصاف وأقساها. وهم في ذلك كانوا (الشّعراء) يعبّرون - من جانب- عن شعور المسلمين عامّة تجاه هذا العدوّ الغاصب. وهم -من جانب آخر- لم يجاوزوا الحقيقة في قولهم؛ ولعلّ فيما نقله كثير من مؤرّخي الفترة، ما يؤكّد عظم تجاوزات هؤلاء المحتلّين وخطورتها[١]. ومن الشّواهد الدّالة في هذا السّياق أبيات لابن الخيّاط الدّمشقي[٢] من قصيدة يصوّر فيها أنماطاً من تجاوزاتهم التي تكشف عن فظاظة خلقهم، وسوء معاملتهم المسلمين؛ وذلك إذ يقول[٣]:

بنو الشّركِ لا يُنْكرُونَ الفسـادَ ... ولا يَعْـرفُونَ مع الجوْرِ قَـصْدَا

ولا يَرْدعُونَ عن القَتْلِ نفْسـاً ... ولا يَتْرُكُونَ من الفَـتْكِ جُـهْدا

وكمْ منْ فتاةٍ بهمْ أَصبَحَـتْ ... تدُقُّ من الخَوفِ نَحْـراً وخـدّا

وأُمٍّ عـواتـقَ ما إنْ عَـرَفْـ ... ـنَ حَرّاً ولا ذُقْنَ في الليل بَـرْدَا

تكـادُ عليـهنّ منْ خِيْـفةٍ ... تَذُوبُ وَتَتْلفُ حُـزْنـاً ووَجْـدَا

فَحَامُوا على دِيْنكُمْ والحـريـم ... مُحاماةَ منْ لا يَرى الموتَ فـقْـدا

وسُدُّوا الثّغورَ بطَعْنِ النُّحـورِ ... فَـمِنْ حقِّ ثَغْـرٍ بكُمْ أَنْ يُسدّا

---

(١) حـول ذلك انظر على سـبـيل المثـال: ابن القـلانسي، تاريخ دمشق: ٢٢٢؛ ابن الأثيـر، الكامل: ١٠/ ٢٨٣-٢٨٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٥/ ١٥٠.

(٢) هو أحمد بن محمد التغلبيّ، شاعر دمشقي، توفي سنة ٥١٧هـ. انظر: العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٤/ ٥٤؛ الزركلي، الأعلام: ١/ ٢١٤.

(٣) ابن الخيـاط، ديوانه، تحـقيق: خليل مـردم بك، مطبـوعـات المجمع العلمي العـربي، دمـشق، ١٩٥٨م: ١٨٤-١٨٥.

ويعبّر العماد الأصفهانيّ - من قصيدة قدسيّة- عن سوء أخلاق الصّليبيين وفظاظتهم بقوله[١]:

أَتَوْا شُكُسَ الأَخْلاقِ خُشناً فليّنَتْ حدودُ الرِّقاقِ الخُشْنِ أخْلاقَها الشُّكْسَا

ويصوّر ابن القلانسيّ غدرهم، ونقضهم العهود، على الرُّغم مما يصدر عنهم من تأكيدها بحسن الوفاء[٢]:

نَقَضُوا هُدْنَةَ الصَّلاحِ بِجَهْلٍ بَعْدَ تأكيدِها بحُسْنِ الوَفَاءِ

فلَقوا بَغْيُهُمْ بمـــا كانَ فيــهِ مِنْ فسَادٍ بَجهـلِهُمْ واعْتداءِ

ويربط ابن القيسرانيّ الهزائم التي تعرَّض لها الصليبيون بغدرهم وخيانتهم، ، يقول[٣]:

. . خانُوا فَخَانتْ رِماحُ الطَّعْنِ أيديَهُم فاسْتَسْلَمُوا ، وهي لا نَبْـعٌ ولا غَرَبُ

كذاكَ منْ لمْ يُوَقِّ اللّهُ مُهـجَتَهُ لاقى العِدى والقَنا في كفِّهِ قَصَبُ

وقد ألحّ أسامة بن منقذ على صفة الغدر هذه، وراح يفصّل فيها القول بجملة أبيات متتابعة، من خلال تصويره غدر أحد قادتهم الذي لاقى نتيجة غدره بما يستحق من جزاء[٤]:

. . ونَحْنُ كسرْنا البَغدَوِينَ[٥] وما لمَنْ كسَـرْنَاهُ إبلالٌ يُرَجَّى ولا جَبْرُ

---

(١) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٢٣٤.

(٢) ابن القلانسيّ، تاريخ دمشق: ٥٢٤.

(٣) ابن القيسرانيّ، شعره: ٦٨-٦٩.

(٤) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٢٥٢.

(٥) البغدوين (بلدوين الثالث BALDWIN III) ملك بيت المقدس ٥٣٨-٥٥٩هـ.

Jean Richard, The Latin kingdom of Jerusalem, Translated by Jeant shirley, New York, 1953, Vol: 1. p.p. : 64-65.

نقلاً عن : شقيق الرّقب، الشّعر العربّي في بلاد الشّام: ٣٧٨ (الملحق رقم ٢).

فَسلْهُ اللعينَ الحائنَ[1] الخائنَ الذي له الغَدْرُ دِيْنٌ: ما بهِ صَنَعَ الغَدْرُ

وقدْ ضَاقَتْ الدُّنيا عليْهِ بِرُحْبِها فلمْ يُنْجِهِ بَرٌّ، ولَمْ يَحْمِهِ بَحْرُ

دَعَتْهُ إلى نَكْثِ اليمينِ وغَدْرِهِ بذمَّتِهِ النَّفْسُ الخسيسةُ والمَكْرُ

-٣-

وقد توسّع الشّعراء في هجاء ملوك الصليبيين وقادتهم، واستنبطوا -في هذا الصّدد- كثيراً من المعاني والمضامين. ولعلّ التركيز على هذا الجانب، وكثرة دورانه على ألسنة الشّعراء، يعود إلى رغبتهم في الغضّ من شأن أعدائهم من خلال الحطّ من قيمة عددٍ من رموزهم الذين كان لهم دور بارز في مجريات هذا الصّراع. إضافة إلى ما كان لبعض هؤلاء القادة من مواقف معادية للمسلمين؛ ولذا فلا غرابة أن تبرز معاني التّشفّي بالمصير الفاجع الذي آلت إليه نهاية بعض هؤلاء القادة. فحين قتل -مثلاً- الإبرنس[2] صاحب أنطاكية سنة ٥٤٤هـ، وجد الشّعراء في هذا الحدث فرصة لرسم صور تعكس شعوراً من المرارة والانتقام، فابن القيسرانيّ يورد الصّورة المنفّرة التالية لمقتل ذلك القائد[3]:

وللإبرنزِ فَوْقَ الرُّمْحِ رأسٌ توسَّدَ والسِّنانُ له وسادُ

ترجّلَ للسَّلامِ ففرّسُوه وليسَ سوى القَناةِ لهُ جَوَادُ

غَضَيضُ المقْلتينِ ولا نُعاسٌ وغَائِرُها وليْسَ به سُهَادُ

أما أرناط[4] صاحب الكرك والشّوبك الذي خلّف لنفسه ذكراً سيئاً في نفوس

---

(١) الحائن: الأحمق.

(٢) صاحب أنطاكية «كان عاتياً من عتاة الفرنج، وعظيماً من عظمائهم»؛ انظر ابن الأثير، الكامل: ١١/ ١٤٤.

(٣) ابن القيسرانيّ، شعره: ١٥٤، وللاستزادة انظر: نفسه: ٧٠-٧١؛ ابن منير، ديوانه: ٢١٢.

(٤) البرنس أرناط، صاحب الكرك، أسر في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ، وقُتل بيد صلاح الدين. انظر: ابن الأثير، الكامل: ١١/ ٤٧٠؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٣/ ٢٩٦.

المسلمين نتيجة نقضه العهود المبرمة، واعتدائه على قوافل حجيج المسلمين أثناء الهدنة[1]. فقد لقي هو الآخر -بعدما قتل بيد صلاح الدّين عقب أسره في معركة حطّين سنة ٥٨٣هـ -شماتة الشّعراء، وسخريتهم من نهايته الفاجعة هذه. وذلك على نحو ما يتبدّى من قول العماد الأصفهانيّ الذي يقدّم لحادثة قتله صورة طافحة بالازدراء والتّحقير[2]:

يا طُهْرَ سيْفٍ بَرَى رأسَ البرنسِ فقَدْ أصَابَ أعظَمَ مَنْ بالشِّركِ قدْ نَجسا

وغاصَ، إذ طارَ ذاك الرّأسُ في دَمِهِ كأنَّهُ ضفْدعٌ في المـاءِ قدْ غطَسَا

ما زالَ يعْطِسُ مزْكُوماً بغدْرَتِهِ والقَتْلُ تشمِيتُ مَنْ بالغدرِ قدَ عَطَسا

وتحدّث الشُّعراء - في هذا الإطار- عن قصّة أسر بعض القادة الصّليبيين، ورأوا في عمليّة الأسر هذه إشباعاً لرغبة تائقة للسُّخرية والاستهزاء من العدوّ، ولا سيما أنّ الأسير في هذه الحالة ليس شخصاً "عادياً"، وإنّما هو ملك كان له في الأمس القريب صولة وصولجان، وها هو اليوم مكبَّل ذليل، لا يملك من أمر نفسه شيئاً. وقد تجسّد مثل هذا الموقف على لسان ابن القيسرانيّ الذي صوّر واقعة أسر جوسلين الثّاني سنة ٥٤٥هـ، على يد نور الدّين[3]، بهذه الأبيات التي تكشف -بسخرية قاسية- عن سوء واقعه "الجديد" الذي آل إليه[4]:

ولما نَزَا بالقُمْصِ[5] عُجْبٌ هَوَى بهِ على أُمِّ رأسِ البَغْيِ والغَدْرُ عُجْبُهُ

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانيّة: ٧٨.

(٢) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٢٢٩؛ وللاستزادة انظر نفسه: ٢٣٥.

(٣) انظر في قصة أسر جوسلين، أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ١/٢٤٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب: ١/١٢٣.

(٤) ابن القيسراني، شعره: ٧٨-٧٩.

(٥) القُمص: تعريب للفظة اللاتينية (comes)، وتعني الأمير. انظر: ابن شدّاد، النوادر السلطانيّة: ٧٧ (حاشية رقم ١).

فأصبح في الحِجْلَيْنِ[1] يُنكِرُ خطوَهُ بعيدٌ على الرِّجلَيْنِ في السَّعْيِ قُرْبُهُ

تُعَـاقِبُهُ البُشْـرى بأخْذِ حُصـونِهِ فيا عانياً[2] ضَربُ البَشَائرِ ضَـرْبُهُ

تُناجي عزازٌ[3] باسمِهِ تلَّ باشِـرٍ[4] فَيَلْعَنُهُ لَعْنَ الصَّـريخِ وسبُّـهُ

فإنْ يكُنِ المقهورُ مَنْ ثُـلَّ عرشُهُ[5] فهذا عمُودُ الكُفْرِ قد طاحَ طُنْبُهُ[6]

وعن الحادثة ذاتها، عبّر أسامة بن منقذ -بنغمة لا تخلو من تحدّ وفخر ظاهرين- عن استباحة المسلمين لملك ذلك القائد وبلاده، بعدما ذهبت بنفسه الظّنون بعيداً[7]:

وَنَحنُ أَسَرنَا الجوسَـلين ولم يَكُنْ لِيَخْشَى من الأيّام نائبـةً تَعْـرُو

وكانَ يـظـنُّ الغِـرُّ أنّا نَبِيْـعُهُ بمالٍ، وكَمْ ظنٍّ به يَهْلِكُ الغِـرُّ

فلمّا استَبَحْـنا مُلْـكَهُ وبـلادَهُ ولم يبقَ مالٌ يُسْتَبَـاحُ ولا ثَغْرُ

كَحَلْناهُ، نَبْغـي الأَجْرَ في فِعْلِنا بِهِ وفي مِثْلِ ما قدْ نالَهُ يُحْرَزُ الأَجْرُ

ولعلّ لحديث أسامة "بضمير الجماعة" ارتباطا بمكانته الاجتماعيّة؛ فقد كان سيّداً من سادات العرب وأحد أمرائها. وكان - إلى جانب ذلك- بطلاً من أبطال الحروب الصّليبيّة، وأحد المشاركين في بعض جولاتها[8]؛ فكأنّه بذلك يريد أن يؤكّد لنفسه -كما يتّضح من الأبيات السّابقة- هذا الدور في تسيير الأمور والتّأثير فيها.

---

(١) الحِجْل: القيد.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) عَزَاز: بليدة فيها قلعة، ولها رستاق شمالي حلب. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤/ ١١٨.

(٤) تلّ باشِر: قلعة حصينة، وكورة واسعة شمالي حلب. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢/ ٤٠.

(٥) ثلّ عرشه: هدم ملكه.

(٦) الطّنب: الحبل يشد به البيت.

(٧) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٢٥٢.

(٨) جمال الدين الألوسي، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٦٧م.

وصوّر الشّعراء خيبة توقّعات بعض أولئك القادة الذين دفعهم غرورهم إلى "آمال عريضة" لم تقف بهم عند حدّ، فإذا هي تتمخّض -بعد ملامستها الواقع- عن نتائج عكسيّة لا تسرّ. وقد عبّر عبدالمنعم الجلياني عن شيءٍ من هذا في معرض سخريته من الكند[1] ملك بيت المقدس الذي أُسرَ في معركة حطّين، يقول[2]:

وقدْ أَقطَعَ الكِنْدُ العـــراقَ مُوَقَّعا ... فأُودِعَ سِجْناً وَسْطَ جلَّق مُؤصَدا

وأَقْسَمَ أنْ يَسْقي بدجـــلةَ خَيْـلَهُ ... فما وَرَدَ الأُردنَّ إلاّ مُصَـــفَّـدَا

فكمْ واثقٍ خجلانَ قَهْقَهَ خَصْـــمُهُ ... وكَمْ سائقٍ عَجْلانَ قَهْقَرَ مـقـعدا

أتى الكِنْدُ مِنْ إسبانَ يَحْمِي قمامةً ... فكانَ تقضّي مُلْكِهِ قَبـل يُبْـتَدى

وحين يؤسر لويس التاسع ملك فرنسا في معركة المنصورة سنة ٦٤٨هـ، ويسجن بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء، بعد أن يهزم جيشه شرّ هزيمة. يجد ابن مطروح في هذه الحادثة مناسبة للتّعبير عن سخريته من خيبة آمال ذلك الملك الذي لم يقدّر الأمور حقّ قدرها، فآلت حاله إلى الضّياع والخسران[3]:

قدْ جئتَ مِصْراً تبْتَغي مُلْكَهَا ... تَحْسبُ أنَّ الزَّمرَ -يا طَبْلُ- رِيْحْ

فساقَك الحَيْنُ إلى أَدْهَـــمٍ ... ضاقَ به عنْ نَاظـريك الفَسِيْحْ[4]

رُحْتَ وأصحابُكَ أوْدَعْتَهُمْ ... "بِحُسْنِ تَدْبِيْرِكَ" بَـطْنَ الضَّـرِيحْ!

---

(١) الكند (جي دي لوزنان Guy delusignan) ملك بيت المقدس من ٥٨٢-٥٨٣هـ. من قادة معركة حطين وأسر فيها :

Zoe Olden bourges, The Crusades, London, 1966, p.p: 190-197.

نقلاً عن: شفيق الرّقب، الشّعر العربيّ في بلاد الشّام: ٣٧٨ (الملحق رقم ٢).

(٢) الجلياني، ديوان المبشرات: ١٤٠.

(٣) ابن مطروح، شعره: ٤٩-٥٠.

(٤) الحين : الهلاك، أدهم : قيد.

خمسون ألفاً لا يُرى مِنْهُـمُ إلا قتيلٌ أو أسيـرٌ جَرِيـحْ

فردّك اللّـهُ إلى مِثْـلِـها لعلَّ عيسى منكمُ يستـريـحْ

وقُلْ لهُمْ إنْ أضْمَرُوا عَـوْدَةً لأخْـذِ ثارٍ أو لقصدٍ صحيحْ

دارُ ابنِ لُقمانَ على عَهْدِها والقَيْدُ باقٍ والطّواشي صَبيحْ[1]

وفي الأبيات سخرية مؤثّرة، تكشف عن قدرة الشّاعر، وتمرّسه في هذا الفنّ من القول؛ فانظر -مثلاً- إلى التهكّم في قوله: «أودعتهم بحسن تدبيرك...» وإلى الدّعاء الذي خرج عن مقصده في: «فردّك اللّه إلى مثلها...» ثمّ في المفارقة التي تجسّدت من خلال تصوير النّهاية التي انتهى إليها كلّ من الملك وجيشه الضّخم. ومن الواضح أنّه لم يكن ليتأتّى لهذه الأبيات، مثل هذه الإصابة وهذا التّأثير، لو جاءت بصورة تقريريّة مباشرة، على نحو ما يظهر -مثلاً- من قول نجم الدّين بن المجاور[2] الذي يبدو أنّ انقياده لعواطفه الثّائرة قد أفقد ما في شعره من تأثير وإيحاء؛ وذلك حين يخاطب ملك انكلترا، ريكاردوس قلب الأسد متوعّداً[3]:

يا صاحِ قُلْ للإنـكـتيرِ الكَلْبِ دَعْ عَنْكَ الجنونَ وخُذْ مقالةَ مُنْصِفِ

القُدْسُ ما فيه لِسَرْجِكَ مَطْـمعٌ كلا ولا نُورُ الإلهِ بمُنـطَـفِي

والمسجدُ الأقصى فَعَنْهُ تقـصَّ منْ وقْعِ الدَّبابيسِ الأليـمةِ تَعْرِفِ

واسْتَفْتِ نَفْسَكَ فهيَ أخْبَثُ ناصِحٍ واتْـرُكْ مُتَابَعةَ اللّـجاجِ المُتْلِفِ

---

(١) من خدم الملك الصالح أيوب، عُهدَ إليه بحراسة ملك فرنسا لويس التاسع حينما أسر وأودع السّجن في دار القاضي ابن لقمان. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/٣٦٦.

(٢) هو نجم الدين بن مجاور يوسف بن الحسين، من بيت مشهور بدمشق، عمل في خدمة السلطان صلاح الدين، ثم ابنه العزيز، يُذكر أنه توفي سنة ٦٠١هـ. انظر: ابن سعيد الأندلسي، الغصون اليانعة: ١٩-٢٥.

(٣) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: ٤/٣٢٨.

وكان للمعركة وما ارتبط بها من أحداث ونتائج، دور في إذكاء قرائح الشّعراء، وشحذها على القول، ولا غرابة في ذلك؛ فقد كانت المعارك -وما تزال- مجالاً خصباً للإشادة بالنّفس، والغضّ من قدر العدوّ على حدّ سواء. وسأكتفي -انسجاماً مع المنهج المرسوم لهذه الدّراسة- بالحديث عن بعض المضامين الهجائيّة التي أوردها الشّعراء في التّعريض بأعدائهم، والسّخرية منهم في هذا الإطار.

فمن المعاني البارزة هنا، تصوير ضخامة جيوش الغزاة، وإظهار ما كانت تتمتّع به من إعداد وقوّة، وقد بالغ الشّعراء -أحياناً- في هذا المعنى، وليس مثل هذا الأمر بجديد؛ فقد اعتاد الشّاعر العربيّ -من قبل- الإشادة بشجاعة أعدائه، وإبرازهم في موقف القوّة لا الضّعف[1]؛ لأن في مثل تلك الإشادة -فيما يقدّر الشّاعر- إعلاء لشأن الذّات القويّة التي لا ترضى إلا بمناجزة ندّ قويّ مثلها.

غير أنّ الشّاعر ما أن يمضي شوطاً في هذا الاتّجاه، حتّى يأخذ الحديث لديه منحى آخر، يعكس -من خلاله- ما كان ينتظر أولئك الأعداء من مصير فاجع، ونهاية قاتلة، على يد البطل المسلم الذي أكثر الشّعراء -في هذه الفترة- من تمجيده، والتّغنّي بمآثره[2]. ومن النّماذج المعبّرة هنا أبيات للرّشيد النابلسيّ من قصيدة بمناسبة فتح بيت المقدس، صوّر فيها قوّة الأعداء التي لم تفعل الكثير مع البطل -صلاح الدّين الذي

---

(١) انظر تفصيلاً حول هذا الموضوع في: عبدالسلام المحتسب، القصائد المنصفات في الشّعر العربيّ (من العصر الجاهليّ إلى آخر العصر الأمويّ)، رسالة ماجستير مخطوطة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢م.

(٢) حول صورة البطل في شعر هذه الفترة، انظر:

- محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبيّ في شعر ابن القيسرانيّ: ١٥٥-١٦٠.

- عبد الجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصّليبيّة: ٩٩-١٣١.

- مصطفى عليان، صورة البطل والتصوّر الإسلاميّ في شعر الحروب الصليبيّة، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والتراث، م١١، ع٤، الجامعة الأردنية، ١٩٨٤م: ١٥٩-١٧٧.

"لم يغنهم بأس ولا وزر" معه، فصيّرهم -بعد ما كان لهم من قوّة وشأن- "موعظة وحديثاً"، يتلى على الورى، يقول[1]:

يومٌ به التأمَ الكُـفّـارُ في عـدَدٍ ... جمٌّ ولكنْ لكَسْرٍ ليْسَ ينْجَبرُ

جاءوا كما أقْبلَ الـطَّوْدُ الأشَـمُّ لهُ ... منْ حيثُ ماسِرْتَ فيهَ مسْلكٌ وَعِرُ

وجئتَهُمْ مثلَما انقـضَّ القضـاءُ فلا ... واللّهِ لمْ يُغْـنِهِـمْ بأسٌ ولا وزَرُ

تركْتَ أرْضَهمُ من طُـولِ ما عَمَرتْ ... منـهمْ بلاقِـعَ لا أُنْثى ولا ذَكَرُ

نقضتَ ما أبرمُوا، أبرمتَ ما نقضُوا ... عَمَرتَ ما هَدَّمُوا، هَدَمْتَ ما عَمَرُوا

أضْحى بنو الأصْفَرِ الأنكاس موعظةً ... فيها لأعـدائكَ الآيـاتُ والنُّـذُرُ

صارُوا حديثاً، وكانُوا قبلُ حـادِثَةً ... علَى الوَرَى يتّقيـها البَدْو والحَضَرُ

وتبدو مثل هذه الصّورة واضحة -أيضاً- لدى فتيان الشّاغوريّ، من قصيدة له في المناسبة ذاتها. وقد تمكّن فتيان في أبياته هذه -بما وفّر لها من تصوير مفعم بالحيويّة- أن يجسّد المشهد على نحو معبّر[2]:

جاشَتْ جُيوشُ الشّركِ يومَ لَقِيْتَهُمْ ... يَتَذَامَرُونَ علَى مُتـونِ الضُّـمَّرِ

وكأنّهُمْ بحْرٌ تَـدَافَـعَ مَوْجُـهُ ... بظُبىً وزُغْفٍ مُحْكَمٍ وسَنَوّرِ[3]

أوْرَدْتَ أطرافَ الرِّماحِ صُدورَهُمْ ... فَولَغْنَ في عَلَقِ النَّجيعِ الأحْمَرِ

فهناكَ لمْ يُرَ غَيْر نَجْـمٍ مُقـبلٍ ... في إثْر عِفـريتٍ رجيْـمٍ مُدْبِرِ

ومن الطّبيعيّ، أن يتناول الشّعراء -وهم في إطار الحديث عن المعركة وأجوائها -

---

(١) الحنبلي، شفاء القلوب: ١٦٦-١٦٧.

(٢) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: ١٤٣-١٤٤؛ وفي المعنى نفسه انظر: العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٢٣٤-٢٣٥.

(٣) الزّغْف: الدرع الواسعة الطويلة، والسّنَوّر: لبوس من سَيْر يُلْبَس في الحرب كالدرع.

قتلى أعدائهم. وقد تبدّى جانب من ذلك عند الحديث عن تعريض الشّعراء بمقتل ملوك الفرنج، وهنا استكمال للجانب الآخر، وهو تصوير مشاهد القتل الجماعيّ الذي تعرّض له أفراد وجنود من جيوشهم. وقد اتّخذ هذا الحديث صوراً من السّخرية المطبوعة بفيض من المشاعر السّاخطة التي وجدت في هذه النّهاية القاسية لهؤلاء الغزاة، جزاء عادلاً على ما اقترفوه في حقّ سكان هذه البلاد من جرائم وتعدّيات؛ فالعماد الأصفهانيّ، يصوّر -بشيء من البهجة والرّضا- جيوش صلاح الدّين، وهي تغادر أرض المعركة، مخلّفة وراءها أشلاء من القتلى التي قُدِّمت ضيافة للنّسور الضّارية[1]، وفتيان الشّاغوريّ يصوّر قتلاهم وقد باتت «نهباً للسّباع... من كلّ ذي ناب، وصاحب مِنْسر»[2]. أمّا ابن الدّهان، فيعبّر عن هذا المعنى بصورة لها حضورها في الشّعر القديم؛ وذلك حين يقول مخاطباً صلاح الدّين[3]:

..كَمْ وقفةٍ لكَ في الوَغَى محْمودَةٍ أبداً، وَكَمْ جُوْدٍ حميدِ المَوْقعِ

والطّيرُ من ثِقَةٍ بأكلٍ مُشْبِعٍ تَبِعَتْ جُيوشَكَ فوقَ غابٍ مُسْبِعِ

وعرض الشّعراء - في هذا الاتّجاه- صوراً لأسرى الفرنج وسباياهم، وكانت نبرة التّشفّي والازدراء واضحة على مجمل تلك الصّور؛ فقد أسعد الشّعراء -مثلاً- رؤية أعداد من الأسرى المكبّلين[4]، وأسعدهم -كذلك- أن يروا أعداداً أخرى وهم يباعون أسراباً كعصافير جُرّدت من ريشها[5]، وإمعاناً في السّخريّة والتّحقير، يصوّر

---

(١) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٣٠٩.

(٢) فتيان الشّاغوري، ديوانه: ١٤٤.

(٣) ابن الدهان، ديوانه: ٣٢-٣٣.

(٤) المصدر السابق: ٤٤؛ وفي المعنى نفسه انظر: الحنبلي، شفاء القلوب: ١٦٦.

(٥) الجلياني، ديوان المبشرات: ١٤١.

العماد سباياهم كالبضاعة الكاسدة التي عرضت في الأسواق، ولم تجد لها شارياً لكثرتها[1]:

. . سبايا، بلادُ اللّهِ مملوءةٌ بها وَقَدْ شُرِيتْ بَخْساً وقدْ عُرِضتْ نَخْسَا

يُطافُ بها الأسواقَ لا راغبٌ لها لكَثْرَتِها، كمْ كثْرَةٍ تُوجِبُ الوكْسا[2]

وتتبدّى السّخرية -في هذا المعنى- على نحو أوضح لدى فتيان الشّاغوريّ الذي يكشف عن جانب من المفارقة تمثّل في تصويره جمال سبايا الفرنج السّافر الذي قوبل بأبخس الأثمان وأحقرها، يقول[3]:

. . حتّى لقدْ بيعتْ عَقَائِلُ أُرْهِقتْ بالسَّبْي بالثَّمنِ الأخسِّ الأحقَرِ

مِنْ كلِّ حُوريٍّ ضئيلِ موشَّجٍ كالغُصْنِ ميّاداً ثقيلِ مؤزَّرِ

وأوانسٍ مِثْلِ الشُّموسِ سوافراً منْ كاعبٍ مثْلِ الغزالِ ومُعْصِرِ

أمّا ابن رواحة الحمويّ[4]، فيرسم صورة طريفة لأسرى الفرنج وسباياهم الذين يثير لقاؤهم مع بعضهم بعضاً -في موقف الذّل هذا- مزيداً من المشاعر المؤلمة في نفوسهم، وذلك إذ يقول متحدّثاً عن صلاح الدّين[5]:

لقدْ جَلَبَ الجواري بالجواري يَمِدْنَ بكلِّ قدٍّ مُرْجَحِنِّ

يزيدُهمُ اجتماعُ الشَّملِ بُؤْساً فَمِرنانٌ تنُوحُ على مُرِنِّ

---

(١) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٢٣٥.

(٢) الوكس: البخس في الثمن.

(٣) فتيان الشّاغوري، ديوانه: ١٤٤.

(٤) هو الفقيه أبو علي الحسين بن عبدالله بن رواحة الأنصاري الحموي، توفي سنة ٥٨٥هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): ١/ ٤٨١؛ الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ٣٧٦.

(٥) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): ١/ ٤٩٥.

فما منْ ظبيةٍ تُـفْدَى بليْثٍ ولا ليـثٌ فـــدى رشـاً أغنّ

زهَتْ إسكندريّةُ يومَ سيْقُوا ودميـــاطٌ فما مُنـــيا بغَبْـنِ

ومما يرتبط بهذا الهجاء، تصوير حالات الرّعب والهلع التي لقيت طريقها إلى نفوس الأعداء. وقد وجد الشّـــعراء في هذا الجانب مجالاً لإثارة كثير من صور التّعريض والاستهزاء. وربما وجدوا فيه أيضاً "تشجيعاً للمسلمين، وترسيخـــاً للاعتقاد بأنَّ رعاية اللّه تحوطهم حيثما توجّـــهوا"[1]، ولذا فإنّ قلوب أعدائهم يسكنها الخوف والفزع بمجـــرد ذكر اســـم أحـــد قادة المســـلمين، على نحو ما يذهب عبدالمنعم الجلياني حين يقول[2]:

وإنّما اسمُ صلاحِ الدّين يُذْكَرُ في جيشِ العدوّ فيسبيهم تخيُّلُهُ

وفتيان الشّاغوريّ بقوله في صلاح الدّين أيضاً[3]:

مَتَى عايَنَتْهُ المُشْركُونَ تَقَطَّعَتْ لِهَيْبَتِهِ أكبادُهُمْ والمَفَاصِلُ

ويبدو -كذلك- التّأكيد واضحاً على أهميّة العامل النّفسيّ في حروب المسلمين مع أعدائهم من خلال قول ابن القيسرانيّ في ممدوحه نور الدين[4]:

وإذا سرايا خَيلِهِ قفَلتْ نَهَضَتْ سرايا الخوفِ والذُّعْرِ

---

(١) شفيق الرقب، الشعر العربي في بلاد الشّام في القرن السادس الهجريّ: ١٠٣.

(٢) الجلياني، ديوان المبشرات: ١٤٦.

(٣) فتيان الشاغوري، ديوانه: ٣١٩؛ وفي المعـــنى نفســـه انظر: العـــماد الأصفـهـانيّ، ديوانه: ٢٤٢، ٤١٢-٤١٣.

(٤) ابن القيسرانيّ، شعره: ٢٢٩.

ومن النّماذج التي سرت فيها روح السّخرية، أبيات لأسامة بن منقذ، جسّد -من خلالها- حالات من الوهم التي كانت تتملّك الصّليبيين عند ملاقاتهم جيوش صلاح الدين، يقول[1]:

.. والذي لمْ يحنْ[2] بسيفكَ منْ خَوْ ... فكَ أمْسَى وعَقْلُهُ مَخْبُولُ

مثّلَ الخَوْفُ بينَ عَيْنيه جَيْشاً ... لَكَ في عُقْرِ دَارِه ما يزُولُ

فالرُّبى عنْدهُ جُيوشٌ وجيشُ الـ ... ـبَحْرِ في كلِّ لُجَّةٍ أسْطُولُ

وتلتقي أبيات الرشيد النّابلسيّ مع الأبيات السّابقة في قدرتها على نقل حالة الخوف والرّهبة التي انتابت جيش الفرنج؛ حتى بات أفراده في أوضاع نفسيّة مأزومة، تكشف عن معاناة واضحة، وإحساس بوقع الزّمن فاتر، كما يذهب الشّاعر من قصيدة له في مدح صلاح الدين[3]:

..بعيونٍ بيضٍ يَرُونَ بها الأ ... يّامَ مُسودَّةً تَرَى اللّونَ حَلْكَا

بهمُ يا همامُ قدْ ضاقتِ الأرْ ... ضُ فأوسَعْتَهُمْ بَواراً وهلكا

أيْقَنُوا بالبوارِ منْكَ وقدْ كا ... نَ يَقِيْنُ الأوْغادِ منْ قبلُ شكَّا

ويستغرق تصوير هزائم الفرنج حيّزاً من الشّعر المرتبط بالمعركة؛ فقد دفعت نشوة النّصر الشّعراء إلى الوقوف عند الهزيمة التي وظّفوا كثيراً من صورها السّاخرة في التّعريض بأعدائهم؛ فأشجع القوم هو -في الغالب- من يؤثر الفرار قبل غيره[4]،

---

(١) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٢٤١.

(٢) حان: هلك.

(٣) الحنبلي، شفاء القلوب: ١٦٥.

(٤) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: ٤١٣؛ ابن الدهان، ديوانه: ٤٤.

والمنهـزم يـولّي مـدبراً والرِّماح تنوشه بأطـرافها[1]، والقوم وقـت المواجـهة باتوا وقد[2]:

. . خَانَهُمْ ذلك السِّلاحُ فلا الرُّمْـ ـحُ تثنّـى ولا المُهـنَّدُ طـنّا

وتولّتْ تلكَ الخُـيولُ فكـمْ يُثْـ ـنَى عليها بأنّهـا ليسَ تُثْنَـى

واستحالتْ شقَاشقُ الكُفرِ صمْتاً حِيْنَ عادتْ تلك الشَّجاعةُ جُبْنَا

أشجَعُ القَوْمِ فيهمُ جاعلُ الـدِّرْ عِ هُـرُوباً أو الـفِرارِ مِجَـنَّا

بل لقد بلغ الأمر بالمنهزمين إلى التّخلّي عن رموز عقائدهم، وتركها وراءهم في سبيل النّجاة، على نحو ما يصوّر ذلك ابن القيسرانيّ، في قوله[3]:

. . فغادروا أَكثَرَ القربانِ وانْجَـفَلُوا وخَلَّفُوا أكْبَرَ الصُّـلْبانِ وانْهـزَمُوا

وحاولُوا المسجدَ الأَدْنى فَمَا عبَرَتْ عنْ مَسْجدِ القَدمِ الأَقْصى لهُمْ قَدَمُ

مستَسلمِيْنَ لأَيدي المُـسلمينَ وقدْ أَغْـرى القَنا بتمادي خَطْفِهِمْ نَهَمُ

-٥-

وظهر إلى جانب الأنماط السّابقة، لون آخر تمثّل في هجاء المدن الإسلاميّة الواقعة تحت نير الاحتلال الصّليبيّ، وقد سبق أن تطرّق البحث في باب النّقد الاجتماعيّ إلى مواقف مختلفة في هجاء المدينة، غير أنّ ذلك الهجاء كان يعود -كما تبيّن- إلى عوامل اجتماعيّة وشخصيّة متعدّدة، اتّخذ موقف الشّاعر تجاهها نبرة من الاحتجاج وعدم

---

(١) ابن قسيم الحمويّ (مسلم بن الخضر-٥٤٢هـ)، ديوانه، جمع ودراسة وتحقيق: سعود عبدالجابر، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٩٥م: ٢٢٦؛ ابن عنين، ديوانه: ٣٠.

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه: ٨١٦.

(٣) ابن القيسرانيّ، شعره: ٣٥٩.

الرِّضا. إضافة إلى كون الشّاعر يعرّض فيه بمدينة تقع في حوزة الدّولة الإسلاميّة. في حين أنّ هذا اللّون من الهجاء مختلف في دوافعه وأسبـــابه التي انطلقت -أساساً- من قضيّة الصّراع الإسلاميّ الصّـــليبيّ؛ ولذلك نجد الأثر الدّينيّ فيه بارزاً؛ فالقـــارئ لهذا الهجاء يلاحظ أنّه قد تضـــمّن كثيراً من المعاني الدّينـــيّة التي من شأنها أن تستثير العاطفة، على نحو ما يتّضح لدى عبدالمنعم الجلياني الذي يصوّر مدينة غزّة المحتلّة بقوله[1]:

وغزّةٌ غُرّةُ الكُفْرِ الّذي وطِئَـتْ جَبِيْنَهُ الغُـزُّ لم يَتْرُكْ لها أَثَرُ

سالَ الحرامان فيها مائرين معـاً دمٌ وخمرٌ ولا كُفْـرٌ ولا سَكَرُ

وأُضرِمَتْ لَهَباً فيْه العِدى جُثَثاً كأنّها، وهمْ يَصْلَـونَهَا سَـــقَرُ

ولعلّ لمثل هذا الوصف ارتباطاً بمشاهدات الشُّعراء ، لما كان يجري في تلك المدن من سلوكيّات وقيم لسكانها الصّليبيين، مخالفة لكـــثير من تصوّرات المسلمين وقيمهم[2].

ويتّخذ هذا الهجاء طابعاً تحريضيّاً، حين يصوّر الشّاعر -من خلاله- ضراوة مقاومة تلك المدن لمحاولات المسلمين المتكرّرة لاستردادها. وتبدو فيه كذلك نبرة من التّشفّي والشّماتة، بما أخذت به هذه المدن من شدّة وقسوة، نتيجة عنادها واستكبارها. وقد تبدّى شيءٌ من هذا في أبيات لابن القيسرانيّ من قصيدة له بمناسبة فتح عماد الدّين للرّها سنة ٥٣٩هـ، يقول[3]:

---

(١) الجلياني، ديوان المبشرات: ١٢٧.

(٢) أسامة بن منقذ، الاعتبار: ١٧٤-١٧٥؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير: ٢٤٩، ٢٥١.

(٣) ابن القيسراني، شعره: ١١١.

أَتَرَى الرُّها الوَرهاء يومَ تمنَّعَتْ ظَنَّتْ وُجوبَ السُّور سَوْرَةَ لاعِبِ[1]

فَتَحَ الضِّرامُ المُصْطَلى لعُلوجِها باباً إلى جَمْرِ الجَحيمِ الذَّاهبِ

باتُوا أساطينَ الضَّلال وأصبحُوا هَدَفاً لقاذفةِ العَذابِ الوَاصِبِ[2]

ويكرّر الشّاعر نفسه، في أبيات أُخرى، صورة هذه المدينة التي لم تُجْدِ مقاومتها نفعاً أمام إصرار عماد الدّين، وشدّة بأسه[3]:

مدينةُ إفكٍ منذُ خَمسينَ حِجَّةً يَفلُّ حديد الهندِ عَنْها حدادُه[4]

تفوتُ مَدى الأبْصارِ حتّى لو انّها ترقَّتْ إليهِ خانَ طَرْفاً سوادُه

وجامحةٍ عزَّ الملوكَ قيادُها إلى أنْ ثَنَاها مَنْ يَعِزُّ قيادُه

فأوسعَها حرَّ القِراعِ مؤيَّدٌ بصيرٌ بتمرينِ الألدِّ لدادُه[5]

كأنّ سنا لَمْعِ الأسنَّةِ حَوْلَهُ شرارٌ ولكنْ في يَدَيْهِ زِنادُه

فأضرَمَها نارَين: حَرْباً وخِدْعَةً فما راعَ إلا سورُها وانهدادُه

وواضح أنّ الشّاعر قد زاوج في أبياته بين الإشادة بقوّة ممدوحه من خلال تضخيم صورة هذه المدينة المتمنّعة في موقفها، وبين التّعبير عن مشاعره الغاضبة تجاه تلك المدينة، حين أبدى فرحه الظّاهر بما انتهت إليه من مصير.

---

(١) الورهاء: الحمقاء. السّوْرة: الوثبة.

(٢) الأساطين: الدعائم، الواصب: الدائم الموجع.

(٣) ابن القيسراني، شعره: ١٤٦-١٤٧.

(٤) الإفك: الإثم.

(٥) الألد: الخصم الجدل.

وتقترب الصّورة التي يرسمها بدر الدّين المنبجي[1] لمدينة عكا، حينما تمّ تحريرها على يد الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ، من الصّور السّابقة؛ وذلك حين يصوّر ما أصابها من ذلّ وخراب بهذه النّشوة والتّشفّي البالغين[2]:

فأَصْبَحَتْ بَعْدَ عزِّ المُلكِ خَاضِعَةً ... منْ ذلّةِ المُلكِ طُوْلَ الدَّهرِ في سَمَلِ

فسَلْبُ بزَّتِها عَنْها وقد عطلت ... ألــذُّ للطَّرفِ منْ حــلى ومن حلل

ومَحْو آثارِها مِنْها وقدْ خَربتْ ... أَشْهَى إلى النَّفسِ منْ روضِ الرُّبى الخَضَلِ

***

ب- هجاء التتار:

واستجلاء لملامح الصّورة التي رسمها الشّعراء لأعدائهم، لا بدّ من الإشارة إلى شيء من الشّعر الذي ورد في هجاء التّتار (المغول)؛ إذ ما أن كادت صفحة الصّراع الإسلاميّ الصّليبيّ تطوى من بلاد الشّام ، حتى تعرّضت -من جديد- لغارات مغوليّة شرسة، جاءتها -هذه المرّة- من الشّرق، بعد أن اجتاحت بغداد، وأسقطت الخلافة العباسيّة فيها سنة ٦٥٦هـ[3]. وكانت مدينة حلب أولى المدن الشّاميّة التي وقعت في

---

(١) هو محمد بن عمر... المثنى المنبجي، ولد قبل سنة ٦٥٠هـ، توفي بمصر سنة ٧٢٣هـ. انظر: ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت٨٥٢هـ) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد جاد الحق، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م: ٤/ ٢٢٠.

(٣) ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (ت٨٠٧هـ)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق ونجلا عزالدين، المطبعة الأمير كانية، بيروت، ١٩٣٩م: ٨/ ١١٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢١٣.

أيديهم سنة ٦٥٨[١]، ثمّ ما لبثوا أن استولوا على مدينة دمشق في السنة ذاتها[٢]. غير أنّ ميزان القوى ما لبث أن تحوّل -بعد ذلك- لصالح المسلمين، حين تمكّنوا من إحراز عدد من الانتصارات الهامّة التي كان من أعظمها انتصار المسلمين المؤزّر في معركة عين جالوت الحاسمة سنة ٦٥٨هـ، بقيادة سلاطين المماليك[٣]، وانتصارهم في موقعة حمص سنة ٦٥٩هـ[٤]، وانتصار الظّاهر بيبرس على فرقة من جيشهم في موقعة الفرات سنة ٦٧١هـ[٥]، ثمّ الانتصار الذي حقّقته جيوش المسلمين بقيادة قلاوون سنة ٦٨٠هـ[٦]. وكان لهذه الانتصارات أثرها في تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم، بعدما بلغ بها الخوف والرّعب مبلغاً عظيماً[٧].

وعند النّظر في الشّعر الذي قيل في ذمّ المغول وهجائهم، يلاحظ اتّفاق أغلب مضامينه مع الشّعر الذي قيل في هجاء الصّليبيين؛ فقد عرّض الشّعراء بأعدائهم، ووصموهم بأقذع الأوصاف، وسخروا من قادتهم، وأطالوا الوقوف عند هزائمهم التي

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٣١؛ المقريزي، أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ) ، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، ط٢، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٧م: ج١ ق١: ٤٢٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٣٢؛ المقريزي ، السلوك: ج١ ق٢: ٤٢٣-٤٢٤.

(٣) حول معركة عين جالوت ، انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٣٣؛ المقريزي، السلوك: ج١ق٢: ٤٢٩-٤٣١؛ وعين جالوت بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان : ٤/ ١٧٧.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٤٣؛ المقريزي، السلوك: ج١ ق٢: ٤٤٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٠١.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٧٨؛ المقريزي، السلوك: ج١ ق٢: ٦٠٦.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٣١٢؛ المقريزي، السلوك: ج١ ق٣: ٦٩٢.

(٧) مأمون جرّار، أصداء الغزو المغوليّ في الشّعر العربيّ (من القرن السّابع إلى القرن التاسع للهجرة)، ط١، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٣م: ٢٠٩-٢١٦.

لقوها على أيدي المسلمين. ففي هجاء قادتهم وأبطالهم -مثلاً- يطالعنا قول شرف الدّين الأنصاريّ من قصيدة له في مدح الملك المنصور الثاني[1]، بمناسبة انتصار المسلمين في موقعة حمص سنة ٦٥٩هـ، يقول[2]:

قيّدْتَ أبطـــالَ التّـتارِ بـــصَوْلةٍ ... تَرَكتْهمُ كالصَّيْـــدِ في الأَشْـــرَاكِ

. . فالطَّعنُ والطَّاعونُ أسلمَهُمْ إلى ... حربٍ كأَشْـــداقِ المخـــاضِ دِراكِ

برَّدْتَ أكبادَ الـــوَرَى بقواضـــبٍ ... قُذفَتْ عليـــهمْ كالضِّـــرامِ البـاكي

أضحكْتَ سِنَّ ثُغُورنا منْ بعـدما ... ظَفرُوا بـــها فبـــكى عليـها الباكي

غادرتَهُمْ صـرْعى كأنّ كـــماتَهُمْ ... في المرْجِ صَرْعى منْ سُلافِ "حُناك"[3]

وفي التّعريض بهزائمهم، تبدو الصّورة أكثر جلاء؛ فقد أكثر الشّعراء من الحديث عن هذا الجانب؛ ولعلَّ ذلك كان بإيحاء من كثرة الهزائم التي منيت بها جيوش المغول في هذه الفترة. ومن الشّواهد التي يمكن إيرادها -هنا- أبيات لشهاب الدّين العَزَازي[4]، يظهَرُ فيها اتّكاؤه الواضح على معلّقة عمرو بن كلثوم المشهورة: «ألا هبي بصحنك فاصبحينا. . .» واستيحاؤه -بالإضافة لمحاكاة وزنها وقافيتها- كثيراً من معانيها وألفاظها، يقول[5]:

---

(١) هو الملك المنصور محمد بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيّوب، تملّك حماة بعد وفاة أبيه، توفي سنة ٦٨٣هـ. انظر: اليونيني، موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ)، ذيل مرآة الزمان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، الهند، ١٩٦١م: ٤/ ٢٣٦.

(٢) ابن شرف الأنصاريّ، ديوانه: ٥٥٧، وللاستزادة انظر المصدر نفسه: ٢٧٠، ٤٧٥.

(٣) حناك: بالضمّ، حصن مكين بمعرة النعمان، يرد ذكره في شعر الغزل لدى شعراء المعرّة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢/ ٣٠٩.

(٤) هو أحمد بن عبدالعزيز الشهاب العزازي، شاعر ووشاح، توفي بمصر سنة ٧١٠هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ٩٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٩/ ٢١٤.

(٥) شهاب الدين العزازي، ديوانه، مصوّرة عن النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية القومية، رقم ٢٨٢، شعر تيمور: ٦٧، وللاستزادة انظر: ٧١.

ففَرّقْنَا جُمُوعَهُمُ وَسُقْـــنَا ملوكَهُمُ الأكـابرَ صَاغرينا

وقاتلْنا جُيوشَ المُغْل حـتّى شفينا منهمُ الدَّاءَ الدَّ فـينا

فَولّتْ فرقةٌ منْهُمْ يســاراً وفرّتْ فرقــةٌ مِنْهُمْ يمـينا

وسُقْنَا خَلفَهمْ حتّى أَعَدْنا جيادَ الخيلِ واقفةً صُـفُونـا

أَخذْنا ثأرَ بغدادٍ وعجــنا علَى حَــلَبٍ وميّا فارقينا

وما زِلْنا نُطالبُـهُمْ إلى أنْ قَضَيْنا مِنْ مُلوكِهُمُ الدُّيـونا

ويصوّر محيي الدّين بن عبدالظاهر[1] من قصيدة له في مدح سيف الدّين قلاوون إثر هزيمة التـتار في نوبة حمص سنة ٦٨٠هـ، ما أسفرت عنه هذه الواقعـة من نتائج كانت عواقبها على العدوّ وخيمة[2]:

فكانَ أسلمهُمْ مَنْ أسلموه لأنْ يقودُهُ القيْدُ أو يَسري به الأَسرُ

وراحَ فارسُهم في إثْر راجلِهمْ ينتابُهُ الوحشُ أو ينبُو به القَـفْرُ

فما رعى منـهمُ راعٍ مـطيّــتَهُ ولا ارعوى لهمُ من روعةٍ فِكْـرُ

وتتبدّى في هذا الهجاء صور من السّخرية والاستخفاف، وربّما قصد الشّعراء من وراء ذلك، التّقليل من شـأن المغول الذين قصرت آمـالهم ومطامـعهم عن تملُّك بلاد الشّام، والاستيلاء عليها. وقد عبّر ناصر الدّين الكنانيّ[3] عن مـثل هذا بأبيـات من

---

(١) هو محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر المصري، كاتب الإنشاء بمصر، توفي سنة ٦٩٢هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٨/ ٣٨.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٣/ ٣٦٨؛ وانظر أبياتاً مشابهة في هذه الموقعة في: ابن فضل العمري، مسالك الأبصار (مخطوط): ١٨/ ٢٣٧..

(٣) هو شافع بن علي بن عبّاس.. الكناني العسقلاني، ولد سنة ٦٤٩هـ، سمع الحديث وأتقن الفن والإنشاء، توفي سنة ٧٣٠هـ. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة: ٢/ ٨١؛ وحول الخلاف في اسمه انظر توجيه مأمون جرار، أصداء الغزو المغولي: ٥٩ (حاشية رقم ٢٧).

قصيدة طويلة، نظمها في الإشادة بنصر الظّاهر بيبرس في موقعة الفرات سنة ٦٧١هـ، فبعد أن كان المغول هم المبادرين في الإغارة على معاقل المسلمين؛ إذ بالظّاهر هو الذي يبادرهم بالهجوم، ويخوض نهر الفرات، حتى كتب له النّصر عليهم، ومنها قوله[1]:

. . توهّمتِ التّتارُ ربيعَ مصْر سَيَمنَعُ خَيْلُهُ يوماً مُغارا

وكان الخوف ألجأها اضطراباً وكانَ الذّلُّ أحوجها اضطرارا

فلمّا لم يُجبْها في سؤالٍ جَفَتْ من أرضِها سَكَنا ودارا

ونازلَ خوفُهُ منْهُمْ نُفوساً فذاقتْ في جسومِهم الحصارا

ولا يتوانى الشّاعر عن إظهار تشفّيه وفرحه بهزيمتهم، بمزيد من الصّور السّاخرة:

وغنّتْ في رقابِهمُ سيوفٌ فارقصت الهوادج والمهارى

طلعْتَ عليهمُ كالصُّبحِ يجلو بطلعَتِهِ من الظُّلَمِ اعتكارا

فلمّا أنْ رأوكَ فما استطاعُوا ثباتاً ، لا ولا ملكُوا اصطبارا

وولّوا هاربينَ بلا عُقُولٍ وباتُوا خائفينَ وهُمْ حَيَارى

هذه إشارة وحسب، وليس غرضي أن أستقصي هذا الموضوع، وأطيل من التّفصيل فيه؛ وذلك لغير سبب؛ منها أنّ البحث محكوم بإطار زمنيّ محدّد ينتهي في حدود سنة ٦٩٠هـ (وهي السّنة التي انتهت فيها الحروب الصّليبيّة). والوقوف عند هذه السّنة لن يمكّن الدّارس من تقديم تصوّر وافٍ لصورة المغول التي أبرزها الشّعراء؛ فقد استمرّ هذا الغزو -بعد هذا التّاريخ- فترة طويلة، امتدّت حتى بدايات القرن التاسع

---

(١) ابن عبدالظاهر ، محيي الدين (٦٩٢هـ)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م: ٤١٠؛ وفي التعريض بهزيمتهم في هذه الموقعة انظر أبياتاً أخرى لبدر الدين المهمندار (ت٦٨٠هـ) في: الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٢٣٩.

الهجريّ. كما أنّ شعر مصر والشّام، لا يقدّم وحده استيفاء لمعالم هذه الصّورة وأبعادها المتعدّدة، وإنّما لا بدّ من استقراء شعر الأقاليم الأخرى كالعراق الذي كان لشعرائه دور في تسجيل أحداث هذا الغزو، ورصد أصدائه في النّفوس . ثمّ إنّ دراسات أكاديميّة متخصّصة، قد تناولت هذا الموضوع، وعالجت جوانبه المختلفة بقدر من الاستفاضة والتّفصيل[1].

* * *

وهكذا يتبيّن أن لشعر الهجاء السّياسيّ دوراً ملموساً في تصوير جوانب من الصّراعات السّياسيّة التي شهدتها مصر والشّام في هذه الفترة؛ إذ يستطيع الدّارس -من خلاله- أن يشكّل رؤية واضحة لواقع البلاد السّياسيّ. وبعد استقراء نماذج وافية من هذا الهجاء، يمكن تسجيل الملاحظات التّالية:

١- لم يجد الدّارس- في حدود اطّلاعه- هجاء سياسيّاً لسلاطين المماليك الذين عاصروا فترة الحروب الصّليبيّة. ولعلّ من أسباب ذلك، أنّ هذه الفترة قد شهدت مولد سلاطين عظام منهم. من مثل: قطز[2]، والظّاهر بيبرس، والأشرف خليل، الذين تمكّنوا من استئصال شأفة الوجود الصّليبيّ من بلاد الشّام ، واجتثاثه من المنطقة نهائيّاً. وتمكّنوا -أيضاً- من دحر الغزو التتريّ (المغوليّ)، ووضعوا حدّاً لتوسّعه الذي كاد يشمل بلاد الشّام، ويصل - من خلالها- إلى مصر، وربّما إلى أماكن أخرى. وقد كانت دولة

---

(١) انظر على سبيل المثال:

- مأمون جرّار، أصداء الغزو المغوليّ في الشّعر العربيّ: ١٨١-٢٠٨.

- رائد مصطفى عبدالرحيم، صورة المغول في الشّعر العربيّ- العصر المملوكيّ، رسالة ماجستير مخطوطة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٧م.

(٢) هو قطز بن عبدالله المُعزّي، قاد معركة عين جالوت الحاسمة ضد التتار (٦٥٨هـ) ، التي حقّق فيها المسلمون نصراً مؤزّراً ، قتل بتدبير من بيبرس سنة ٦٥٨هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٢؛ الزركلي، الأعلام: ٥/ ٢٠١.

المماليك في أوج قوّتها، وكانت تشكّل قوّة عظمى، قامت على أنقاض الدّولة الأيوبيّة المتهالكة. ومن الطّبيعيّ -والحالة هذه- أن يرى النّاس فيها مخلّصاً حقيقيّاً من حالة الضّعف والتّردّي التي وصل إليها حال المسلمين آنذاك، في حين نجد شيئاً من هذا الهجاء في أواسط عهد المماليك وفي أواخره[1].

٢- يلاحظ قلّة الهجاء السّياسيّ في الفترة التي امتدّت من تكوين الممالك الصّليبيّة في بلاد الشّام، وحتى ظهور عماد الدّين زنكي (٤٩١-٥٢١هـ)؛ بل لقد شهدت هذه الفترة فقراً واضحاً في الشّعر السّياسيّ بصورة عامّة[2].

٣- لم يكن شعر الهجاء السّياسيّ -في هذه الفترة- يعبّر دائماً عن مواقف ملتزمة تتوخّى النّزاهة والإصلاح؛ وإنّما انطلق بعضه -فيما أقدّر- من مصالح آنيّة، واعتبارات شخصيّة خالصة. ولعلّ الشّعر الذي رافق مرحلة الصّراعات الوزاريّة في مصر في أواخر العهد الفاطميّ، يقع أغلبه في هذا الباب. في حين نحسّ بقدر أكبر من الصّدق والالتزام في الشّعر الذي آزر الجهود الإصلاحيّة لكلٍّ من نور الدّين، وصلاح الدّين، وسفّه -في المقابل- الخارجين عليهما. أو في الشّعر الذي قاوم الصّليبيين وعرّض بهم. ولا غرابة في ذلك؛ فقد كان الشّعراء -في هذا الإطار- يعبّرون عن موقف الجماعة الإسلاميّة التي عانت من ويلات الفرقة والنّزاع كثيراً، ورأت أنّ "استقطاب الطّاقة الإسلاميّة الشّاملة للوقوف في وجه الصّليبيّين، كان أجدى من النّاحية العمليّة من أيّ استقطاب عرقيّ أو إقليميّ"[3].

---

(١) انظر مثلاً:

- محمد رجب النّجار، الشّعر الشّعبيّ السّاخر في عصور المماليك: ٧٨-١٢٥.

- عبدالله المهنّا، إبراهيم المعمار، شاعر العامّة في عصر المماليك "دراسة في الشّاعر وشعره" المجلة العربية للعلوم الإنسانيّة، ع٥٨، السنة ١٥، جامعة الكويت، ١٩٩٧م: ٤٤-٥٠.

(٢) حول أسباب ذلك، انظر: نزار اللبدي، صورة فنّ الحرب في أدب الدّولتين الزنكيّة والأيوبيّة في مصر والشّام، رسالة دكتوراة مخطوطة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢م: ١١.

(٣) محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبيّ في شعر ابن القيسرانيّ: ١٤٠.

الفصل الرّابع
الدّراسة الفنيّة

أـ شكل القصيدة

ب- الأسلوب واللغة

جـ- الصّورة الشّعريّة

أ- شكل القصيدة:

-١-

كانت المقطوعة الشّعريّة التي تتراوح بين البيتين والعشرة، هي الشّكل الغالب على شعر الهجاء في مصر والشّام زمن الحروب الصّليبيّة؛ إذ جاء هذا الشّعر -في أغلبه- مقطوعات قصيرة، حملت فكرة واحدة، وسرى فيها شعور واحد كفل لها الوحدة والانسجام. ويبدو أنَّ اتّخاذ المقطوعة شكلاً فنيّاً لشعر الهجاء، يعود إلى طبيعة هذا الموضوع الذي يتطلّب قدراً من الإيجاز والتكثيف؛ ليكون أعلق في النّفوس، وأكثر شيوعاً ودوراناً على ألسنة النّاس.

وقد تنبّه بعض الشُّعراء والنّقاد القدامى إلى أهميّة المقطوعة الهجائيّة، وقوّة تأثيرها في هذا الاتّجاه؛ فقد «قيل لعقيل بن علقة: مالك لا تُطيل الهجاء؟ فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط العنق»[١]. «وقيل لأبي المهوّش الأسديّ: لِمَ لا تطيل الهجاء؟ فقال: لم أجد المثل السّائر إلا بيتاً واحداً»[٢]. ويذهب ابن رشيق القيروانيّ إلى أنّ «جميع الشّعراء يرون قصر الهجاء أجود... إلا جريراً»[٣]. وفي هذه الأقوال ما يدلُّ على إدراك الشّعراء لقيمة الإيجاز والاقتصاد في هذا الموضوع الشّعريّ الذي يهدف -فيما يهدف إليه- إلى الإصابة والتّأثير. وكلُّ هذا لا يتحقّق إلا من خلال القول الموجز المصيب الذي يقع في النّفس، ويبقى في الذّاكرة. ومن الملاحظ أنّ اعتماد المقطوعة

---

(١) ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، الشّعر والشُّعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م: ١/٧٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن رشيق، العمدة: ٢/٨٤٩.

إطاراً فنيّاً في شعر الهجاء، ليس مقتصراً على شعر هذه الفترة، وإنّما كان ملمحاً فنيّاً تبدّى أيضاً في شعر عصور أدبيّة أُخرى[1].

وعند النّظر في هذه المقطوعات، يلاحظ اتّسامها بعدد من الخصائص الفنيّة التي حقّقت لها قدراً من الحيويّة والتّشويق، ومن ذلك:

١- **السُّخرية التّهكميّة:** والسُّخرية من الملامح الواضحة التي اتّصف بها كثير من هذه المقطوعات. وقد تمثّلت هذه السُّخرية بغير صورة، منها: أن يلجأ الشّاعر إلى أسلوب الذّمّ بما يشبه المدح، على نحو ما يبدو -مثلاً- في الأبيات التالية لابن منير الطّرابلسيّ في هجاء ملك النّحاة، حين خمش يد هذا الأخير قطّ[2]:

عَتَبْتُ على قطٍّ ابنِ منيـــر ... وقُلْتُ: أَتيْـــت بغَيرِ الصَّوابِ

جرحْت يداً خُلقَتْ للنّدى ... وبذْلِ الهِباتِ وضَرْبِ الرِّقابِ

فقالَ لي القطُّ: ويْكَ انتَبِهْ ... أَلَيْسَ القطاطُ عداةَ الكـــلابِ

فالشّاعر يتحدّث في البيتين: الأوّل والثّاني بما يوحي بالمدح والتّقدير؛ فهو يلوم قطّه على صنيعه ذاك، ويذكر من الصِّفات لمجهوّه ما يمكن أن يجلب لنفسه الرِّضا والارتياح. غير أنّه سرعان ما يفاجئ القارئ بمعنـــى جديد، يقلب دلالة كـــلّ ما سبق.

ومنه كذلك قول ابن عُنين في القاضي الفاضل حين يهجوه بمثل هذه البراءة الماكرة التي تستهدف أساساً النّيل من رجولته وشرفه[3]:

---

(١) انظر مثلاً: قحطان التميميّ، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجريّ: ٣٢٩-٣٣٠؛ فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسيّ: ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) ابن منير، ديوانه: ١٢٤-١٢٥.

(٣) ابن عنين، ديوانه: ١٨٩.

حاشَا لعبدِ الرَّحيمِ سيِّدنا الـ ـفـاضلِ ممّا تقُوْلُهُ السُّفلُ

وتبَّ مَنْ قَالَ إنّ حَـدْبَـتَهُ فـي ظهرِهِ من عَبيْدِهِ حَبلُ

هذا قياسٌ في غيرِ سيِّدنـا يصحُّ إنْ كانَ يَحْبَلُ الرَّجلُ

وقد تحقّقت السّخرية للأبيات من جانب آخر، تمثّل في ربط الشّاعر -من خلال إقامة هذه العلاقة المريبة- بين القاضي الفاضل، و«عبيده» تقليلاً لشأنه، وغضّاً من قيمته.

ومن أساليب السُّخرية الشّائعة في هذه المقطوعات، تصوير العيوب الجسديّة وإبرازها في صورة مضخّمة هازئة، بما يشبه أسلوب (الكاريكاتير)؛ إذ يلجأ الشّاعر إلى انتقاء جزءٍ بارزٍ من جسم مهجوّه (وغالباً ما يكون الأنف أو اللحية أو حدبة الظّهر)، فيسلّط الضّوء عليه من خلال تضخيمه، وتجسيده بصورة مبالغ فيها، قاصداً من وراء ذلك إلى الهزل والإضحاك. ومن الشّواهد التي يمكن أن تساق هنا، قول ابن السّاعاتيّ في رجل كبير الأنف[1]:

أَنفُ السَّديدِ إذا أَطَـلْـ ـلَ كسَا بلادَ اللّهِ جنْحَا

لو كانَ في الزَّمنِ القَديـ ـمِ لكانَ للنّمرودِ صرْحَا

والأمثلة على هذا الجانب كثيرة، وقد ورد قسم كبير منها في جزء سابق من هذه الدِّراسة، عند الحديث عن «هجاء الأفراد» والصّور التي تشكّل بها، ولا أرغب أن أوردها هنا، تحاشياً للتكرار.

ومن صور السُّخرية التّلاعب بالألفاظ عن طريق الصّنعة البديعيّة من طباق ومقابلة

---

(١) ابن الساعاتي، ديوانه :١/ ٢٣١ .

وتورية وغير ذلك. فمن المقابلة الهادفة إلى التهكّم قول يحيى بن سلامة الحصكفيّ في أحدهم، لاجئاً إلى التّلاعب اللفظيّ لاستخراج مزيد من المعاني المتباينة القائمة على بعض المقابلات اللفظيّة التي كان لمبالغة الشّاعر في التفنّن البديعيّ أثره في صبغها بنزعة منطقيّة متكلّفة[1]:

. . دينُهُ دينٌ رقيــقٌ وَلَــهُ وجهٌ صفــيقُ
ولهُ لا حاطَهُ الــلّـ ـهُ إلى كلِّ طريــقُ
هو بالفعــل عــدوٌّ وهــو بالقولِ صديقُ
هو في القُربِ رحيقٌ وهو في البُعْدِ حريقُ

ومن الجناس والتّورية قول ابن قادوس في شاعر كان أسود[2]:

يا شِبْهَ لُقْمانٍ بلا حِكْــمَةٍ وخاســراً في العلمِ لا راسِخا
سلخْتَ أشعارَ الوَرَى كلِّهِمْ فَصِرْتَ تُدْعى الأَسودَ السّالخا

فقد لجأ الشّاعر إلى السُّخرية من مهجوّه باستخدام الجناس غير التّام في: (راسخ وخاسر). والتّورية في كلمة (الأسود السالخ)؛ فالأسود السّالخ هو الثعبان، ولكنّه ورّى به لذلك الشّاعر الذي اتّصف بالسّواد والسّطو على أشعار غيره.

وقريب من هذا قول أبي الحسين الجزّار الذي عُرف بكثرة انتقاده لواقعه، وشكواه المتكرّرة من سوء حاله، وتعاسة ظروف مهنته -الجزارة- التي سبّبت له كثيراً من المتاعب والهموم. وقد تميّز شعره في هذا الجانب باللمحة الدّالة، والفكرة الطّريفة المعبّرة. ومن سخرياته في هذا المقام قوله حين عوتب بامتهانه الجزارة، بعد أنْ تكسّب بالشّعر ولم

---

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشّام) : ٢/ ٥٠١ .

(٢) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر) : ١/ ٢٢٦ .

يجده مجدياً[1]:

لا تَلُمْني يا سيّدي شرفَ الدِّيـ ـنِ إذا ما رأيْتَـني قـصَّـابـا

كيفَ لا أَشكُرُ الجِزارةَ ما عِشْـ ـتُ حـفاظـاً وأَرْفُـضُ الآدابـا

وبها أَضْحتِ الكِلابُ ترجِّيـ ـني، وبالشِّعرِ كُنتُ أَرجُو الكِلابا

فكلمة الكلاب -كما هو واضح- لها معنيان، قريب: هو الحيوان المعروف، وقد قرّب تبادر هذا المعنى إلى الذّهن ذكر الجزارة. وبعيد: هو لئام الناس، وهو المقصود ها هنا. ولعلّ جنوح الشّاعر إلى أسلوب المواربة هذا، كان بدافع من روح الفكاهة والدّعابة التي اشتهر بها، أو لعلّه كان إيثاراً للسّلامة التي لم تكن لتتأتّى لو جنح إلى التّصريح والمباشرة.

وتكون السُّخرية -أحياناً- باستثمار التّشابه بين الأسماء ، لعقد مقارنات ساخرة بين شخصيّتين، كأنْ يعمد الشّاعر إلى الإشادة بإحداهما مقابل تحقير الأخرى وفقاً لغايته وتوجّهه. وقد تبدّى مثل هذا في قول ابن عُنين حين قدم من اليمن إلى مصر، وطُلبَ منه زكاة ما كان معه من مال، فوجد في ذلك مناسبة للنّيل من صاحب مصر وقتذاك -الملك العزيز عثمان- من خلال مقارنته بالملك العزيز طغتكين بن أيّوب صاحب اليمن[2]، يقول[3]:

ما كلُّ منْ يتسمَّى بالعزيز لـها أَهْـلٌ ولا كلُّ برقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ

بينَ العزيزين بَونٌ في فِعَالِهما هذاكَ يُعْطي وهذا يأخُذُ الصَّدَقَهْ

---

(١) ابن سعيد الأندلسيّ، المغرب(قسم مصر) : ٣١٦ .

(٢) هو الملك العزيز طغتكين، أخو السلطان صلاح الدين. بعثه أخوه إلى اليمن سنة ٥٧٧هـ، فملكها وتوفي فيها سنة ٥٩٣هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٥٢٣ .

(٣) ابن عنين، ديوانه : ٢٢٣ .

وقد مالت بعض النّماذج السّاخرة إلى الفكاهة غير الجارحة التي كانت تهدف إلى المتعة والنكتة البارعة. وغالباً ما يكون ذلك وليد حادثة أو موقف ما؛ فقد كتب ابن خروف النّحويّ -على سبيل الفكاهة- إلى قاضي القضاة في حلب يستقيله من مشارفة مارستان نور الدّين زنكي، وكان بوابه يسمّى السيّد، يقول[1]:

مولاي مولاي أجرْني فقدْ أصْبَحْتُ في دارِ الأسى والحُتُوْفْ

وليسَ لي صبرٌ على مَنْزِلٍ بوابُهُ السِّـــيْدُ، وجـــدّي خَـرُوفْ

فقد استغلّ الشّاعر حالة الأسماء: (ابن خروف، والسّيد: التي تعني في اللغة الذّئب)، وساق من خلالها هذه الدّعابة اللطيفة. ويشبه هذا ما كتبه ابن عُنين إلى الملك المعظّم عيسى، حينما كثر عليه الضّيوف، يقول[2]:

تَبارَكَ اللّهُ أعطى النّاسَ ما سألُوا صفْواً وكالَ لَهُمْ بالزّائدِ الوافي

فالحمدُ للّهِ شُـــكْراً إنني رَجُـلٌ ما بـــاركَ اللّهُ لي إلا بأضـيافي

وعلى ما في الأبيات من دعابة وخفّة روح، إلا أنّها تعبّر - من وجه آخر- عن موقف رافض تجاه واقعه الذي لم ينصفه -على حدّ رأيه- كما أنصف غيره. والحقّ أنّ هذا النّوع من الشّعر يدلُّ على روح فكهة، وذهن متّقد، وقد وجد هذا الشّعر -كما ذكر في موضع سابق- رواجاً وانتشاراً في أدب هذه الفترة، واشتهر من شعرائه من الجانب الشّاميّ ابن عنين الذي احتوى ديوانه على باب كبير منه[3]. كما اشتهر منه من الجانب المصريّ- ولعلّه كان في هذا الجانب أبين وأظهر -شعراء كثيرون منهم: الجزّار والورّاق وابن النّقيب وابن دانيال وغيرهم.

---

(١) الكتبي ، فوات الوفيات: ٣/ ٨٥ .

(٢) ابن عنين، ديوانه : ١٣١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٢٥-١٤٨ .

٢- المفارقة Irony

والمفارقة -في أبسط مفاهيمها-: «لعبة لغويّة ماهرة وذكيّة بين طرفين: صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدّم صانع المفارقة النصّ بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفيّ، وذلك لصالح المعنى الخفيّ الذي غالباً ما يكون المعنى الضّدّ»(١). ويعدُّ فنّ الهجاء من الفنون المرشّحة لاستيعاب أنماط متعدّدة من المفارقات، بل إنّ الفنّين -الهجاء والمفارقة- كثيراً ما يتداخلان في الحدود والمفاهيم(٢). أمّا عن أهميّتها في شعر الهجاء، فلعلّ أبرز ما يستوقفنا منها أنّها «تمنحنا فرصة التأمُّل فيما تقع عليه أعيننا، أو يتنبّه إليه إدراكنا، مما يحيط بنا من مظاهر التّناقض والتّغاير، فيدفعنا للتبصّر به، والبحث عن العلاقات التي تجمع عناصر المتشكّل أمامنا، وما بينهما من اتّساق أو تنافر»(٣).

وقد توسّل الشّعراء في هذا المقام -في سبيل تحقيق مفارقاتهم السّاخرة -بعدد من العناصر والوسائل المؤثّرة، كلجوئهم إلى استثمار أسماء مهجوّيهم وألقابهم في صنع مفارقات جديدة. ومن النّماذج الدّالة على هذا التوجّه ، قول ابن عُنين الذي يجد في لقب «الشّهاب» لفتيان الشّاغوريّ، وسيلة مناسبة لإقامة مفارقات ساخرة منه(٤):

---

(١) نبيلة إبراهيم، المفارقة، مجلة فصول، م٧،ع٣+٤، القاهرة، ١٩٨٧م: ١٣٢، عن كتاب:

Wayne C. Booth, A Rhetoric of Irony, Chicago univ. press 1976, p.176

والآراء حول المفارقة كثيرة ومتشعّبة. ولم أرد أن أفصّل القول في هذا الجانب، لعدم اتساع المقام إليه من جهة، وتجنّباً لإسقاط تنظيرات لا يحتملها هذا الشّعر من جهة أخرى. لمزيد من التفاصيل حول المفارقة انظر: د.سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبدالواحد لؤلؤة، ط٢، دار الرشيد للترجمة والنشر، بغداد، ١٩٨٧م؛ خالد سليمان، نظرية المفارقة، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، م٩،ع٢، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩١م.

(٢) د.سي. ميويك، المفارقة وصفاتها: ٥٦ .

(٣) سامح الرواشدة، المفارقة في شعر أمل دنقل، مجلّة دراسات، (السلسلة:أ: العلوم الإنسانية، م٢٢(أ)، ع٦ (الملحق)، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٥م: ٣٧٨٨ .

(٤) ابن عنين، ديوانه: ٢١٢-٢١٣ .

يا منْ يُلقَّبُ ظُلماً بالشِّهاب وإنْ أضحَى بظُلمته قدْ أظلم الشُّهُبَا

لا تَخْدعنَّكَ منْ مودودَ[1] دولتُهُ وإنْ تعلَّقتَ من أسبَابها سبَبَا

«فليسَ ينبحُ فيها غَيْرَ واحدةٍ حتّى يلفَّ على خيشومِه الذَّنبا»[2]

ويقارب هذا قول هبة الله بن وزير في مستخدم على أموال الزّكاة كان يسمّى «الزّكيّ» إذ يصنع الشّاعر من هذه المصادفة مفارقة ناقدة، يستهجن -من خلالها- سوء الإدارة، وتفشّي الفساد في أجهزة الدّولة التي أصبحت نهباً لبعض المستغلّين. وبذا فقد أدّت المفارقة هنا وظيفة كاشفة، وأظهرت ما كان يعتمل في الواقع من تناقض وتباين[3]:

واحَسرتاهُ على الثِّقاتِ جُعلَ الزَّكيُّ على الزَّكاةِ!

وهُوَ الّذي لخيَانَةٍ أبداً يُعدُّ من الجُناةِ

ومتى تأمَّلَ درْهَماً في الجوِّ صارَ من البُزَاةِ

ومن الوسائل التي يلجأ إليها الشّاعر في بناء مفارقاته، ،كما تبدّى في شعر هذا العصر، إقامة علاقة تتّصف بقدر من التّفاوت اللافت بين طرفيها «ذلك أنّ التوتّر الناشيء من المفارقة يزداد حفزاً كلّما ازداد التّباين بين حدّيها»[4] ومما يمثّل هذا قول ابن عُنين في الرّشيد النابلسيّ حين يقيم بينه وبين «النّعال» -على تفاهتها وقلّة شأنها- علاقة تنتهي لصالح هذه الأخيرة، إذ يجعلها -بالاتكاء على التّشخيص- تتألّم وتتأذّى من ملامسة ثياب الرّشيد وصفعها به[5]:

---

(١) مودود: شحنة دمشق، وكان الشهاب يعلم أولاده.

(٢) البيت من أبيات الحماسة لمرة بن محكان التميميّ. انظر : المرزوقي، أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ)، الحماسة، نشره: أحمد أمين وعبدالسلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م:٢/١٥٦٣.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر) : ٢/١٥٢ .

(٤) عبدالقادر الرباعيّ، صور من المفارقة في شعر عرار، ضمن كتاب: بحوث عربية مهداة إلى الدكتور محمود السمرة، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٦م:٣٠٧؛ وقد أفدت من تحليله في هذا الجانب.

(٥) ابن عنين، ديوانه : ١٨٥.

تعجَّبَ قومٌ لصفْعِ الرَّشـيـدِ وذلـكَ ما زالَ من دَابهِ

رحمتُ انْكسارَ قُلُوبِ النِّعالِ وقدْ دنَّسـوهـا بأثـوابهِ

فوالـلّهِ ما صفَـعُوهُ بها ولكنَّهمْ صَـفَـعُوهـا بهِ

ولموقف الشّاعر من محيطه وواقعه أثر في نشوء كثير من المفارقات؛ إذ غالباً ما تنشأ المفارقة بتأثيرٍ من بعض الظّروف القاسية التي قد تدفع الشّاعر إلى ما يشبه الثّورة على كثير من المواضعات والأحوال السّائدة، فيعبِّر عن سخطه وعدم رضاه عنها، ويُعدُّ الجزّار من أبرز الشّعراء الذين يمثّلون هذا الاتّجاه؛ فقد كان لسوء حاله وفقره- كما ذكرت غير مرة- أثر واضح في توجّه شعره الذي احتوى قسم منه على مفارقات متعدّدة. كما يبدو -مثلاً- من أبياته التالية التي يشكو فيها «زمانه الصّعب» مصوّراً -وهنا تكمن المفارقة بصورتها الجليّة -حاله يوم عيد النّحر، وقد ذبحت الأضاحي، ونعم الناس من اللّحم «بطريّه وقديده»، وهو «رهن الإفلاس»، لا يجد شيئاً، على الرّغم من كونه «جزّاراً»!، يعمل باللّحم كلّ يوم دون أن ينال منه شيئاً[1]:

لا تَسَلْـني عن الزَّمـانِ فإنّـي قدْ بدتْ لي أضْغَـانُه وحُـقُودُهْ

زمنٌ لانَ عـطـفُهُ عنـدَ غيـري وهو عِنْدي صعبُ المراسِ شديـدُهْ

كيفَ يبقَى الجزّارُ في يومِ عيد النْـ ـنَحْرِ رَهْنَ الإفلاسِ والعيدُ عِيدُهْ!

يتمنّى لحمَ الأضاحي وعـندَ النْـ ـناسِ مـنه طـريُّهُ وقديـدُهْ

ويسري في بعض أشعار أسامة بن منقذ ما يشبه هذه النّغمة، وإن كانت أزمة

---

(١) ابن سعيد الأندلسي، المغرب(قسم مصر): ٣٠٠ .

أُسامة ذات طبيعة مختلفة، ، وأبعاد متعدّدة، حمل جانب منها طوابع سياسيّة تمثّلت في خلافه مع بعض أقاربه وأبناء عمومته، وحمل جانب آخر منها طوابع ذاتيّة، تمثّلت في تجربة الشّيخوخة التي عاشها، وفي أحزانه التي تمثلت في هلاك أقاربه وذويه في زلزال شيزر سنة ٥٥٢هـ[١]. وقد ولّدت هذه التّجارب في نفسه مرارة وحزناً ظاهرين، ونتج عن ذلك في شعره -وهو ما يهمّنا في هذا المقام -صور من المفارقات التي انثالت على لسانه بتأثير من فيض انفعالاته ومشاعره المتألّمة. من ذلك أبياته التالية التي تصوّر ألواناً من المفارقة تمثّلت فيما كان يعاينه في زمانه من تناقض بيّن في القيم والسّلوك، يقول[٢]:

كمْ تقصِدُ الماجدينَ الفاضلين، وكمْ ... تُعلّمُ الكُرماءَ البُخْلَ يا زَمَنُ

إذا توالتْ عليهمْ نائباتُكَ، واجـ ... ـتاحَتْ فواضلَ ما يُولونه المِحَنُ

فكيفَ بالجُودِ والأحْداثُ تسلُبُ ما ... يُولى به العُرْفُ، أوتُسْدى به المِنَنُ

شُغْلُ الزّمانِ بأهلِ النّقصِ يرفعُهُمْ ... حتّى يُثمّرَ للوُرّاثِ ما خَزَنُوا

ألهاهُ عن كُرماءِ النّاس، فهو عَلى ... ذَوي المكارمِ والأفْضالِ مُضطَغِنُ

فالزّمن -حسب قراءة الشّاعر له- يسير وَفْق منطق مقلوب؛ فهو يعادي كرماء الناس بنوائبه ومحنه الكثيرة، وكأنّه بذلك يعلّمهم البخل الذي لم يكن من شيمهم يوماً، وهو -في المقابل- مشغول بأهل النّقص- ويلاحظ تكرار هذا الوصف لدى أسامة في غير موضع من ديوانه -يرفع من شأنهم، ويوسّع لهم. وبذلك فقد أحدث الشّاعر هذه المفارقة بوحي من واقع حياته وظروفه الشّخصيّة التي أيقظت حسّه، وعمّقت تبصّره

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: ٥١٤.

(٢) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٣١٢ .

بحركة الزّمن، وما تتركه من أثر في الأشخاص والأشياء من حوله.

٣-وحدة الموضوع:

يتميّز كثير من المقطوعات الهجائيّة بوحدة في الموضوع والعاطفة، وقد ساعد على مثل هذه الوحدة قلّة أبيات المقطوعة؛ فمن الواضح أنّه «كلما كانت القصيدة أقرب إلى القصر، أو إلى شكل المقطوعة زادت حدّتها الشّعوريّة والفنيّة معاً»(١). كما أنّ هذه الوحدة الموضوعيّة قد تأتّت -فيما أرى- من جانب آخر، تمثّل في أنّ الشّاعر الهجّاء قد تحرّر من كثير من القيود التي تتطلّبها موضوعات شعريّة أخرى؛ كالمديح -مثلاً- الذي ظلّ مرتبطاً بالقيم الشّعرية الموروثة، من مثل المحافظة على البناء التقليديّ للقصيدة العربيّة القديمة، إرضاءً للذوق العامّ، وأذواق الممدوحين بصورة خاصّة، في حين أكسب هذا التحرّر شعر الهجاء مزيداً من الحركة والحيويّة، فترك الشّاعر لنفسه الحرية في التّجاوب والتّعبير عن المواقف المختلفة التي تعرض له، دون أن يكبّلها بقيود ضاغطة من شأنها أن تحدّ من دفق الشُّعور وانطلاقه، فجاء شعره في هذا الاتجاه انعكاساً مباشراً لإحساسه وانفعاله، «وكأنّه لم يكن ثمّة فاصل بين ما يفكّر به الشّاعر وبين ما يقوله»(٢).

وحين النّظر في هذا الشِّعْر، يلاحظ أنّ جلّ الهجاء الشّخصيّ، والهجاء الذي تناول نقد المجتمع، جاء في مقطوعات شعريّة قصيرة، اتّسم أغلبها بوحدة العاطفة والموضوع. والأمثلة على هذا كثيرة؛ ففي نطاق الهجاء الشّخصيّ يمكن التّمثّل بقول البهاء زهير في ثرثار طالت ملازمته له، حيث يعبّر عن هذه الصّحبة غير المرغوبة بهذه الأبيات التي بثّ فيها شعوراً عاطفيّاً واحداً(٣):

وجاهلٍ لازَمَني لقيتُ منه عَنَتَا

---

(١) عبدالقادر القط، في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م: ١٣٣.

(٢) شفيق الرّقب، الشّعر العربيّ في بلاد الشّام: ٣١٥.

(٣) البهاء زهير، ديوانه: ٤٩.

كأنّما حتمٌ عليـ ـهِ الدَّهرَ ألا يَسْكُتَا

أُنسي به إذا نَأى وَوحْشَتي إذا أتَى

طالَتْ بهِ بليّتي يا ربِّ ما أدري مَتى!

وقول ابن المسجّف العسقلانيّ في جماعة لم يحسن التّقدير في كشف جوهرهم -على نحو ما يذهب-[1]:

ولقد مدحتُهُمُ على جهلٍ بهمْ وظننتُ فيهمْ للصّنيعةِ موضِعا

ورَجعْتُ بعدَ الاختبارِ أذمُّهُمْ فأضَعتُ في الحالينِ عُمري أجْمَعا

وفي نطاق الهجاء الاجتماعيّ، يمكن التّمثُّل بأبيات لسديد الدّين بن رقيقة[2]، قالها في نقد أحد الأطباء، مصوّراً قلّة معرفته، وكثرة أخطائه في حقّ المرضى، بأسلوب لاذع ساخر[3]:

أيا فاعلاً خلّ التطبّبَ واتّئدْ فكَمْ تَقْتُل المرضى المساكين بالجَهْلِ

كأنّك يا هذا خُلقْتَ موكّلاً على رجعِ أرْوَاحِ الأنَامِ إلى الأصلِ

بهرتَ الوَبا إذْ قتْلُكَ النّاس دائماً وذلكَ في الأحيانِ يَحْدثُ في فَصْلِ

كفى الوصب المسكين شخصك قاتلاً إذا عدْتَهُ قبلَ التعرُّضِ للفعْلِ

فالنّاظر في النّماذج السّابقة، يلاحظ أنّها قد جمعت إلى جانب وحدة الموضوع، البساطة والتلقائيّة والطّرافة. وهي ملامح هامّة -أيضاً- للمقطوعة الهجائيّة التي

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات: ٢/٢٨٣ .

(٢) هو أبو الثناء محمود بن عمر الشيباني، كان من الحكماء والمتطببين. انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٧١٧.

(٣) المصدر نفسه.

تتوسّل-في سبيل شيوعها وتأثيرها- بكلّ ما من شأنه أن يكفل لها الحيويّة والتّشويق.

وكان لاتّخاذ بعض المقطوعات من الحكاية وسيلة فنيّة لبنائها، دور في تقوية هذه الوحدة وتنميتها، فقد كان لهذا الأسلوب القصصيّ القائم على جملة من التّفصيلات الدّقيقة، والمعتمد على تطوّر الحدث وتسلسله في اتّجاه واحد، أثره في إشاعة قدر من التّرابط والتّماسك بين أبيات تلك المقطوعات. والشّواهد على هذا كثيرة، منها -مثلاً- أبيات لعلم الدّين الشّاتاني[1] الذي يقول ساخراً من خصم له بعد أن وثب عليه أسد، وعاد عنه ولم يفترسه، إذ يصوغ الشّاعر سخريته من خصمه ذاك، بهذه الحكاية البسيطة التي توسّلت - في بنائها- بأسلوب التّشخيص والحوار، يقول[2]:

قُلْتُ للَّيثِ : لِمْ تأخَّرْتَ عنْهُ حِيْنَ غادرْتَهُ إليْكَ صَرِيْعا

قَالَ قَدَّرْتُ أنني حزْتُ صَيْداً فتَأَمَّلْتُهُ فكانَ رَجِيْعا

فأَبَتْ نَفْسِيَ الأَبِيَّةُ عَنْهُ أَنْ ترى أَكْلَهُ وإنْ متُّ جُوْعَا

ومنها أيضاً قول ابن عُنيْن لما قدم إلى دمشق من اليمن، وطالبه عدد من أصدقائه بدعوة. فقال لهم : تعالوا غداً، فلمّا حضروا لم يجدوه في منزله، لكنّه ترك لهم رقعة تضمّنت الأبيات التالية، وسأوردها كاملة لبيان ما بينها من ترابط لا يسمح بالاجتزاء، يقول[3]:

تجوّعَ ليْ الشّيخُ الزّكيُّ وجاءَني معَ الشّمسِ قَبْلَ الشّمسِ يَتْلُوهُما النَّجمُ

---

(١) كان فقيهاً وأديباً، قدم الشّام سنة ٥٣١هـ، أكرمه العادل نور الدين، وتوفي سنة ٥٧٩هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) : ٢/ ٣٦١ .

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشّام): ٢/ ٣٧٥.

(٣) ابن عنين، ديوانه : ١٢٨-١٢٩ .

وقدْ سرَّحا ذقْنَيْهما[1] وتَسَـــرْبَـلاَ من الوَشْيِ ما ازْدانَـــتْ حواشيْـه والرّقمُ

وجاءتْ بنو عَبْدانَ طُرّاً كأنّـمـــا لَهُمْ في الّذي اسْتصحَبْتُ مِنْ عَدَنٍ قِسْمُ

وجاءَ أبو الفضلِ الأمينُ وعَـــبْدُهُ كذئبيْ غضاً قدْ مسّهم مِن طـــوَىً سـقمُ

وأقْبَلَ شَمسُ الدّين يَسْعى مُبادراً وفي كُمّـهِ للـــنّهبِ مِـنْ أدَم كُـــــمُّ

جُموعٌ لو انّ السّدَّ أعْرضَ دونهُمْ بَدا منْـهمُ في جَـــانبيْ رتْقـهِ ثَـلْـــمُ

يَرُومُونَ خُبْزي والكواكبُ دونَـهُ لقدْ ضَـــلَّ عَـنْهُمْ رأيُهُـــمْ ونَأى الفَهْـمُ

أمَا عَلِمُوا أنَّ الذُّبـــابةَ لا تـــرَى طَعَـــامي وأنَّ الفـــارَ عِـــنْدي لَهَا لُـجْمُ

فالأبيات تقدّم تلك الحادثة الطّريفة من خلال أسلوب الحكاية. وقد كفل لها الشّاعر من الوسائل ما حفظ لها المتعة والإطراف على عادته في كثير من شعره؛ فحدّد-بداية- زمن القصّة، وهو قبل طلوع الشّمس، وفي اختيار هذا التوقيت ما يدلُّ على تلهّف أولئك الأصدقاء، وشدّة نهمهم الذي دفعهم إلى المجيء في هذا الوقت المبكّر جداً. ثم يعرض صور هؤلاء الأصدقاء عن طريق الوصف الخارجيّ- وهو ضروري لأية قصّة/ حكاية-فمنهم من سرّح ذقنه استعداداً للوليمة، ومنهم من يشبه الذّئب الذي مسّه الجوع، ومنهم من تهيّأ لنهب الطّعام بأكمامه. وحتّى يضفي الشّاعر على المشهد مزيداً من السّخرية والدّعابة، يلجأ إلى أسلوب المبالغة، فيصوّرهم جموعاً كثيرة متدافعة، ويصوّر -في الوقت نفسه- خبزه عزيز المنال تتهاوى من دونه الكواكب، ولا تنال منه الذّبابة والفأرة شيئاً. وواضح أنّ هذا الوصف الخارجيّ ينطوي على ملامح نفسيّة تميّز بها كلّ نموذج من النّماذج البشريّة السّابقة. وهكذا فقد جرت هذه الأبيات على نسق مترابط وفّر لها مثل هذه الوحدة المتنامية.

---

(١) سرح ذقنه للشيء: تهيأ له «كناية شاميّة».

٤- الإيجاز والتكثيف :

تميّز بعض المقطوعات بقدر من التّركيز واللمحة الدّالة، فأدّت المعنى بأقل الكلمات، إذْ لم يتجاوز بعض هذه المقطوعات البيتين أو الثلاثة، ولكنّها جاءت -مع هذا- مكتملة المعنى، ولا تحتاج إلى مزيد. ومما يمثّل هذا قول ابن المسجّف الذي يورد لأحد الأشخاص هذه الصّورة السّاخرة[١]:

وغرير كأنّهُ غُصْنُ تِيْنٍ أحْوَلُ المُقْلتيْنِ مُرٌّ لماهُ

قُلْتُ: ما الاسمُ قَدْ أطال عَنَائي قَالَ: مَسْعودٌ ، قلتُ: مَنْ لا يراهُ

ومثله كذلك قول أبي الغمر الإسناوي في أحدهم[٢]:

عَدَا طَوْرَهُ حُمقاً وادّعى فخاراً وقَدْ جحَدَتْه المَعَالي

وقالَ ألمْ أَبْلُغِ الفرقَدَيْن فَقُلْتُ بلى بقُرُونٍ طِوالِ

وقد اتّكأت بعض المقطوعات- في سبيل التكثيف- على ما يسمّى بالاكتفاء، و«هو أن يأتي الشّاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلّقة بمحذوف، فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن فيما يقتضي تمام المعنى»[٣]، ومنه قول البهاء زهير في أحد الثُّقلاء[٤]:

وثقيلٍ إذا بَدَا أكْثَرَ النَّاسُ لَعْنَهُ

كلُّ رملٍ في الفَلا لا تَرى فيهِ وَزْنَهُ

---

(١) الكتبي ، فوات الوفيات: ٢/ ٢٨٤.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ٢/ ١٦١.

(٣) ابن حجّة الحمويّ، خزانة الأدب: ١/ ٢٨٢.

(٤) البهاء زهير، ديوانه : ٢٧٤.

ظُنَّ خيراً بغيرهِ وبهِ لا تَظُنَّهُ

وعلى نحسهِ فقدْ قيلَ عنْهُ بأنّهُ . .

ثمَّ لا يترُك الحما قَةَ حتّى كأنّهُ . .

وقريب من هذا قول ابن المهنّا[1] في أبيات رفعها إلى قاضي حلب، يشكو فيها نائبه وكاتبه، يقول[2]:

لا عَجَبٌ أنْ خَرِبَ الشّامُ أَوْ أَقْوتْ مَغَانيهِ ولا غَرْو

قدْ أَصْبَحَ المَجْدُ به حَاكِماً وأَصْبَحَ المُنْشي له ضَوْ

مولايَ، مُحْيي الدّينِ، غَيّرهُما عنّا، فَتَحْوى شُكْرَنا أوْ . .

وحين ينتهي القارئ من قراءة هذه المقطوعات وأمثالها، تكون قد تركت في نفسه «أثرين متباينين: شعوراً بالاكتفاء، وايحاء مسترسلاً، كما تترك لهفة إلى مزيد، ولكلّ من هاتين الحالتين دورها الإيجابيّ في نفس القارئ، إذ ليست اللهفة أقلّ إثارة من الشّعور بالرّضى»[3].

-٢-

وعلى الرّغم من أنّ المقطوعة كانت الشّكل الغالب على شعر الهجاء في هذه الفترة كما ذكر، إلا أنّ بعض هذا الشّعْر قد اتّخذ شكل قصائد طويلة، وإن جاء ذلك قليلاً مع

---

(١) هو أبو محمد عبدالقاهر بن عليّ بن المُهنّا، يذكر العماد أنّه لقيه بحماة سنة ٥٧١هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) : ٢/ ٩٨.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة(الشّام): ٢/ ٩٨.

(٣) إحسان عبّاس، نماذج من القصيدة القصيرة في الشّعر العربيّ الحديث «٢»، جريدة الدستور، ع٩١٨٨، عمان، ١٩ آذار ١٩٩٣م : ص٩ .

ما نظم فيه من مقطوعات. وعند النّظر في بنية هذه القصائد، يلاحظ تحرّرها من البناء التقليديّ للقصيدة العربيّة القديمة الذي يقوم عادة على «مقدّمة قد تطول وقد تقصر، ومدخل ينزلق منه الشّاعر إلى موضوعه الرئيسيّ، ثم خاتمة ملحوظة»[1]. فقد تضمّنت قصيدة الهجاء، في هذا الإطار، موضوعاً واحداً لم تجاوزه إلى غيره، وهي في هذا البناء تلتقي مع المقطوعة في وحدة الفكرة والموضوع. غير أنّها مالت بصورة واضحة إلى التّفصيل، واستقصاء المعاني، والتّنويع في الجزئيات. ويبدو -من خلال استعراض هذه القصائد- أنّ الشّاعر لم يكن يعنّي نفسه كثيراً في تشكيل هذه البنية، إذ ترك لخواطره وأفكاره أن تنثال دون أن يقيّدها أو يحدّ منها أو يوجّهها توجيهاً صارماً؛ فجاءت -من حيث الشّكل والمضمون معاً- على قدر من البساطة والعفويّة. ومن القصائد التي تمثّل هذا المنحى، قصيدة لكمال الدّين بن الأعمى في ذمّ داره. وهي قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها ستة وأربعين بيتاً، قصرها على وصف هذه الدّار، من خلال الاتّكاء على بعض الصّور الطريفة السّاخرة. والقصيدة قائمة في بنيتها على الوصف التفصيليّ الذي تمثّل في حديث الشاعر المستفيض عمّا كان يدبّ في أرض تلك الغرفة من حيوانات وحشرات متعدّدة، وقد ولج الشّاعر إلى موضوعه مباشرة على هذا النّحو[2]:

دارٌ سكنْتُ بها أقلُّ صِفَاتِها ... أنْ تكْثُرَ الحَسَراتُ منْ حَشَراتها

الخَيْرُ عَنها نازِحٌ مُتَبَاعِـــدٌ ... والشَّـــرُّ دانٍ منْ جميعِ جِهاتِها

ثم يستغرق حديثه عن الحشرات الهائمة في تلك الغرفة أغلب أبيات القصيدة، ومما جاء في ذلك قوله:

من بَعْضِ ما فيها البعوضُ عَدِمْتُه ... كَمْ أعدَمَ الأَجْفَانَ طيبَ سِناتِها

---

(١) عز الدين إسماعيل، في الشّعر العباسيّ: ٣٨٧ .

(٢) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٨٩ .

وَتَبِيْتُ تُسْـــعِدُها براغيـــثٌ مَتَى غنّتْ لَهَا رَقَصَـــتْ على نَغَـماتِها

. . وبها ذُبَابٌ كالضّبابِ يَسدُّ عَيْـ ـنَ الشَّمسِ ما طَرَبي سِوى غنّاتِها

أين الصّوارمُ والقَـــنَا من فَتْكِـها فينا وأَيْنَ الأُسْـــدُ من وَثَبـــاتِـــها

. . وبها خفافيشٌ تَطِـــيْرُ نهارَها مع لَيْلها لَيْســتْ على عَادَاتِـــها

شَبَّهْتُـــها بقَنافِذٍ مَطْـــبُوخَـــةٍ نزعَ الطُّـــهاةُ بنُضْـجِها شوْكاتِهـا

. . وبها قرادٌ لا انْدِمَالَ لجُرْحِها لا يَفْـــعَلُ المِشْـــراطُ مِثْلَ أدَاتِـهـا

أَبَدَاً تمـــصُّ دِمَاءَنا فكـــأنّـــها حجَّـــامةٌ لَبِـــدَتْ عَلى كاساتِها

. . . . الخ

وهكذا يمضي الشّاعر في هذا الوصف المتأنّي الذي جسّد -من خلاله- معاناته التي تمثّلت في سوء حال هذه الغرفة البائسة. وقد استعان -في سبيل ذلك- بصور حيّة من السُّخرية والفكاهة التي تضافرت فيها عناصر الحركة واللون والصوت لتكسبها هذه الحيويّة والتّشويق. ومع ما يلمس في هذا التّصوير من مبالغة في ذكر مساوئ تلك الدّار، إلا أنّ هذه الصّور -تبدو من ناحية أُخرى- شديدة الصّلة بالواقع الذي يعيشه بعض المحرومين. فضلاً عما يجده القارئ في هذه القصيدة من تداخل شعوريّ كفل لها مثل هذا التّوافق والانسجام.

ويتبدّى مثل هذا البناء في بعض قصائد البوصيريّ في الهجاء الاجتماعيّ، ومنها -على سبيل المثال- قصيدته الّتي مطلعها[1]:

انظرْ بحقّكَ في أمرِ الدَّواوينِ فالـــكلُّ قدْ غيَّروا وَضْعَ القَوانينِ

---

(١) البوصيري، ديوانه: ٢٦٢ .

والقصيدة ذات موضوع واحد، هو تصوير فساد بعض موظّفي الدّواوين وانحرافاتهم، وهي كذلك ذات مغزى واحد، تمثّل في رغبة الشّاعر في الكشف عن تلك الانحرافات، وتبصير أولي الأمر بها. وعلى الرّغم من طول القصيدة، حيث بلغت تسعةً وخمسين بيتاً، إلا أنها تميّزت بوحدة متماسكة، وشعور عاطفيّ متجانس. وقد جنح الشّاعر في بناء قصيدته إلى أسلوب إسهابيّ تمثّل في إلحاحه على المعنى، واستيفاء جوانبه؛ فحين يتحدّث عن تعدّيات أولئك الموظّفين، لا يورد نموذجاً واحداً، وإنّما يقدّم صوراً متعدّدة لذلك، كما يبدو -مثلاً- في الأبيات التالية:

. . الكاتِبُونَ وليْسُوا بالكرامِ فما ... مِنْهُمْ على المالِ إنْسانٌ بمأمُونِ

والكلُّ جمعاً ببَذْلِ المالِ قد خَدَمُوا ... وما سَمِعْنا بهذا غَيْرَ ذا الحِيْنِ

فَهَمْ على الظَّنِّ لا التَّحقيقِ بَذْلُهُمُ ... وما تحقُّقُ أمرٍ مِثْلَ مَظْنُونِ

نالوا مناصِبَ في الدُّنيا وأَخْرَجَهُمْ ... حُبُّ المناصِبِ في الدُّنيا على الدِّينِ

. . . الخ

وحين يتحدّث عن حالة البذخ التي يعيشها أولئك الموظّفون، والأوجه التي ينفقون فيها الأموال الطّائلة التي حصّلوها، يأخذ الحديث قدراً لا بأس به من حجم القصيدة، ومن ذلك قوله:

وكُلُّ ذلكَ مَصْرُوفٌ ومصْرِفُهُمْ ... للشَّيْخِ يُوسُفَ أبي هَبْصِ بنِ لَطْمينِ

وللشَّرابِ وتَبييتِ الخَطاءِ بهِ ... يَجْلُو العُقارَ بأَجْنَاسِ الرَّياحينِ

وللعُلُوقِ وأَنْواعِ الفُسُوقِ معاً ... وللخُرُوقِ الكثيراتِ التَّلاوينِ

وللبِغالِ الوطيَّاتِ الرِّكابِ تَرَى ... غلمانَهُمْ خَلْفَهُمْ فَوْقَ البَرَاذِينِ

وللمناديلِ في أوساطِ مَنْ مَلَكُوا وللمناطقِ فيها والهَمايِينِ

وواضح أنّ الشّاعر قد اختار من هذه الأوجه ما يمكن أن يستثير فضول السّامع، ويستدرّ عاطفته، وهو لا يكتفي بذلك، وإنّما يعمد -بقصد الاستثارة الشّعوريّة أيضاً- إلى الضّرب على وتر الدّين؛ فهؤلاء المستخدمون -كما يرى- «أعداء اللّه والدّين»، والجهاد في سبيل اللّه- في رأيه- لا بدّ أن يبدأ بهم أوّلاً قبل الأعداء الخارجيين. . وقد استعان الشّاعر إلى جانب هذا أيضاً، ببعض الوسائل الفنيّة المؤثّرة؛ كاستخدام الحوار الذي أضفى على الأبيات روحاً قصصيّة أبعدت عنها بعض الرّتابة التي قد تتأتّى بسبب طول القصيدة، والإكثار من إيراد الأساليب الإنشائيّة الهادفة إلى التّأثير في المستمع ولفت انتباهه. ومع ذلك فقد برزت النّزعة الخطابيّة في مجمل أبيات هذه القصيدة. ولعلّ ذلك بتأثير من تناول مثل هذا الموضوع الاجتماعيّ الذي قصد الشّاعر من ورائه إلى أداء رسالة تتوخّى الإخبار والتّبليغ.

* * *

وخلاصة القول في بنية قصيدة الهجاء، أنّها جاءت في شعر هذه المرحلة على صورتين: صورة المقطوعة، وهي الغالبة على مجمل هذا الشّعر، ولذلك بدأت الحديث بها، وخصصتها بشيء من تفصيل؛ لأهميتها وفاعليتها المؤثّرة في هذا الشّعْر، والقصيدة الطّويلة التي لم تكن تشكّل ظاهرة لافتة، ووروودها كان محدوداً، تمثّل بصورة واضحة في بعض قصائد الهجاء الشّخصي[1]، والهجاء الاجتماعيّ.

أمّا الهجاء السّياسيّ، فلم يكن يشكّل موضوعاً مستقلاً في قصيدة، وإنّما كان يرد في قصيدة الجهاد والمدح ضمن محاور أخرى، كالدّعوة إلى الجهاد والوحدة، والإشادة

---

(١) انظر - على سبيل المثال- نماذج من ذلك في: القاضي الفاضل، ديوانه: ٢/ ٤١٢-٤١٥، ٢/ ٤٣٠-٤٣٣؛ ابن دنيال، المختار من شعره: ٩٦-٩٩، ١٧٠-١٧٢.

بالقائد المسلم، والتّغنّي بالنّصر، والتّعريض بالعدوّ، وغير ذلك. ولذا آثرت ألا أتناول هذا الموضوع في هذه الدّراسة، إذ من غير المسوّغ فنيّاً، اجتزاء هذا الجانب، وعزله عن بقيّة أجزاء القصيدة، لإقامة بعض الأحكام عنه، فدراسته -من الوجهة الفنيّة- في قصيدة الجهاد أو المدح أنسب وأليق. وهو ما قام به بعض الدّارسين[1].

(١) انظر مثلاً: هنريت سابا، اتجاهات الشعر العربيّ في بلاد الشّام: ٣٨٤-٣٨٦؛ عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٢٣٥-٢٥٣ .

ب- الأسلوب واللّغة:

-١-

من الواضح أنّ ثمّة ارتباطاً ما بين موضوع النّصّ الأدبيّ وأُسلوبه الذي يرد فيه، وقد تنبّه لهذا الأمر بعض النّقاد قديماً وحديثاً[١]؛ فالأُسلوب الذي يناسب -مثلاً- شعر الغزل بما يتطلّبه من رقّة وسلاسة، هو غير الأسلوب الذي يناسب شعر الفخر بما يتطلّبه من قوّة وفخامة، وهكذا الحال في بقيّة الموضوعات الشّعريّة التي يتطلّب كلّ منها نسقاً تعبيرياً مختلفاً عن الآخر. ومن هنا فقد آثر شعر الهجاء -في مجمله- الأسلوب الشّعبيّ الذي يناسب طبيعته؛ فجنح في لغته إلى السّهولة والوضوح، بل لقد اقتربت ألفاظ هذا الشّعر -في كثير من الحالات- من لغة النّاس المحكيّة، وتعبيراتهم الدّارجة. وليس هذا الأمر بمستغرب إذا ما عرفنا أنّ الشّاعر الهجّاء يهدف إلى شيوع شعره بين النّاس ليؤدّي غرضه المرجوّ، ولن يتأتى له شيءٌ من هذا إلا بمراعاة الذّوق الشّعبيّ العام الذي يؤثر القول المباشر، والمعنى الواضح القريب. ولعلّ هذا الملمح الأسلوبيّ قد اتّضح في كثير من الشّعر الذي ورد في فصول هذه الدّراسة المختلفة.

وتأكيداً لهذه النّزعة، فقد كان الشّاعر في هذا الاتّجاه كثيراً ما يؤثر التّعابير الشّعبيّة، واللغة الجارحة التي من شأنها أن تستدرّ قدراً من الإثارة والشّيوع، على الرّغم مما تركه هذا التوجّه -أحياناً- من أثر سلبيّ على فنيّة هذا الشّعر. ومن الأمثلة على ذلك قول علي بن عرام ساخراً من أحد شعراء عصره[٢]:

---

(١) انظر مثلاً : ابن طباطبا، أبو الحسن محمد بن أحمد(ت٣٢٢هـ)، عيار الشّعر، تحقيق: عبدالعزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥م: ١١؛ رينيه ويليك، وأوستن وارين، نظريّة الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، ط٣، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥م: ١٨٨ .

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر) : ٢/ ١٧٢ .

شاعرُنا ذو لحـــيةٍ قَدْ عَرَضَتْ وانْفَسَحَتْ

لحيةُ تَيْسٍ صَلُحَتْ لِفَـقْحَةٍ قدْ سَـلَحَتْ

ويكثر مثل هذا الأداء التّعبيريّ -بصورة لافتة- في شعر ابن عُنين الذي يحتاج وحده في هذا الجانب دراسة مستقلّة، لا يتيسّر لها مثل هذا المقام؛ إذ يعمد -في سبيل السّخرية من مهجوّيه وتحقيرهم- إلى العبارات الجارحة التي تصدم الذّوق وتخدش الحياء أحياناً، من ذلك مثلاً قوله في الرّشيد النابلسيّ، عامداً إلى المبالغة في الانتقاص من قدره وقيمته[1]:

قيلَ لي إنّ مدلويهِ بـنَ بدرٍ قَـتَلُوهُ بالصَّفْعِ أَشْنَعَ قَتْلِ

قُلْتُ عظَّمتُمُ القضيَّةَ في دَلْـ ـوِ خَلِيْعٍ قدْ رَقَّعُوهُ بنَعْلِ

ومنه أيضاً قوله في القاضي الفاضل، متمادياً في الفحش والإساءة منه[2]:

كَمْ ذَا التَّبَظرُمُ[3] زائداً عنْ حـدِّه ما كانَ قَبلَكَ هكذا الحُدْبَانُ

. . أظهرْتَ فَضْلَ تُقىً وتَعَفُّـفٍ واللّـهُ يَعْـلَمُ أنَّهُ بُهْتَـانُ

ما طالَ في الليلِ البهيمِ سُجُودُهُ إلا لِيَرْكَعَ فَوْقَـهُ السُّـودانُ

ومن الأساليب التي تقرّب الهجاء من المزاج الشّعبيّ، الميل إلى ما يشبه النّكتة المستملحة التي من شأنها أن تكتب لهذا الشّعر شيوعاً وانتشاراً؛ لإقبال الناس عليها وتقبّلهم لها. ويمكن التّمثُّل -على هذا المنحى- بقول قمر الدّولة الكتاميّ[4] الذي يستغلّ

---

(١) ابن عنين، ديوانه : ١٨٧ .

(٢) المصدر نفسه: ١٨٨-١٨٩.

(٣) التبظرم : أن يتكلم الإنسان مشيراً بخاتمه في وجوه الناس.

(٤) هو جعفر بن علي بن دواس، أبو طاهر الكتامي المعروف بقمر الدولة، من أهل مصر، نشأ بطرابلس الشام، توفي بعد الخمسمائة. انظر : الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ٢٨٧.

سواد أحد الكُتّاب، فيهجوه بقوله[1]:

هذا ابـنُ أفلـحَ كاتبٌ مُتَـفَرِّدٌ بِصِـفَاتِـهِ

أقْـلامُـهُ مِـنْ غَيْـرِهِ ودُواتُـهُ من ذَاتِـهِ

وتظهر روح النكتة هذه أيضاً، على لسان ابن النقيب في هجاء شخص يسمّى (العلق)، وإن جاء قوله -مع ذلك- موجعاً[2]:

قالوا رَأينا العلقَ يُنْفِقُ مُسْرِفاً والعـلقُ لا شـيءٌ لديهِ ولا مَعَـهْ

فأجبتُهم إنْـفاقُهُ منْ سُـرْمِهِ قالوا صدقْتَ لذاكَ يُنْفِقُ منْ سَعَهْ

وكان من ملامح هذا الأسلوب الشّعبيّ أيضاً، جنوح الشّعراء إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة، والإكثار من النّظم فيها، ولعلّ ذلك يعود إلى ما توفّره هذه الأوزان من خفّة وحيويّة، وكأنّهم كانوا يرون في استخدام هذه الأوزان الطّيعة السّهلة وسيلة لانتشار شعرهم بين أوساط العامّة الذين لن يجدوا عنتاً وصعوبة في حفظها وترديدها. والأمثلة على هذا كثيرة، منها -مثلاً- قول البديع الدّمشقي[3] في أحد القضاة -من مجزوء الرّجز-[4]:

حـاكِمُـكُمْ بهيْـمَةٌ ليستْ تُساوي العَلَفا

وليـسَ فيهِ مُـضْغَـةٌ طيِّـبةٌ إلا القَـفَا

---

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ٢/ ٢١٩.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ٣٣٠.

(٣) هو طراد بن علي بن عبدالعزيز الدمشقيّ الكاتب، المعروف بالبديع. توفي في مصر سنة ٥٢٤هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ١٣١.

(٤) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/ ١٣٣.

وقول البهاء زهير في اثنين من الثُّقلاء -من مجزوء الخفيف-[1]:

وثقـيلٍ ما بَرِحْـنَا نَتَـمنّى البُـعدَ عنْهُ

غَابَ عَـنّا فـفَرِحْنا جـاءَنا أَثْقَـلُ مِنهُ

وقريب منهما قول ابن عُنين في أحد الكحّالين -من مجزوء الكامل-[2]:

كُحْلُ الشَّريفِ مُقاربٌ كَمْ ناظِرٍ قدْ أَغْمَضَا

تلقَى الـدَّوا بيمـينِهِ وشمَالُهُ تُعطِي القَضَا

وواضح أنّ هذه الأبيات قد جمعت إلى جانب الأوزان القصيرة، طرافة وبساطة ظاهرتين؛ فضلاً عن أنّ كلا منها لم يجاوز البيتين، وفي مثل هذا ما يمكن أن يحقّق لها قبولاً ورواجاً لدى عامّة الناس.

وعلى الرّغم من أنّ الصّنعة قد وجدت سبيلها إلى شعر هذه الفترة بصورة عامّة، ولاقت من قبل نقّاد العصر وأدبائه رضاً واستحساناً[3]، إلا أنّ شعر الهجاء مال -في كثير من نماذجه- إلى الأسلوب الشّعبيّ المطبوع الذي لا تكلُّف فيه، ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ الشّاعر كان -فيما يبدو- منسجماً مع ذاته التي لم يكبّلها -كما ذكر- ببعض الضّوابط والقيود، فلم يكن يعنيه -في أغلب الأحيان- أن يرضي توجّهاً ما، أو يراعي اشتراطات مفروضة، بل إنّ موضوع الهجاء من أكثر الموضوعات القائمة على الرّفض ومخالفة السّائد، وصدم الذّوق بما يؤذيه أحياناً، فكأنّ الشّاعر، والحالة هذه، كان يعبّر عن خواطر نفسه بتلقائيّة وعفويّة، متحرّراً من ضروب الصّنعة البديعيّة التي شاعت في

---

(١) البهاء زهير، ديوانه : ٢٦٢.

(٢) ابن عنين، ديوانه : ٢١٨ .

(٣) حول الاهتمام بظاهرة البديع، وكثرة التأليف فيها، انظر: محمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربيّ من القرن الخامس إلى العاشر الهجريّ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بلا تاريخ.

كثير من أدب هذه الفترة. وفي هذا -كما أرى- ما كفل لكثيرٍ من نماذج هذا الشّعر بعض الجدّة في الشكل والمضمون معاً، فبرزت في هذا الشّعر صفة الواقعيّة، والتّعبير عن صور من المشاهد اليوميّة بحيويّة وحرارة، وبذلك فقد نجت أجزاء واسعة من هذا الشّعر، مما وقع فيه غيرها من شعر هذه الفترة الذي تحوّل قسم منه «إلى استقراء واع لما انتجه الآخرون في مجال من المجالات، بدلاً من أن يستبطن الشّاعر ذاته، ويستمدّ من تجاربه، ثم يعبّر تعبيراً صادقاً عن موقفه هو عن الأحداث، أو الموضوعات التي يودّ النظم فيها»(١).

والنّماذج على هذا الأسلوب السّلس المطبوع المتحرّر من قيود الصّنعة الثّقيلة كثيرة، ولعلّه قد استبان بعض منها في فصول سابقة من هذه الدّراسة، ولا بأس -مع ذلك- من التّمثُّل هنا ببعض الشّواهد المقصودة التي لا تشكّل استقصاء، من ذلك -مثلاً- قول أسامة بن منقذ- الذي تميّز من بين شعراء عصره بالاقتصاد في استخدام الصّنعة- في تصوير هذا النّموذج البشري(٢):

ومُماذقٍ رجعُ النِّـــداءِ جَـوابُهُ فإذا عَرَا خطْبٌ فأبعدَ مَنْ دُعِي

مِثلُ الصَّدى يَخْفَى عليَّ مكانُهُ أبَـــداً، ويملأ بالإجابَةِ مسْمَعي

ومنها كذلك قول ابن عُنين الذي يسوق نقده لناظر الأيتام بدمشق بهذه الأبيات التي تميّزت بقرب المأخذ وتلقائيّة التّعبير، يقول(٣):

يا مَعشَرَ النّاس حالي بَيْنَكُمْ عَجبُ وليسَ لـــي بينكُمْ يا قَوْمُ أنصَارُ

---

(١) محمود إبراهيم، صدى الغزو الصّليبي في شعر ابن القيسراني: ١٩٦.

(٢) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٣٠٣.

(٣) ابن عنين، ديوانه: ١٣٨.

هذا ابنُ كامل قدْ أَوْدَعْتُهُ ذَهَبـاً صُيَّابةً[1] ما لَها في العَيْنِ مِقْـدارُ

وجئتُ أَطلبُها منهُ وقدْ عَرَضـتْ في السُّوقِ مني لُبـاناتٌ وأوطَـارُ

فقامَ ينفضُ كمّيهِ ويَنْظُـرُ فـي صُنْـدوقِهِ ويُنـادي جرَّها الفـارُ

فقُلتُ لا شبَّ قرنُ الفارِكَمْ أكلُوا مالَ اليتيمِ وكمْ جرُّوا وكَمْ جارُوا

وكي لا تبدو الدِّراسة تسويغيّة، تحاول أن تقدِّم النّموذج المقبول فنيّاً، وتغفل النّموذج الرّديء، فإنّه لا بدّ من الإشارة إلى أنّ التّفاوت -مع ذلك- كان ملحوظاً في مستوى هذا الشِّعر بين نموذج وآخر، فثمّة شعر -في هذا الإطار- كان قليل الغناء، ولا حظّ يذكر له من الإبداع؛ فكأنّ إيثار الشّاعر للبساطة، وتعجّله في نظم ما يخطر في باله لأوّل وهلة، وانسياقه -أحياناً- لانفعالاته وعواطفه الثائرة دون تريّث، وإعادة نظر، كان له -من جانب آخر- أثر سلبيّ في إنتاج نماذج لا قيمة فنيّة لها، على نحو ما يبدو -مثلاً- لدى هبة الله بن وزير الذي يقترب في قوله من السّباب المحض[2]:

يا منْ دَعَوهُ الرَّئيسَ لاعَنْ حقـيقةٍ بلْ عَلى مجازِ

لستُ أُكافيكَ عنْ قبـيحٍ منكَ بهَجْوٍ ولا أُجازي

وما عَسَى تبلُغُ الأهاجـي عنْ رجُلٍ كلُّه مَخَـازي

وقول ابن السّاعاتيّ الذي لا يبتعد كثيراً عن سباب العامّة وشتائمهم[3]:

جُـنّ أبو العقْلـيْنِ والـ ـمَـالُ الّـذي جَـنَّـنَهُ

ويلاهُ مـا أَبخَـلَهُ -الـ ـكَلْـبُ- وَمَـا أَجْبَـنَهُ

---

(١) الصيّابة : الخالص من كلّ شيء.

(٢) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر) : ٢/ ١٩١.

(٣) ابن الساعاتي، ديوانه: ٢/ ١٧٨.

قُلْ فيهِ كلَّ مُعْضِـــلٍ فـــإنّـــهُ وإنّـــهُ . . .

واقتربت نماذج من هذا الشّعر من لغة النّثر المباشرة التي لا أثر فيها للشّعر إلا من الوزن والقافية. ومن الشّواهد على هذا قول الشّاب الظّريف في انتقاد بعض المظاهر الاجتماعيّة في عصره[1]:

هذا الفقـــيرُ الّذي تراهُ كـالفَرْخِ مُلـقىً بغيرِ ريشِ

قدْ قَتَلتْهُ الحشيشُ سُكْراً والقتلُ من عادةِ الحشيشِ

وقول ابن قادوس في شخص يدعى ابن العلاني[2]:

هذا ابنُ عـــلانيكـــمُ، شِـــعْرُهُ يَنُوبُ في الصَّيفِ عنِ الخَيْشِ

إنْ لمْ يكُنْ مثلَ امرئ القيسِ فـي أشعارِهِ فهـوَ امـرؤ الفَيْـشِ

ومن الواضح أنّه ليس لهذه النّماذج من النّاحية الفنيّة أدنى قيمة.

ومع أنّ شعر الهجاء مال بصورة عامّة إلى الأسلوب المطبوع، كما ذكر قبل قليل، إلا أنّه لم يخل تماماً من الصّنعة التي تبدّت في بعض نماذجه. على نحو ما يتّضح -مثلاً- من قول القاضي الفاضل -الذي يلاحظ سعيه الدّائب إلى تطلُّب الصّنعة في شعره ونثره على حدّ سواء- في كحّال، لاجئاً في سخريته منه إلى المجانسة اللفظيّة التي لا تخلو من تكلّف[3]:

رجُلٌ توكّلَ لي وكـحّـــلني فدُهيْتُ في عَيْني وفي عَيْني[4]

---

(١) الشاب الظريف، ديوانه : ٣٣؛ وللاستزادة انظر: ٧٠ .

(٢) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): ١/ ٢٣١ .

(٣) القاضي الفاضل، ديوانه : ٢/ ٤٣٨ .

(٤) يريد بالعين الأولى: الباصرة، والثانية : النقد، المال.

وخَشِـيْتُ تنقُلُ نَقْطَ كُحْلتِهِ عينـيَّ من عَيْنٍ إلى غَيْنِ

ويلجأ الفاضل -أحياناً- إلى الطّرافة والجدّة في استخلاص المعاني، ولكنّ المتأمّل لمثل هذه المعاني، يلحظ أنّها وليدة جهد عقليّ يحرص على الصّنعة، ويسعى في تطلُّبها؛ وذلك كما يبدو من قوله في الكحّال نفسه[1]:

عادَى بَني العبّاسِ حتّى إنّهُ خَلَعَ السَّوادَ من العُيُونِ بكَحْلِه

ويلاحظ أنّ قدراً من التّمحّك والتّصنُّع كان ظاهراً في بعض هذا الشّعر، ولعلّ في قول ابن قلاقس الذي يهجو شخصاً يسمّى (أحمد) ما يدلّ على مثل هذا الحكم[2]:

قُلتُ لمنْ يَسْأَلُ عنْ أحمدٍ ما أحمدٌ عِنْدي بِمَحْمُودِ[3]

نَزْرٌ فَلَوْ ماتَ لما كانَ في جُثَّتِهِ ما يأكُلُ الدُّودُ

وساقطُ الهِمَّةِ لو أنَّهُ يُصْلبُ ما قامَ لهُ عُودُ

ويعْشقُ السُّؤددَ لكنَّهُ يَعْجَزُ دالاً فَهُو السُّودُ

ويبدو الأمر أكثر وضوحاً في أبيات لكمال الدّين بن العديم الذي يحوّل الشّعْر إلى عمليّة اشتقاقيّة جافّة لتوليد بعض المعاني المتكلّفة المتمحّلة[4]:

احذرْ من ابنِ العمِّ فهو مُصحَّفٌ ومن القريبِ فإنَّما هو أَحْرَفُ

القافُ من قَبْرٍ غَدا لكَ حافِراً والرَّاءُ منهُ ردىً لنَفْسِكَ يَخْطَفُ

---

(١) القاضي الفاضل، ديوانه : ٢/ ٤٢٩ .

(٢) ابن قلاقس، ديوانه : ٣٠٢ .

(٣) في البيت إقواء .

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء : ١٦/ ٥٤ .

والياءُ يأسٌ دائمٌ من خَـــيْرِهِ والباءُ بُغْضٌ منهُ لا يَتــكيَّفُ

فاقبلْ نصيحتيَ الّتي أهديتُها إنّـــي بأبناء العمــومةِ أعرَفُ

-٢-

ومع وضوح النّزعة الشّعبيّة في هذا الشّعر، واقتراب نماذج كثيرة منه -كما تبيّن- من تراكيب العامّة ومعانيهم، فإنّ قسماً منه -بالمقابل- تضمّن بعداً معرفيّاً وثقافيّاً، تمثّل بانفتاح بعض الشُّعراء على نصوص التّراث، وتوظيفها في التّعبير عن مضامين شعرهم. وهو أمر يعكس جانباً من ثقافة أولئك الشّـــعراء، وتمثّلهم لتراث أمّتهم، وتواصلهم معه.

وقد كان في طليعة هذه النصوص التي استدعاها شعراء هذه الفترة، القرآن الكريم الذي كان حضوره لافتاً في أدب هذه الفترة بصورة عامّة، باعتباره شكلاً من تعامل الأدباء مع تراثهم الدّينيّ الذي كان تواصلهم معه -في هذا العصر بالذّات- تواصلاً حميماً، وذلك بتأثيرٍ من صراع العقائد الذي تأجّج بفعل الحروب الصّليبيّة. هذا فضلاً عن استحسان ذوق العصر وقبوله لمثل هذا التّأثّر(١).

وقد جاء توظيف الشّعراء لهذا الخطاب القرآنيّ على غير صورة، منها: أن يلجأ الشاعر إلى الاقتباس المباشر دون أي تغيير أو تبديل على لفظ الآية الكريمة المقتبسة. ومن الشّواهد التي تمثّل ذلك قول ابن النّقيب ساخراً من أحد السّادة الذين لم يكونوا يلقون بالاً للبسطاء من أمثاله كما يقول(٢):

ما كانَ عيباً لو تفقّدتَني وقُلتَ هل أتْهَمَ أَوْ أَنْجَدَا

---

(١) ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح (ت٦٣٧هـ)، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٩م: ٢/ ٣٤١.

(٢) الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٣٢٥ .

فعادةُ السَّـــادات من قبلُ أنْ يَتــفقَّدُوا الأتْبــاعَ والأعْبُــدَا

هذا سُلَيْمَانُ علـــى مُلْــكِهِ وهو بأخْــبــارِ لهُ يُقْتَـــدى

تفــقّدَ الطَّــيرَ وأجْنَاسَــها «فقال مـالي لا أرى الهُدهُدا»

فالشّطر الثاني من البيت الأخير، هو اقتباس مباشر من قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ، أَمْ كانَ مِنَ الغائبين﴾[1]، وقد جاءت الآية الكريمة في مقام التّهديد والوعيد، حيث يقول تعالى على لسان سليمان عليه السّلام متوعّداً الهدهد بعد الآية السّابقة: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنّي بسُلْطَان مبين﴾[2]. غير أنّ الشّاعر قد نقل دلالة الآية الكريمة إلى مقام تفقّد الرّاعي لرعيته، وسؤاله عن أوضاعها؛ لتؤدّي دلالة جديدة تتفق ومبتغاه.

وأحياناً كان الشّاعر يلجأ إلى التّصرّف في لفظ الآية الكريمة عن طريق التّقديم والتّأخير أو التّبديل، وقد كان هذا الأسلوب أكثر شيوعاً من سابقه، ومما يمثل ذلك قول ابن قادوس في رجل كبير الأنف[3]:

عليكَ لا لَكَ أَنْفٌ ظلَّ مُشْترفاً حتّى غَدا بنُجُومِ الأُفْقِ مُلتصقَا

فلا تقُلْ خلقَةُ اللّهِ ازدريْتَ بها فَقَــدْ يُعاذُ بهِ منْ شرٍّ ما خَلقَا

وواضح أنّ عجز البيت الثاني مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ الفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مـا خَلَقَ﴾[4]، بعـد أن تصرّف الشّاعـر قليـلاً في ترتيب الآية الكريمة، وبعض كلماتها.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٢٠.

(٢) سورة النمل، الآية: ٢١.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ١/ ٢٣٤.

(٤) سورة الفلق، الآيتان: ١, ٢.

ومنه أيضاً قول الزّكي القوصي[1]، في هجاء أحد الولاة بعد أن أمر بنفيه من مصر إلى الشّام[2]:

لا تحسبِ الهيتيَّ يُفْلحُ بَعْدَها ونُحُوسُهُ يتبَعْنَهُ أنّى سَلكْ

قدْ غُلِّقتْ أبوابُ مصرٍ دُونهُ بُغضاً لطَلعَتِهِ وقالتْ هيْتَ لكْ

ففي هذين البيتين اقتباس واضح - مع بعض التّصرّف البسيط- من قوله تعالى في وصف قصّة يوسف عليه السّلام مع امرأة العزيز: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الّتي هُوَ في بَيْتِها عَنْ نَفْسِه، وَغَلَّقَتِ الأَبْوابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ، قالَ مَعَاذَ اللّهِ إنّهُ ربّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ﴾[3].

ومن الأساليب التي تبدّت في توظيف الخطاب القرآنيّ، إشارة بعض الشّعراء إلى مضمون الآية الكريمة دون ذكره، على نحو ما يبدو -مثلا- من قول علي بن عرام في هجو جماعة خيّبوا ظنّه بعد أن أراق ماء وجهه في مدحهم كما يقول، فعاد خائباً لم يحصّل غير النّدم[4]:

خَدَمتُكُمْ بالنَّظْمِ والنَّثْـــرِ عُمْري فَمَا أصلحتُمُ أَمْري

فرُحتُ عَنْكمْ خائباً حائراً في فِقَرٍ أدّتْ إلى فَـقْري

أَقْرعُ سنّي نـــدَماً تارةً وتــارةً أَقــرَأُ «والعَـصْرِ»

ففي قوله: "والعصر"، إشارة لا تخفى إلى قوله تعالى: ﴿والعَصْرِ، إنّ الإنْسَانَ

---

(١) هو عبدالرحمن بن وهيب، زكي الدين القوصي الكاتب، ناثر وشاعر، توفي بعد سنة ٦٤٠هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ٣٠٤.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ٣٠٦.

(٣) سورة يوسف، الآية : ٢٣.

(٤) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر) : ٢/ ١٩٠ .

لَفي خُسْرٍ﴾[1]. ويشبه هذا إلى حدّ بعيد قول ابن دانيال في الغرض ذاته[2]:

مَنْ مُنْصِفي مِنْ مَعْشرٍ أَلْبستُهُمْ مدْحي وظنّـــي أنَّهُـمْ كُبراءُ

قالُوا وما فَعَلُوا لبُخْلٍ فيــهـمُ فكــأنَّهُمْ كانُوا هُمُ الشُّعراءُ

فهو يشير إلى مضمون الآية الكريمة التي تصف نفراً من الشُّعراء بقوله تعالى ﴿وأنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالا يَفْعَلُونَ﴾[3]، مستثمره في التّعبير عن مقصده الهجائيّ، ولكنّ الافتعال -مع ذلك - كان بادياً في تطلُّب هذا المعنى.

ولجأ الشّعراء -أحياناً- إلى استيحاء القصص القرآنيّ، وتوظيفه في هجائهم. وقد تبدّى شيءٌ من ذلك في بعض الأمثلة السّابقة، ويتبدّى شيءٌ منه أيضاً، في قول القاضي الفاضل الذي يستوحي دلالة قصّة «أهل الكهف» لتصوير مماطلة أحد الأمراء في عطائه[4]:

لبثْتُ على بابِ الأميرِ مُعــلَّــلاً بوعْدٍ أسير في سلاسلِ مطْلِهِ

فيا أيُّها الكَهفُ الذي قد رجُوتُهُ لقدْ نِمْتَ عنّي مِثْلَ نوْمَةِ أَهلِهِ

ومثل هذا يلحظ في قول ابن المسجّف في استيحائه قصّة يونس عليه السّلام، لتوظيفها في النّيل من أحد مهجوّيه، متوسّلاً بالمقارنة التي تنتهي بتحقير المهجوّ، من خلال استحضار هذا الرّمز القرآني[5]:

يقِيْسُونَ يحيى بالفعال بيُوْنسٍ وهذا على ضدِّ القياسِ المؤسَّسِ

---

(١) سورة العصر، الآيتان: ١, ٢.

(٢) ابن دانيال، المختار من شعره: ٢٣٠.

(٣) سورة الشّعراء، الآية: ٢٢٦.

(٤) القاضي الفاضل، ديوانه: ٢/٤٢٧.

(٥) الكتبي، فوات الوفيات: ٢/٢٨٦.

وكيف يصحُّ الحكمُ والحوتُ بالعٌ لذاكَ، وهذا بالعٌ حوتَ يُونسِ

وثمّة إشارات إلى قصص قرآنيّة أخرى، تمّ توظيفها في هذا الشّعر، كقصّة يوسف عليه السّلام مع امرأة العزيز[١]، وقصّة موسى عليه السّلام مع عصاه[٢]، وقصّة ابن نوح[٣]، وقصّة إبراهيم عليه السّلام مع الأصنام[٤]. وقد تراوح هذا التّوظيف بين الاستحضار الذي لم يتعدَّ ذكر الاسم، وبين الاستحضار الذي وجّه بما يخدم النصّ ويكسبه دلالات جديدة.

ومن ملامح التأثّر بالنصّ القرآنيّ الكريم أيضاً، شيوع بعض الألفاظ والرّموز القرآنيّة، من مثل: أبي لهب[٥]، ومالك وجنوده[٦]، وفرعون[٧]، وأسماء الأصنام: (يعوق، ويغوث، وودّ)[٨]، وثمود[٩]، وعذاب السَّعير[١٠]، وغير ذلك.

واستفاد الشّعراء، في إطار الموروث الدّينيّ أيضاً، من أحاديث الرّسول عليه السّلام -وإن كان ذلك على نحو أقلّ- كما يبدو من قول شهاب الدّين بن غانم[١١] في هجاء أحد الفقهاء[١٢]:

---

(١) عرقلة الكلبي، ديوانه: ٨٧؛ الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ١٣٣، ٢/ ٣٠٦.

(٢) ابن عُنين، ديوانه: ٢١٧، ٢٤٠.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٣/ ٢٣٧.

(٤) القاضي الفاضل، ديوانه: ٢/ ٤٣٨-٤٣٩.

(٥) ابن الساعاتي، ديوانه: ٢/ ١٥٤؛ القاضي الفاضل، ديوانه: ٢/ ٤١٥-٤١٦.

(٦) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ٢/ ٢٢٩.

(٧) فتيان الشاغوري، ديوانه: ٢٣٧.

(٨) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٤٤١.

(٩) القاضي الفاضل، ديوانه: ٢/ ٤٣٩.

(١٠) ابن عُنين، ديوانه: ١٤٤.

(١١) هو أحمد بن محمد... الزيني الجعفري، كاتب مترسّل، باشر الإنشاء بصفد وغزة وقلعة الروم، ولد سنة ٦٥٠هـ في مكة، وتوفي بعد سنة ٧٣٧هـ. انظر الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ١٢٧.

(١٢) الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ١٢٩.

ما اعتكافُ الفقيهِ أخذاً بأجْرٍ بلْ لحكْمٍ قَضى به رَمَضَانُ

هو شهْرٌ تُغَلُّ فيهِ الشّياطِيـ ـنُ، ولا شكَّ أنّهُ شيْطانُ

ففي هذا استفادة واضحة من قول الرّسول عليه السّلام: «إذا جاء رمضان، فُتّحتْ أبواب الجنّة، وغُلّقت أبواب النّار، وصُفّدت[1] الشّياطين»[2].

وبدا التّأثر واضحاً كذلك ببعض مصطلحات الفقه وأحكامه؛ فقد استعار عدد من الشّعراء هذه المصطلحات، وسخّروها في أهاجيهم. ومما ورد في ذلك قول ابن عُنين في هجاء أحدهم[3]:

أصْبَحَ صفْعُ المُرتضَى بينَ الأنامِ مُرْتَضَى

وكانَ مندُوباً فأضْـ ـحَى واجِباً مُفْتَرضَا

ومنه أيضاً قول سيف الدّين المشدّ الذي يسوّغ هجاءه التّعميميّ بهذا الحكم الفقهيّ[4]:

وقالوا صَحِبْتَ الجاهلينَ سَفَاهةً فقُلتُ اسمَعُوا عُذْرِي ولا تُوسِعُوا عَتْبي

تيممتُهُمْ لمّا عدِمتُ ذَوي النُّهى ومنْ لمْ يجدْ ماءً تيمّمَ بالتُّرْبِ

-٣-

ومن التقنيات الفنيّة المرتبطة بأسلوب هذا الشّعر ولغته، تقنية «التّضمين»، وهو

---

(١) صُفّدت: الصّفد هو الغلّ. أي أوثقت بالأغلال.

(٢) مسلم. أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، بلا تاريخ: ٢/٧٥٨ (كتاب الصيام، حديث رقم١٠٧٩).

(٣) ابن عُنين، ديوانه: ٢٠٠.

(٤) سيف الدين المشد، ديوانه (ميكروفيلم): ٦٠.

-كما يعرفه النّقاد القدامى-: «قصدك إلى البيت من الشّعر أو القسيم فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثّل»[1]. وتعدّ هذه الوسيلة الفنيّة انعكاساً لاتصال الشّعراء بموروثهم الأدبيّ، وتوظيفهم له بما يخدم تجاربهم المعاصرة، وينسجم مع دلالة نصوصهم الشّعريّة. ومن الأمثلة على ذلك تضمين السّراج المحّار لشطر من شعر امرئ القيس في مقام سخريته من شخص جسّد هيئته على هذا النّحو المضحك[2]:

أَرَى لابنِ سعدٍ لحيةً قدْ تكامَلَتْ على وَجْهِهِ واستقْبَلَتْ كُلَّ مُقْبِلِ

ودارَتْ على أَنْفٍ عظيمٍ كأنّهُ كبيرُ أناسٍ في بِجَادٍ مُزمَّلِ

فالشطر الثاني من البيت الثاني هو تضمين مباشر من قول امرئ القيس في جبل إبّان[3]:

كأنّ أباناً في أفانين ودْقِهِ كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزمَّلِ

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، تضمين فتيان الشّاغوريّ لبعض شعر المتنبيّ، على نحو ما يتّضح في الأبيات التالية[4]:

نصْرٌ طبيبٌ ولكنْ لم يَعُدْ أَحَداً إلا وسَاقَ إليه طِبُّهُ الأَجَلا

فظلَّ يُنْشِدُ والأسْقامُ تنْهَبُهُ: أَحْيا، وأَيسرُ ما قاسيْتُ ما قَتَلا

كمْ قائلٍ قالَ: لولاهُ، لما وَجَدَتْ لها المنايا إلى أرواحِنا سُبُلا

---

(١) ابن رشيق، العمدة: ٢/ ٧٠٢.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ١٤٧.

(٣) امرؤ القيس، ديوانه: ٢٥.

(٤) فتيان الشّاغوري، ديوانه: ٥٨٥.

فعجز البيت الثاني من بيت هو مطلع قصيدة للمتنبي[1]:

أحيَا وأيسرُ ما قاسيْتُ ما قَتَلا والبَيْنُ جارٍ على ضَعْفِي وما عَدلا

أما البيت الثالث من أبيات فتيان السّابقة، فإنّ أكثره مأخوذ من بيت للمتنبيّ أيضاً من القصيدة ذاتها[2]:

لولا مُفَارَقَةُ الأحْبابِ ما وَجَدَتْ له المنايا إلى أرْوَاحِنا سُبُلا

وأبيات المتنبي تأتي في سياق الغزل من قصيدة مدحيّة قالها في صباه، غير أنّ الشّاغوريّ قد تحوّل بهذه الدّلالة، ليوظّفها في سياق هجاء ذلك الطّبيب، فجاءت على نحو موافق لما أراد.

وتكثر هذه الظّاهرة في شعر ابن عنين بصورة واضحة؛ فقد أكثر من استدعاء الموروث الشّعريّ السّابق، ووظّفه في التّعبير عن معانيه الهجائيّة. ويكشف استثمار ابن عنين لهذه الوسيلة الفنيّة عن ثقافة واسعة في معرفة الشّعر القديم، وتمثّل واع لكثير من نماذجه المشرقة. ومما يعبّر عن ذلك -مثلاً- قوله في رجل بخيل بدمشق، كان يعمل لأصدقائه كلّ سنة دعوة ويتبرّم بها، يقول[3]:

أحبابَنا ما لهذا الهجر من أَمَدِ وحقّكُمْ عزَّ صبري وانتَهَى جَلَدي

أبيضَةُ الدِّيكِ حظّي منْ وصالِكُمُ لا تَفْعَلُوا واجْعَلُوها دَعْوَةَ الأبدِ

. .عهدي بهِ واليدُ اليُمنى يكفُّ بها غرْبَ المدامعِ والأُخْرى على الكبِدِ

---

(١) المتنبيّ، أحمد بن الحسين، (ت٣٥٤هـ)، شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م: ٣/ ٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن عُنين، ديوانه: ١٤٦.

يقولُ للخبزِ لا يَبْعُدْ مداكَ ولا «أخْنى عليكَ الّذي أخْنَى على لُبَدِ»

ففي الشّطر الثّاني من البيت الأخير، تضمين من قول النّابغة الذبيانيّ في الدّيار بعد رحيل أصحابها عنها[1]:

أَضْحَتْ خلاءً وأَضْحَى أهْلُها احْتَمَلوا أَخنَى عليها الّذي أَخنى على لُبَدِ

وتتميّز أبيات ابن عُنين السّابقة بسخرية لطيفة، جسّد -من خلالها- صورة ذلك البخيل الذي تنهمر دموعه مدرارة، وتتقطّع كبده لضيقه بهذه الدّعوة، على ندرتها التي تتكرّر في العام مرة. وتكمن براعة الشّاعر في قدرته على نقل دلالة قول النّابغة الذي جاء في مقام الجدّ والتّأثّر، إلى مقام السّخرية والهزل، مما أكسب أبياته حيوية وتجدّداً، على الرّغم من تباين تجربة كلّ من الشّاعرين، واختلافها عن الأخرى.

وعلى النّحو نفسه، جاء تضمينه لشيء من شعر المتنبّيّ، وذلك كما يبدو من قوله في هجاء أحد أطباء العيون في عصره[2]:

سُليمانُ السُّليمانيُّ يَبْغُو ويُصْفَعُ دائماً في أخْدعَيْهِ

يرومُ تطبُّبَ الأبصارِ جَهْلاً وكيفَ وداؤها نَظَرٌ إليهِ

يُصافي بالمودَّةِ كلَّ نذْلٍ شبيهٍ بالنَّزيهِ ومدلويهِ

ولكنْ ليْسَ هذا منهُ بِدعاً «فشِبْهُ الشَّيءِ مُنْجذِبٌ إليه»[3]

---

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، جمعه وشرحه محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسيّة للنشر، جانفي، ١٩٧٦م: ٧٨.

(٢) ابن عُنين، ديوانه: ٢١٨.

(٣) هذا العجز تضمين من قول المتنبي:

وشبْهُ الشّيءِ مُنْجذبٌ إليه وأشْبَهُنا بدنيانا الطّغامُ

انظر: ديوانه: ٤/ ١٩٢.

فقد ختم ابن عنين مقطوعته السّابقة بحكمة استمدّها من شعر المتنبّيّ الذي عرف في هذا المجال وبرع، لتأكيد فكرته وتدعيمها، ويلاحظ أنّ دلالة كلّ من النّصين كانت على درجة متقاربة من التّوافق؛ فكلا الشّاعرين ينقد - حسب رؤيته وموقفه- واقعاً غير سويّ. ومع هذا فقد تميّز نقد المتنبّي بطابع الجدّ والصّرامة، وتميّز نقد ابن عنين بروح النكتة والدّعابة. وفي هذا ما يميّز تجربة شعريّة عن أخرى، ويكشف عن ملامح دالّة لكلّ منهما.

وفي إطار التأثّر بالشّعراء السّابقين، لجأ بعض الشّعراء إلى أخذ المعنى، وبعض الألفاظ (إن لم يكن أغلبها)، دون التّصريح بذلك. وهو أمر يقود إلى قضيّة معروفة في النّقد العربيّ القديم، هي قضيّة السّرقات الأدبيّة التي كثر التّأليف فيها[1]؛ فمن يقرأ -مثلاً- قول شرف الدّين الأنصاريّ في هجاء أحد الشّعراء[2]:

وَجَهْمِ الوجْهِ رذْلِ الشّعْرِ منهُ رَجَوْتُ النَّفْعَ حيْثُ ضَرَىً وضَيْرُ[3]

بَدَا لي وجهُهُ فخَشِيْتُ شـــرّاً وأنشَـــدَني، فقُـــلتُ: . . . وخَيْرُ

لا يملك إلا أن يربطه -كما لاحظ ذلك محقّق ديوانه -بقول دعبل الخزاعيّ[4]:

خَرَجْتُ مُبكراً من «سُرّا مَنْ را» أُبــادِرُ حــاجةً، فإذا عُمَيْرُ

فلم أثْنِ العِنانَ، وقُلتُ: أَمضـي فوجهُكَ يا عميرُ . . . وخيْرُ

فالمعنى في النّموذجين واحد، فضلاً عن اشتراكهما في الوزن والقافية، وبعض

---

(١) حول قضية السرقات انظر: بدوي طبانة، السّرقات الأدبية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦م.

(٢) شرف الدين الأنصاريّ، ديوانه: ٥٤٩.

(٣) يقال ضري الكلب بالصيد ضرى أي تعوده.

(٤) دعبل بن علي الخزاعي (ت٢٤٦هـ)، شعره، صنعة عبدالكريم الأشتر، ط٢، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٣م: ١٣٧.

الألفاظ. وليس في قول عبدالله بن الطّباخ الكاتب[1]:

قصُرتْ أخادعُهُ وغَاضَ قـذَالُهُ فــكأنّه مُتوقّعٌ أنْ يُصْـفَعا

وكــأنَّـــــهُ قدْ ذاقَ أوّلَ دِرَّةٍ وأحسَّ ثانيةً لها فَتَجَـــمَّعا

سوى سلخ لقول ابن الروميّ، دون أدنى إضافة أو غاية[2]:

قصُرتْ أخَادِعُهُ وطَالَ قذالُهُ فـكأنَّهُ مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا

وكأنّما صُفِـعَتْ قفَـــاهُ مرّةً وأحـسَّ ثانيةً لهَا فَتَجمَّعا

ومن الواضح أنّه ليس في هذا التّوظيف أيّة قيمة فنيّة تذكر، فهو لا يعدو أن يكون نسخاً وإعادة نظم للنّموذج المحتذى.

ولعلّ أطرف صور توظيف الموروث الشّعريّ في هذا الاتّجاه، ما يمكن أن يسمّى «بالمعارضة السّاخرة»، وهي التي تتّخذ من قصيدة سابقة نصّاً مرجعيّاً لها. غير أنّ المعارضة في هذا السّياق تعمد إلى «التّقليد الهزليّ، أو قلب الوظيفة، بحيث يصير الخطاب الجديّ هزليّاً، والهزليّ جديّاً... والمدح ذمّاً، والذّمّ مدحاً»[3]. ويبرز هذا المنحى -بصورة خاصة- لدى أبي الحكم الأندلسيّ «الذي كان شاعراً خليعاً مطبوعاً، له ديوان سمّاه نهج الوضاعة، ذكر منه مثالب الشُّعراء الذين كانوا بدمشق»[4]. ومما قاله في أحدهم -وهو الطّبيب المفشكل اليهوديّ- هذه المعارضة السّاخرة التي تجري على

---

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ٢/٩٨؛ وعبدالله بن الطباخ ممن أدرجهم العماد في باب الشّعراء الذين عاصروا الأفضل الجمالي (ت٥١٥هـ)، انظر: المصدر نفسه.

(٢) ابن الرومي، علي بن العباس(ت٢٨٣ هـ)، ديوانه، مختارات كيلاني، المطبعة التوفيقيّة: ١/١٤٦، نقلاً عن: قحطان التميميّ، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري: ٤١٥.

(٣) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجيّة التّناص)، ط٢، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦م: ١٢١.

(٤) الكتبيّ، عيون التواريخ: ١٢/ ٤٨٠.

النّحو التالي[1]:

ألا عُدْ عنْ ذِكرَى حَبيْبٍ ومَنْـــزلِ وعرِّجْ علَى قبْرِ الــطَّبيبِ المُفَــشْكَـلِ

فيارحمةَ الــلّهِ استهـــيني بقـــبرِهِ وكونِـــي عنِ الشَّيخِ الوضيعِ بمعزلِ

ويا منكراً جـــوداً هديـــت قـــذاله بمقنعةٍ واسقلْهُ سَقْــلَ السَّجَنْـــجلِ

وكَبكبْهُ في قَعْرِ الجـحيـمِ بوجْبَـةٍ كجُلمُودِ صخرٍ حطَّهُ السَّيْلُ من علِ

لَقَدْ حازَ ذاكَ اللّحْدُ أخْبَثَ جِيْـفةٍ وأوْضعَ مَيْتٍ بيْنَ تُـــرْبٍ وجَنْـدَلِ

سأُسْبِلُ مِنْ بَطْني علـــيْهِ مَدَامِعـــي وأوْرِدُهُ مِن مائـــها شـــرَّ مَنْهَـــلِ

لعلّ أبا عمـــرانَ حـــنّ لشَخْـــصِهِ وقالَ لَهُ أسْـــرِعْ إليّ وعَـــجّـــلِ

فما ضمَّ بَطْنُ الأرْضِ أنْجسَ منهما وأنْذَلَ مِنْ رَهْطِ الغويّ السَّمَـــوألِ

فـالأبيـات تتكىء -كـمـا هو واضح- على معلّقـة امـرىء القيس المشهـورة التي مطلعها[2]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ بسقط اللّوى بيْنَ الدّخولِ فَحَوْملِ

وتجعل منها مصدراً لتوليد بعض الصّور والمعاني، وقد تعدّى التّضمين هنا استعادة شطر أو جزء من بيت إلى استحضار بعض أبيات القصيدة المعارَضة والاستفادة منها في غير موضع. فهو يدخل ألفاظاً وأنماطاً تعبيريّة جاهزة -مع بعض التّحوير في بعضها أحياناً- من المعلّقة ليضمّنها أبياته، بحيث تبدو وكأنها جزء منها، وذلك على نحو ما يبدو -مثلاً- في : « ذكرى حبيب ومنزل»، و«اسقله سقل السّجنجل»، و« كجلمود

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٦٢٥؛ وانظر معارضة ساخرة أخرى في: ابن عنين، ديوانه: ٢٣١-٢٣٢.

(٢) امرؤ القيس، ديوانه: ٨.

صخر حطّه السّيل من عل». غير أنّه يلاحظ ما بين سياق هذه الأبيات والمعلّقة من تغاير واختلاف؛ ففي حين تتّخذ معلّقة امرىء القيس صفة التّحسُّر والألم المتأتّي من وقوف قائلها على الأطلال، وحزنه على من رحل عنها، وخلّفها مقفرة موحشة. نجد أبيات أبي الحكم تنحو إلى الهزل والعبث الهادف إلى السّخرية والإضحاك من خصمه. وقد تبدّى توجّه الشّاعر الهزليّ كذلك في قلّة عدد أبيات قصيدته التي تكشف عن عدم جدّيته في محاكاة نصّ المعلّقة. وليس في الأمر غرابة لمن يستقرىء جانباً من سيرة هذا الشّاعر الذي كان «ديوانه كلّه هكذا يغلب عليه الهزل... وكان يهاجي أهل عصره، ويرثي أحياء لم يموتوا مجوناً منه وهزلاً»[1]. وقد اتّضح شيء من هذا في الفصل الأوّل من هذه الدّراسة. على أنّه لا بدّ أن يُسجّل لأبي الحكم-مع ذلك- في توظيفه هذا قدرته على التّحوّل بمقصد النصّ التراثيّ، إلى ما يخدم توجّهه الهزليّ هذا، فاكتسبت أبياته حيويّة وطاقة تأتّت لها من خلال تفاعل هذين النّصين وتدخلهما، مما يعني أنّ التّضمين هنا كان واعياً ومقصوداً، وليس مجرد اجترار وإعادة لا طائل وراءهما.

وتتّخذ المعارضة -أحياناً- من نقد الواقع وإدانته هدفاً لها، ومما يمثّل ذلك قصيدة البوصيريّ المشهورة في نقد المستخدمين[2]:

ثكلتُ طَوائفَ المُسْتَخْدَمِيْنا فَلَمْ أَرَ فِيْهُمُ رَجُلاً أَمِيْنَا

وقد سبق أن أشير لهذه القصيدة في معرض الحديث عن الهجاء الاجتماعيّ. والنّاظر في القصيدة، يلاحظ أنّ ثمّة قواسم مشتركة بينها وبين معلّقة عمرو بن كلثوم المعروفة[3]:

---

(١) الكتبيّ، عيون التواريخ: ١٢/ ٤٨٤.

(٢) البوصيريّ، ديوانه: ٢٦٦..

(٣) الزوزني، الحسين بن أحمد (ت٤٨٦هـ)، شرح المعلقات السّبع، تحقيق وتعليق: محمد عبدالقادر أحمد، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م: ٢٩١.

ألا هبّي بِصَحْنِك فاصْبَحِيْنا ولا تُبْقي خُمُورَ الأَنْدَرِيْنا

ففضلاً عن اشتراك القصيدتين في الوزن والقافية، فإنّ قصيدة البوصيريّ تستعير من المعلّقة بعض تراكيبها وصورها مع بعض التّحوير فيها، وفي هذا ما يدلّ على أنّ معلّقة عمرو بن كلثوم كانت حاضرة في ذهن البوصيريّ وهو ينظم قصيدته. وسأورد عدداً من الأبيات المتفرّقة التي تمّ اجتزاؤها من قصيدة البوصيريّ؛ لأوافقها -على التّرتيب- بأبيات أُخرى من معلّقة ابن كلثوم؛ لإبراز مدى التّشابه والاحتذاء بين القصيدتين. يقول البوصيريّ:

- فَخُذْ أَخْبارَهُمْ منْي شِفَاهاً وأَنظِرْني لأُخبِرَكَ اليقينا
- بأيِّ أمانةٍ وبأيِّ ضَبْطٍ أردُّ عن الخيانةِ فاسقينا
- وأقلامُ الجماعةِ جائلاتٌ كأَسْيافٍ بأيْدي لاعبينا
- ولا تَحْسبْ حِسَابَهُمْ صحيحاً فإنَّ بخصْمِه الداءَ الدَّفينا
- فَصَالُوا صَوْلةً فيمَنْ يليهمْ وصُلْنا صَوْلةً فيمنْ يلينا
- فجئنا بالنِّهابِ وبالسَّبايا وجاءوا بالرِّجالِ مُصَفَّدينا
- وجِنٌّ مشارِفٍ بُعثُوا شُهُودا فإنَّ من الوثوقِ بهمْ جُنُونا
- إذا ألقَى بها مُوسى عصَاهُ تلقّفتِ القَوافلَ والسَّفينا

فهذه الأبيات تلتقي على نحو لا تخطئه العين، مع أبيات ابن كلثوم التالية، التي اجتزئت أيضاً دون مراعاة التّرتيب، مع الإشارة إلى أنَّ التّأثّر قد يكون على مستوى المعنى أو التركيب أو المفردة:

- أبا هِنْدٍ فلا تَعْجَلْ علينا وأنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليقينا

- بأيّ مشيئةِ عمـــرو بـــن هِنْدٍ تُطيعُ بنا الوُشَاةَ وتَزْدرينـا

- كأنّ سيـــوفَنا فيـــنا وفيـــهِمْ مخـاريـقٌ بأيـــدي لاعِبينـا

- وإنَّ الضِّغنَ بَعْدَ الضِّـغْنِ يـبدو عليكَ ويُخْرجُ الـدَّاءَ الدَّفينا

- فصالُوا صَوْلَةً فيمَـــنْ يلـــيهمْ وصُلْنا صولَةً فيَمنْ يَلِيـــنا

- فآبوا بالنِّـــهابِ وبالسَّـــبايـــا وأُبنا بالملوكِ مُصـــفَّدينـا

- ومأكمةً يَضـيقُ البابُ عنـــها وكَشْحاً قدْ جُنِنْتُ به جُنُونا

- مَلأْنا البرَّ حتّـــى ضاقَ عنّـــا وماءُ البَحْرِ نَمْـلَؤُهُ سَفِـيْنا

وعند النّظر في بنية كلّ من القصيدتين ومنهجها، يبدو الاختلاف بينهما واضحاً؛ ففي حين تضمّنت معلّقة عمرو بن كلثوم -على عادة القصيدة الجاهليّة- غير توقيع، كابتدائها بالخمر والنّسيب، وحديثها عن الظّعائن، والفخر بالقبيلة، وصولاً إلى تهديد عمرو بن هند، نلاحظ -في المقابل- أنّ قصيدة البوصيريّ قد تضمّنت موضوعاً واحداً، استقصت جوانبه وأبعاده بقدر من الإفاضة. وهو موضوع ذو ارتباط بحياة الشّاعر وعصره، وفي هذا ما يدل على أنّ الشّاعر كان على وعي بقيمة هذه الإفادة؛ فقد تمكّن من توجيه هذا التّضمين بما يخدم رؤيته التي يريد التّعبير عنها. ولعلّ هذا الوعي يتّضح كذلك من خلال اختياره الموفّق لهذه المعلّقة دون غيرها، لإقامة هذا التّداخل والتّفاعل معها، فعلى ما بين القصيدتين من تغاير واختلاف سواء من حيث البناء أو المضمون كما ذكر؛ فإنّ المدقّق جيّداً فيهما يلاحظ مع ذلك «أنّ كلتا القصيدتين تتحدّث عن أضرب الصّراع، فقصيدة عمرو بن كلثوم تتحدّث عن الصّراع القبليّ، وقصيدة البوصيريّ تتحدّث عن الصّراع الاجتماعيّ بين المستخدمين والعامّة،وتبع هذا الاختلاف في طبيعة الصّراع اختلاف في المعاني الجزئيّة التي تناولها كلّ شاعر»[1].

---

(١) شفيق الرقب، النزعة الاجتماعيّة في شعر البوصيريّ: ١٩٦-١٩٧.

ويرتبط بتوظيف الموروث الأدبيّ، تضمين بعض الشُّعراء لأمثال وأقوال مشهورة، وقد حمل هذا التّضمين بعداً وظيفيّاً تمثّل في رغبة الشّاعر في تأكيد فكرته وتدعيمها في ذهن المستمع بمثل أو بقول له حضوره في الذّاكرة. وعند النّظر في أساليب هذا التّضمين في هذا الجانب، يلاحظ أنّ بعض الشّعراء ذهب إلى ذكر المثل، وتضمينه في شعره بلفظه دون تغيير، بشكل يبدو فيه المثل منسجماً مع السِّياق، وكأنّه جزء منه. ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الذّرويّ- وقد سبق الإشارة إليه في الحديث عن الهجاء الاجتماعيّ- في المهذّب الذي كان نصرانيّاً، فأسلم، ثم عاد عن إسلامه، حيث ينهي أبياته بالمثل القائل: « العود أحمد»[1]؛ ليكون بمثابة قفل (نتيجة) يؤكّد ما قبله ويعزّزه[2]:

لَمْ يُسْلِمِ الشَّيخُ الخَطيـ ـرُ لرَغْبةٍ في دِيْنِ أَحْمدْ
بَل ظَنّ أنّ محالَهُ يُبْقي لَهُ الدِّيوانَ سَرْمَدْ
والآنَ قدْ صَرَفُوهُ عَنْهُ فَدِينُهُ فالعَوْدُ أحمَدْ

وذهب بعض الشُّعراء، إلى الإشارة للمثل دون التّصريح بذكره، على نحو ما يبدو لدى عرقلة الكلبيّ، الذي يسخر من نفسه بقوله [3]:

مولايَ إنَّ الكلبيَّ عَرْقلةً مِثْلُ المُعَيْدِي صاحبِ المَثَلِ

ففي البيت إشارة واضحة إلى المثل المعروف: « تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه»[4].

---

(١) الميداني، مجمع الأمثال: ٢/ ٣٤.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٦/ ١٠٩.

(٣) عرقلة الكلبي، ديوانه: ٨٦.

(٤) الميداني، مجمع الأمثال: ١/ ١٢٩.

وقد لجأ بعض الشّعراء إلى التصرّف بألفاظ المثل، فلم يرد المثل بتمامه وإنّما تصرفوا به بما يمكن أن يدلّ عليه بوضوح، ولعلّ ذلك كان بتأثير من طبيعة الشّعر، وما يستلزمه فيه كلّ من الوزن والقافية من تحوير؛ فابن دانيال -مثلاً- يضمّن، مع بعض التصرّف، المثل الشّائع: « رَجَعَ بخُفَّيْ حُنَيْن»[1]؛ للتهكّم من صنعة أحد الأطباء[2]:

إياكَ طِبّ ابن أبي صـــادقٍ فإنّـــهُ في الطِّـــب زَوْرٌ ومَيْنْ

وانْظُرْ تَجِدهُ في تَصَانيْـــفِه قَدْ صَـــفَعَ الطِّبَّ بخُفَّيْ حُنَيْنْ

-٤-

وتضمّنت بعض النّماذج إشارات تاريخيّة لبعض الأشخاص والأحداث السّابقة. وغالباً ما يتمّ توجيه هذا الجانب لخدمة بعض المضامين الهجائيّة؛ فقد يلجأ الشّاعر إلى استثمار إحدى الشّخصيّات التاريخيّة للسّخرية والتّهكّم - من خلالها- ببعض أنداده. ومن هذا القبيل قول فتيان الشّاغوريّ في القاضي الفاضل؛ إذ يجمع - في هجائه- بين شخصيتين عرفت كلّ منهما بما يناقض الأخرى، لاستخراج معان ساخرة[3]:

لا مَرْحباً بالنّاقص ابن الفاضلِ هـــذا ابنُ قُسٍّ في فهـاهَةِ باقِلِ[4]

وأجلُّ قـدْراً منهُ بغْلَتـــهُ الّتي أَضْحَى أبوها منْـــهُ فَوْقَ الكـاهِلِ[5]

---

(١) الميداني، مجمع الأمثال: ١/ ٢٩٦.

(٢) ابن دانيال، المختار من شعره: ٢٤٦؛ وفي توظيف هذا المثل، انظر أيضاً: فتيان الشاغوري، ديوانه: ٥١٧.

(٣) فتيان الشاغوريّ، ديوانه: ٣٦٠-٣٦١.

(٤) قُس هنا هو قُسّ بن ساعدة الإياديّ أحد حكماء العرب وخطبائهم في الجاهليّة. انظر: الأصفهاني، أبو الفرج (ت٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، تحقيق: عبدالستار أحمد فرج، الدار التونسية للنشر، تونس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م: ١٥/ ١٩١؛ وباقل هو: باقل الإياديّ، جاهليّ يضرب بعيه المثل. انظر: الزّركلي، الأعلام: ٢/ ٤٢.

(٥) أبوهاهنا: أي الحمار الذي هو أبو البغلة.

ولعل هجاء فتيان هذا كان بدافع من الخصومات الشّخصيّة أو المنافسات الأدبيّة التي قد تأخذ طريقها عادة بين الشُّعراء؛ إذ من المستبعد أن يكون مثل هذا الهجاء الذي بلغ حدّ الشّتيمة البذيئة على سبيل الظّرف والدعابة .

ويعبّر هذا التّوظيف -أحياناً- عن توجُّه الشّاعر ومنطلقاته؛ فعرقلة الكلبيّ الذي عرف بتشيّعه -كما أشير إلى ذلك من قبل- يرد في هجائه ذكر الأسماء والأحداث المتّصلة بالشّيعة، على نحو ما يبدو في قوله مخاطباً أقرباء الملك الصّالح طلائع، بعدما منعه البوّاب من الدّخول[1]:

علَى بابِكُمْ يا آلَ «رزّيك» شاعرٌ ... قَنوعٌ كَفَاه منْكُمُ الودُّ والبِشْرُ

وقَدْ ردّهُ البوّابُ جهْلاً بوجْهِهِ ... «كما ردَّها يَوْماً بسَوْءته عمْرو»[2]

تمنيتُكُمْ حتّى إذا ما قرَبْتُمُ ... بَعُدتمْ، وما بَيْني وبيْنكُمُ شِبْرُ

وقَدْ كانَ مُشْتاقاً إليَّ طلائعٌ ... فَواعَجَباً لِمْ قد أبى صحبتي بَدْرُ

وحتّى حُسَيْنٌ وهْوَ سيِّدُ مَذْهبي ... زَوَى وَجْهَهُ عنّي كأنّنيَ الشّمْرُ[3]

ففي الأبيات إشارات دالّة من التّاريخ الإسلاميّ؛ كالإشارة إلى قصة عمرو بن العاص حين بَدتْ سوءتُه يوم صفين فنجا من القتل[4]، والإشارة للحسين وقاتله الشّمر، مما يدل على معرفة الشّاعر بهذا الفكر وبكثير من أصوله.

ومن هذه الإشارات ما اتّخذ صوراً من التّورية المستطرفة؛ كقول ابن عنين في

---

(١) عرقلة الكلبيّ، ديوانه: ٤٨-٤٩.

(٢) هذا الشّطر من رائية أبي فراس الحمدانيّ المشهورة. انظر: أبو فراس الحمدانيّ، الحارث بن سعيد (ت٣٥٧هـ)، ديوانه، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٣م: ٦٥.

(٣) هو شمر بن ذي الجوشن (...- ٦٦هـ)، من كبار قتلة الحسين. انظر: الزركليّ، الأعلام: ٣/ ١٧٥.

(٤) المنقري، نصر بن مزاحم (ت٢١٢هـ)، وقعة صفين، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م: ٤٠٧.

الشّريف الكحال وكان قد أحب غلاماً ينبز بالجمل[1]:

فَديتُكَ قُلْ للشّريفِ الشّهابِ وإنْ شاطَ غيْظاً فلا تحْتفِلْ

تُوالي الحنابلةَ القائـــلينَ بأنّ يــزيــدَ إمامٌ عَــدَلْ

وتَزْعُمُ أنّكَ مِنْ عِـتْرةِ الـ ـوصـيِّ وأنْتَ تُحبُّ الجَمَلْ

-٥-

واستثمر الشُّعراء -في الإطار نفسه- معارفهم اللغويّة، ووظّفوها في مضامينهم الهجائيّة، وقد اقترن هذا التّوظيف غالباً بالتّورية؛ إذ يورّي الشّاعر ببعض المصطلحات الخاصّة بالنّحو أو العروض أو غير ذلك، لاستدعاء بعض المعاني الطّريفة التي كان يتلقّاها الذّوق العامّ في تلك الفترة بالرّضا والقبول. وقد جاء توظيف هذه المعارف والمصطلحات على مستويات متباينة. فمنه ما اتّسم بشيء من البراعة، فكان متوافقاً مع السِّياق الذي وظّف فيه، على نحو ما يتبدّى -مثلاً- من قول نور الدّين الإسعردي[2]:

يقولُون إنَّ المجــدَ بالقَصْفِ مُــولعٌ فقُلتُ لهُمْ: ما اعْتَادَ شيئاً سِوى القَصْفِ

فقالُوا: أَتَى عِلْماً ولَفْظاً بَمجــلِسٍ فلمْ مُنعُــوا عنْ صــرْفِهِ راغمَ الأنْفِ؟

فقُلــــتُ: لتأنيــثٍ بِهِ ولعُجْــمَةٍ فَقالُوا : وقد تُلــجي الضّــرورةُ للصَّرفِ

ولا بدّ من تقطيعِــهِ عندَ قَبْــضِهِ فَقَدْ زادَ بَسْــطَ الكفِّ في جِهَةِ الوَقْفِ

إذ يلجأ الشّاعر إلى التّورية من خلال استخدام المصطلحات النّحويّة والعروضيّة التّالية: (صرف، تأنيث، عجمة، تقطيع، قبض)، بقصد التهكُّم والسّخرية من مهجوّه

---

(١) ابن عُنين، ديوانه: ١٣٥.

(٢) الصفدي، الغيث المسجم: ١/ ٣٥٩.

ذاك، ويشبه هذا على نحو مقارب قول ابن عُنين حين سمع بعزل المؤيد (والي دمشق وقتذاك) من منصبه، حيث يقول فيه[1]:

تشكَّى المؤيَّـدُ منْ صَـرْفِه وذمَّ الزَّمانَ وأبدى السَّفَهْ

فقلتُ لهُ لا تذمَّ الزّمـانَ فتظلمَ أيّـامَهُ المُنْـصِـفَهْ

ولا تَغْضَبَنَّ إذا ما صُرِفْتَ فلا عَدْلَ فِيْكَ ولا مَعْرِفَهْ

فهو يعمد -كما ذهب الإسعردي- إلى أُسلوب التّورية الذي حمّل أبياته إيماءات ذكيّة ناقدة، كشفت عن قدر من البراعة في توظيف مصطلحات العلوم للتّعبير عن نقده لبعض رجالات عصره.

ومن هذا التّوظيف ما اتّسم بالتكلُّف والتّصنُّع؛ فبدا مقحماً غير موفّق، إذ اتّصف بقدر من الحذلقة والتّوظيف غير المسوّغ، ويتّضح مثل ذلك مثلاً لدى قاسم الواسطيّ الذي يستجلب بعض الأسماء والظّروف (أين، منذ)، لاستثمارها في التّعبير عن بخل أحد أصدقائه[2]:

لنا صديقٌ فيه انقـباضٌ ونَحْنُ بالبَسْطِ نَسْتَـلذُّ

لا يَعرفُ الفَتْحَ منْ يديهِ إلا إذا ما أَتـاهُ أَخْـذُ

فكفّهُ «أَينَ» حينَ تُعطـي شيئاً وبعدَ العطَاءِ «مُنْذُ»

ومثله قول الشّواء الحلبيّ في التّعبير عن المعنى السّابق، بالأسلوب ذاته، والطّريقة عينها[3]:

---

(١) ابن عُنين، ديوانه: ٢٢٩.

(٢) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٣/ ١٩٤.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ٢٣٣.

لـــنا خـليـــلٌ لـــهُ خـــلال تُعـــرِبُ عنْ أصـــله الأخسّ

أضحتْ لهُ مثلَ «حيثُ» كفٌّ[1] وددْتُ لو أنّها كـ «أمـــسِ»[2]

ويشبه النّموذجين السّابقين، قول شرف الدّين الأنصاريّ الذي يتّخذ من بعض القواعد اللغويّة دليلاً لتأكيد معنى هجائيّ[3]:

النَّذْلُ مَفرُوضٌ لهُ يُســـرُهُ والحـــرُّ بالإعســـار مرفُوضُ

كذلكَ المنقُوصُ لم يَنْخَفِضْ وأكْمَلُ الأسمـــاءِ مَخْـــفُوضُ

ومن الواضح أنّ هذا الاتّجاه يعبّر عن ملمح يتطلّب الجدّة التي لم يحالفها النّجاح دائماً؛ إذ إنّ المبالغة في استثمار هذه المعارف في الشّعر، من أجل توليد معنى جديد أو استخراج فكرة طريفة، قد يؤدّي إلى نتائج غير موفّقة. وهو توجّه بقدر ما يعبّر عن تمكّن بعض الشّعراء من لغتهم، ومعرفتهم بقواعدها؛ فإنّه قد يسوق الشّاعر -أحياناً- إلى إقامة علاقات منطقيّة عقليّة في النّسيج الشّعريّ، وهو ما لا تتقبّله روح الشّعر وترضاه.

---

(١) يريد أنها مضمومة، مثل بناء «حيث» على الضّمّ.

(٢) يريد أنّه أحب أنْ تكسر مثل بناء «أمس» على الكسر.

(٣) شرف الدين الأنصاريّ، ديوانه: ٢٨٨؛ وانظر أمثلة مشابهة في: العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): ١/ ٤٩٠؛ الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٤١٠.

٥- الصّورة الشّعريّة :

عند الحديث عن الصّورة الشّعريّة في شعر الهجاء، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذا الموضوع الشعريّ من أكثر الموضوعات التي تتطلّب -في العادة- قدراً قليلاً من الخيال[١]. ولعلّ ذلك مرتبط بسمات هذا الشّعر الذي يستمدّ أغلب مادّته من الواقع وحياة النّاس. زيادة على مرامي هذا الشّعر الهادفة إلى التّأثير في الآخرين بأيسر الطّرق وأسرعها. وهو أمر لن يتمّ إذا ما تطلّب الشّاعر خيالاً بعيداً، وصوراً عميقة تحتاج إلى طول تأمّل وتدبُّر لإدراكها. ثمّ إنّ شعر الهجاء-كما أشير إلى ذلك في موضع سابق- كثيراً ما يكون وليد ما تمليه حادثة أو موقف عارض. ومثل هذا من شأنه أن يدفع الشّاعر إلى سرعة التّعبير عمّا يجيش بخاطره، دون أن يجد الوقت في تخيّر صوره وتطلبُّها.

-١-

وقد تعدّدت المصادر الّتي استقى منها الشّعراء صورهم. فكان للحياة اليوميّة وما تزخر به من مشاهد، نصيب في تشكيل عددٍ من هذه الصّور؛ فقد استوحى ابن دنينير صورة الذُّباب المتهالك على الجرح، لتوجيه هجائه-من خلالها- إلى أحد القضاة[٢]:

لنا حاكِمٌ لم يَخْلُقِ اللّهُ مِثْلَهُ ... بِخَلْقٍ وخُلْقٍ قدْ حَوى غايَةَ القُبْحِ

يضلُّ إلى طُرْقِ العُلا غَيْرَ أنَّهُ ... إلى اللؤمِ أَهْدى من ذُبابٍ إلى جُرْحِ

ووجد أسامة بن منقذ في صورة النّمل الذي يتجاذب زهرة، وسيلة لذمّ الدّنيا، وتصوير ما فيها من صراع[٣]:

---

(١) نورثرب فراي، تشريح النقد، محاولات أربع، ترجمة: محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمان، ١٩٩١م: ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) ابن دنينير، ديوانه: ٥٧٥.

(٣) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٢٩٦.

شاهدتُ نملاً قدْ تجاذَبَ زَهـرَةً ذا قدْ تملَّـكَها وهـذَا يَسْلبُ

مثلَ المُلوكِ تَجاذَبُوا الدُّنيا فما حَصَلتْ لمغلُوبٍ ولا مَنْ يَغْلِبُ

وانتقى ابن عنين من بعض المهن جوانب لتشكيل صوره؛ فها هو يوظّف صورة الدّمّ الذي يريقه الحجّام، لتسويغ ما لحقه من هجاء أحد الشّعراء[1]:

لا غَرْوَ أنْ نَالَ اللئيمُ بهَـجوهِ منّـي منالاً لم تنَلْهُ كِرامُ

كمْ منْ دَمٍ أَرْدى الكُمَاةَ مَرَامُه يومَ الوَغَى وأراقهُ الحجَّامُ

واستثمر ابن دانيال جانباً من واقعه المعدم، فأنتج صوراً تميّزت بقدر من الواقعيّة التي تعكس ما كانت تعانيه بعض الفئات الاجتماعيّة من جوع وحرمان. ولعلّ في كثير من شعره ما يُعبِّر عن شيءٍ من ذلك. كما في أبياته التالية من قصيدة له يصوّر فيها الحشرات التي في بيته [2]:

. . والفارُ يركضُ كالخُيولِ تَسَابُقاً منْ كلِّ جَـرْداءِ الأَديمِ وأَجْـرَدِ

يأكُلْنَ أخْشابَ السُّقُوفِ كمثلِ فا راتِ النِّجارةِ إذ تُحَـكُّ بمِبْـرَدِ

وكأنَّ نسجَ العنكـبوتِ وبيْـتَهُ شَعْريّةٌ من فَـوقِ مُقـلَةِ أرمَـدِ

وكذاكَ للـحِرْذونِ صـوتٌ مثلُهُ في مَسمعي صوتُ الزِّنادِ المُصْلدِ

وإذا رأى الخفَّاشُ ضـوءَ ذُبالةٍ عـندي أضرَّ بضوْئها المُتَـوقِّدِ

مُتـرنِّمٌ بـينَ الذُّبـابِ مُغرِّدٌ لا كانَ من مُتـرنِّمٍ ومُـغـرِّدِ

حشراتُ بيتٍ لو تلقّتْ عسْكَـراً ولّـى على الأَعـقابِ غيرَ مُردَّدِ

---

(١) ابن عُنين، ديوانه: ٢٢٢.

(٢) ابن دانيال، المختار من شعره: ١٥٥-١٥٦.

فالشّاعر يقدّم مشهداً وصفيّاً استوفى عناصره من محيطه الذي يعيش فيه، ناقلاً-من خلاله- جانباً من همومه وسوء حاله بهذه الأبيات التي تضافرت فيها الصّور الحركيّة: (الفار يركض كالخيول، ولّى على الأعقاب)، مع الصّور الصوتيّة :(للحرذون صوت الزّناد، مترنّم بين الذّباب مغرّد)، مع الصّور الضوئيّة واللونيّة :(ضوء ذبالة، حلّة موشيّة بالعسجد). مستثمراً كلّ ما تثيره هذه الصور من إيحاءات لتصوير فاقته وعوزه .

وكثرت الصّور المستمدّة من عالم الطّبيعة؛ فالمهذّب بن الزّبير -مثلاً- يستثمر صورة الكوكب (كيوان) ؛ ليجسّد -من خلالها- نحس أحد أصدقائه[1]:

لا ترْجُ ذا نَحْسٍ وإنْ أَصبحَتْ منْ دونِه في الرُّتبةِ الشَّمسُ

كيوان أعلى كوكبٍ موْضعاً وهْوَ إذا أَنْصفتَهُ نحْسُ

ويرجع علي بن عرام تكوين أحد الثّقلاء إلى كثيف الأرض، يقول[2]:

عناصرُ الإنسان من أَرْبَعٍ وخالدٌ عُنصرُهُ واحدُ

فمنْ كثيفِ الأرضِ تكوينُهُ فهو ثقيلٌ يابسٌ باردُ

ويقرن القاضي الفاضل أحدهم بالسّراب الذي لا يُرجى منه إلا الظّمأ[3]:

وما كُنتَ إلا كمثلِ السَّرا بِ، يسُوقُ إليه سياط الظَّمَا

وتتكرّر في شعر أُسامة الصّور المستمدّة من عالم البحر؛ ولعلّ لذلك ارتباطاً بكثرة

---

(١) الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٣٣٨.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر) : ٢/ ١٧٥.

(٣) القاضي الفاضل، ديوانه: ٢/ ٤٣٥.

أسفاره وارتحاله، على نحو قوله في أحد أصدقائه المراوغين[1]:

لنا صـــديقٌ يغُرُّ الأصـــدقاءَ، وما رأيتُهُ قطُّ في ودٍّ امـــرىءٍ صَـدَقا

صديـــقُهُ أبداً منهُ عـــلى وجـــلٍ كراكبِ البحرِ، يَخْشَى دَهْرَهُ الغَرَقا

وقوله في التّـــحذيـــر من مغبّـــة التقرّب للسّلطان ومعاشـــرته[2]:

لا تقربَنّ بابَ سلطانٍ، وإن مَـلأَتْ هِـــباتُهُ غيرَ ممـــنونٍ بها الطُّـرقَا

فإنّ أبوابَهـــمْ كالبحـــرِ: راكـــبُهُ مرّوعُ القلبِ، يَخْشَى دَهْرهُ الغَرَقا

واستمدّ الشّعراء من حقل الحيوانات مادّة لبعض صورهم، إذ وجدوا في هذا الحقل ما يكفل لهجائهم شيئاً من الطّعن والتّحقير، وقد تدنّى مستوى هذا الطّرح -أحياناً- وبدا أقرب إلى المهاترة والسُّباب. ومما يمثّل ذلك قول فتيان الشّاغوريّ في هجاء فقيه يعرف بابن جاموس[3]:

رأيْتُ بالجـامـــعِ أُعْجـوبَةً والنَّـاسُ يسعَوْنَ إليها زُمَرْ

فقلتُ: يا قَوْمُ على رِسْلِكمْ ما يَعِظُ الجاموسُ إلا البَقَرْ

وأكثر الشُّعراء -تحت إغراء انفعالهم وغضبهم المتنامي- من تناول هذا الجانب؛ فهناك من قرن وجه مهجوّه بوجه الحمار[4]، وهناك من فـضّل الكلب على بعض الأنام[5]، وهناك من وجد في القرد تجسيداً لصور بعض الأشخاص[6]. وهكذا سار

---

(١) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فتيان الشاغوري، ديوانه: ٢٠٤.

(٤) ابن قلاقس، ديوانه: ٣١٧.

(٥) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشّام): ١/ ٢٩١؛ البهاء زهير، ديوانه: ١٥١؛ ابن دانيال، المختار من شعره: ٢٥٧.

(٦) ابن الشعار، قلائد الجمان: ١٠/ ٢٧٥.

الشّعراء في هذا الاتّجاه الذي أفقد ما في شعرهم من قيمة، وقرّبه من دائرة الشّتائم الجارحة التي ليست من الشعر في شيءٍ.

واستغلّ الشّعراء -في المنحى نفسه- صفات بعض الحيوانات لتوجيه بعض المعاني الهجائية من خلالها. فقد رأى ابن قلاقس -مثلاً- في الحرباء رمزاً للإنسان المتقلّب[1]. ورأى أبو عبدالله النّجار في الأفاعي الخبيثة نموذجاً لتجسيد صورة والده الذي يهجوه بقوله[2]:

لي أبٌ كلُّ ما بهِ يُوْصَفُ الـنّا ... سُ من الخيرِ فهو منْهُ مُبرّا

فهو كالصِّلّ من بناتِ الأفاعي ... كلّمـا زادَ عُمْرُهُ زادَ شَرًّا

ويتكرّر استثمار صفة الأفاعي والعقارب على لسان ابن عُنين الذي يخرج من إطار التّخصيص السّابق إلى التّعميم الذي يشمل بني الدُّنيا كلّهم[3]:

. . إذا اختبرْتَ بني الدُّنيا وَجَدْتَهُمُ ... عَـقَارباً وثعابيناً وأَوْزَاغَا[4]

وإن تأمّلتَ أخبـاراً أتـوكَ بهـا ... رأيتُ زُوْراً وروّاغـاً وأَوْزَاغَا[5]

وتخيّر الشّعراء بعض صورهم من النّبات. وقد انتقوا من هذا الحقل ما يتناسب ومقاصد هجائهم؛ فعمارة اليمنيّ يصوّر بخل كاتب نصرانيّ من خلال قرنه بشجر الصّفصاف الذي لا ثمر فيه[6]:

---

(١) ابن قلاقس، ديوانه: ١٣٦.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): ٢/ ٣٩٢.

(٣) ابن عنين، ديوانه: ١٣٧.

(٤) جمع وزغة: سام أبرص.

(٥) الأوزاغ هنا جمع وَزَغ؛ وهو الرجل الفاسد الفشل.

(٦) عمارة اليمني، المختار من ديوانه (ضمن كتاب النكت العصرية): ٢٩٣.

. . لا تأمننَّ أبا الرَّذائلِ بَعْدَها واحـــذرْ أمانَةَ سارقٍ خطّافِ

فالمرتجي عِنْـدَ اللِّئامِ أمـــانـــةً كالمرتجي ثَمَراً من الصَّـفصافِ

وابن دانيال يتهكّم من أحد الولاة، واصفه بشجر البان المترنّح[1]. أما شرف الدين الأنصاريّ، فيستمدّ من شوك القتاد صفةلزمانه ذاك[2]

زمـــانٌ مُوطَّـــأُ أكنافِه كشوكِ القَتَادِ إذا ما خُرِطْ

فأمَّا الكِرامُ فقَدْ أَعْوزُوا وأمّا اللِّئـــامُ فقُلْ واشْترطْ

ويرتبط بعض الصّور بأصول تراثيّة ؛ كإشارة بعض الشّعراء إلى أسماء أماكن ومواقع لها ارتباطها في الذّاكرة. ومن هذا القبيل إشارة ابن عُنين إلى «أرض وجرة»، و «قصر الخورنق» في مداعبة صديق وعده بغزال ومطله[3]:

غزالُكَ بالوَعْساءِ من أَرْضِ وَجْرةٍ يصيْفُ ويَشْتُو من وراءِ الخَوَرْنقِ

تناءتْ به عن قانسِ الإنـــسِ دارُهُ فـكيفَ يرجّيهِ مُقيمٌ بـجـــلَّقِ

وتتبدّى هذه الأُصول التراثية أيضاً من خلال انتقاء بعض الألفاظ والتّعابير. كما في الأبيات التالية للبهاء زهير الذي يشكو فيها بعض الأشخاص؛ إذ يستحضر أنماطاً تعبيريّة موروثة تتكرّر مثيلاتها في الشّعر القديم، وهي من الشواهد القليلة في شعره الذي مال -بصورة عامة- إلى الواقعيّة والشعبيّة[4]:

. . رأيتُكمُ لا ينجحُ القَصْدُ عِنْدَكمْ ولا العُرفُ معروفٌ ولا الجُودُ مَوْجُودُ

---

(١) ابن دانيال، المختار من شعره: ٩٥.

(٢) شرف الدين الأنصاريّ، ديوانه: ٣٠٠.

(٣) ابن عُنين، ديوانه: ١٣٩.

(٤) البهاء زهير، ديوانه: ٧٨.

وددْتُ بأنّي ما رأيتُ وجوهكُمْ وأنّ طريقـاً جئتُـكمْ منهُ مَسْدُودُ

متى تبعدنّي عن حُدُودِ بلادكمْ **مطهّـمةٌ جُرْدٌ ومَهْرِيّةٌ قُوْدُ**[1]

وأصبحَ لا يَجْري ببالِيَ ذكركُمْ **ويقطعُ ما بيني وبَيْنَكُمُ البِيْدُ**

وأخيراً فقد كانت بعض الصّور ذات مصدر ثقافيّ؛ إذ استرفد الشّعراء بعض صورهم من القرآن الكريم، والحديث الشّريف، والشّعر العربيّ القديم، والتاريخ، وبعض المعارف اللغويّة والدينيّة.. وقد تبدّى هذا بوضوح عند الحديث عن توظيف الموروث في هذا الشّعر. ولا أجد ضرورة لسوق الشّواهد عليها ثانية، تجنُّباً للإطالة والتكرار.

-٢-

وتوسّل الشّعراء في تشكيل صورهم بالأساليب البيانيّة المعروفة؛ كالتشبيه الذي شاع في كثيرٍ من هذه الصّور. وقد اتّسم أغلب هذه التشبيهات بالوضوح والبساطة، فجاءت مألوفة لا غرابة فيها. والنّماذج على ذلك كثيرة، وليس من سبيل أمام الدّارس إلا الانتقاء الذي لا مندوحة عنه في هذا المقام، يقول أمية بن أبي الصّلت في تصوير حالة متعلّم قليل الاستيعاب، حيث ينتقي لتجسيد حالته تشبيهين من مألوف ما يقع في الحياة[2]:

وراغبٍ في العلوم مُجْتَهِدٍ لكنّهُ في القُبُولِ جَلْمُودُ

فهو كذي عِنَّةٍ به شَبَقٌ ومشتهي الأكل وهو مَمْعُوْدُ

---

(١) جرد: جمع أجرد، وهو الجواد السابق. والمطهّم: التامّ الحسن الخلق. المهرية: الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان، اسم حيّ باليمن، والقود: المنقادة.

(٢) أمية بن أبي الصّلت، ديوانه: ٧٩.

وقريب من هذا قول نصر الهيتي[1] الذي يستجمع عدداً من الصور الواقعيّة المنفّرة، في هجاء جماعة رأى أنّهم لم يقدّروا قيمة شعره، يقول[2]:

رقاعُهُمْ تَمْلأُ الدُّنيا بما رَحُبَتْ ... مَلأً من المِيْنِ والبُهْتانِ والزُّوْرِ

تُطوى وتُنشرُ والأدناسُ تشْمَلُها ... في كفِّ كلِّ سَخِيْنِ العينِ مَعْرُوْرِ

كأنّها وعطاياهم مسطَّرةٌ ... فيها لفائفُ ميْتٍ غيرِ مَنْشُورِ

أو ما يعلّقُهُ البيْطارُ من خِرَقٍ ... عن كلِّ أَعْجَفَ غثِّ اللحمِ مَعْقُوْرِ

لا تطّرحْها إذا جاءتْ فإنّ لها ... نفعاً ولكنْ لترقيعِ الطَّنابيرِ

فهذه التشبيهات مما يعاينه الناس في حياتهم. وقد تميّزت بقدر من الوضوح الذي من شأنه أن يجعلها عالقة في ذهن متلقّيها. ويبدو أن الشّعراء كانوا يجدون في هذه التشبيهات وأمثالها، بغيتهم ليبلغ كلامهم الأفهام.

وقد تميّزت بعض هذه التشبيهات بالحيويّة والطرافة، من ذلك قول ابن عُنين الذي ينتقد رقعة طويلة كتبها إليه أحد أصدقائه، حيث ينتقي لذمّ هذه الرقعة التي ولّدت في نفسه الملل لطولها، صورتين دالّتين مما يعاينه من مظاهر الطبيعة المتمثّلة في تعاقب الفصول، وهما صورتان من شأنهما أن تجسّدا فكرة الضّجر والملل، على نحو واضح[3]:

وصَلتْ منك رقعةٌ أسأمَتْني ... وثنتْ صبري الجميلَ كليلا

كنهارِ المصيفِ حرّاً وكرباً ... ولَيالي الشّتاءِ بَرْداً وطُوْلا

---

(١) هو نصر بن الحسن الهيتيّ الدمشقيّ، يذكر العماد أنّه لقيه بدمشق، وتوفي بعد سنة ٥٦٥هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): ٢/ ٢٣٠.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٣١.

(٣) ابن عنين، ديوانه: ٢٣٥.

ومنها قول أبو جَلْنك الحلبي[1] الذي مدح قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان[2]، فوقّع (القاضي) له -لقاء هذا المدح- برطلي خبز، فكتب أبو جلنك على حائط بستان ذلك القاضي هذين البيتين[3]:

للّه بستانٌ حللنا دَوْحَـــهُ والورقُ قدْ صَدحَتْ عليه لما بها

والبانُ تَحْسبهُ سنانيراً رأتْ قاضـــي القُضاةِ فنفّشَتْ أذْنَابها

فالشّاعر يرسم لوحة تصويريّة ناطقة، غرضها التّهكّم والسُّخرية؛ فبعد أن يقدّم مشهداً يثير الابتهاج والحبور في النفس، من خلال وصف ذلك البستان، إذ به يتحوّل إلى معنى مفاجئ يتضادّ مع سابقه، حين يشبّه شجر البان الذي تناثرت أوراقه بفعل عوامل الجوّ، بذنب السنّور الذي نفشه إثر غضبه من موقف ما، وهو ها هنا رؤية قاضي القضاة المذكور.

وكثرت الصّور الاستعارية التي اتّخذت من التشخيص وسيلة لبنائها، وللتشخيص -كما هو معروف- أثر في بعث الحياة والحركة في الأشياء الجامدة؛ فقد شخّص الشّوّاء الحلبيّ عِرْض أحد البخلاء إنساناً مسودّ الوجه[4]. وشخّص التاج البلطيّ شيم جماعة بنساء مكتسيات بالقبائح[5]. أمّا ابن عنين، فيشخّص الدِّين بإنسان يستغيث إلى اللّه، شاكياً مما لحق به من جور بعض الأفراد[6]:

---

(١) هو شهاب الدين أحمدبن جَلْنَك الحلبي، قتل في غزو التتار لمدينة حلب سنة ٧٠٠هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٨/ ١٩٤.

(٢) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان قاضي القضاة، صاحب كتاب «وفيات الأعيان»، تنقّل بين الشّام والموصل ومصر، توفي سنة ٦٨١هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ١١٠-١١٨.

(٣) الكتبيّ، فوات الوفيات: ١/ ٦١.

(٤) ابن الشّعّار، قلائد الجمان: ١٠/ ٢٨١-٢٨٢.

(٥) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): ٢/ ٣٨٧.

(٦) ابن عُنين، ديوانه: ٢٠٩-٢١٠.

صعِدَ الدّينُ يستغِيْثُ إلى الـلـ ـهِ وقالَ الأنَامُ قدْ ظَلَمُوني

يتسمّونَ بي وحقِّك لا أعـ ـرفُ شخصاً منهمْ ولا يَعْرفوني

جعلوا ابنَ المصريِّ تاجي ولو كا نَ شِراكاً للنّعلِ لمْ يُنْصِفُوني

ثمّ قالوا البكريُّ صَدْري كما قا لُوا وفالُوا وَوَجْهي الزّنكلوني

ويشخّص في موضع آخر، مصحف عثمان متبرِّماً ساخطاً من أحد القائمين على جامع دمشق[1]:

مصحفُ عثمانَ صَاحَ منْ حَنَقٍ رافعُ قْدَري ما بالُهُ خَفَضَهْ

الزّنكلونيُّ صارَ يخْدِ مُني يا ربّ عجّلْ بالفأرِ والأرَضَهْ

واللّهِ ما بي انحطاطُ منزلتي وإنّما بي شماتةُ الرَّفَضَهْ

وتكأت بعض الصّور على التجسيم، فبدت الأشياء المجرّدة في صور محسوسة؛ فُجسِّم الطّب -بغرض النقد- سيفاً يقضي على الأرواح[2]. وجُسِّم شعر الخصوم يابساً متحجِّراً[3]، وسلاحاً لا يقدح زناده[4]. وجُسِّم صوت بعض المغنّين سوطاً لاذعاً على مستمعيه[5]. أمّا الحديث غير المرغوب فيه، فبدا كالبرد القارص الذي يطفي لهيب جهنم[6].

وتشكّلت بعض الصور الهجائيّة من خلال الكناية، وأكثر ما يكون ذلك باستخدام

---

(١) ابن عُنين، ديوانه: ٢٢٩.

(٢) الكتبيّ، فوات الوفيات: ٢/٣١٨.

(٣) ابن دانيال، المختار من شعره: ١٤١.

(٤) ابن الساعاتي، ديوانه: ٢/٣٤١.

(٥) عرقلة الكلبيّ، ديوانه: ٥٥.

(٦) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ٢/١٣٢.

كلمة (القرون) التي هدف الشّعراء من ورائها إلى انتقاد عُجْبِ مهجوّيهم وخيلائهم. على نحو قول الشاعر شلعلع[1] (الذي عرف بالفكاهة وخفّة الظّلّ) في شاعر يسمّى ابن الدّبّاغ[2]:

تعالتْ قرونُ ابنِ الدّبّاغِ فأصبحتْ تَجلُّ عن التّحديدِ في اللفظ والمعنى

على بَعْضِها ناجى النبيُّ إلهَهُ وقدْ كانَ منْهُ (قابَ قوْسيْنِ أو أدْنى)

والأثر الدينيّ واضح في بناء هذه الصّورة، فبالإضافة إلى توظيفه قصة موسى عليه السّلام، في مناجاته ربَّه، نراه يعمد إلى الاقتباس المباشر من آي الذكر الحكيم، فعجز البيت الثاني مقتبس من قوله تعالى: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾[3].

وقد غلب على صور الهجاء الطابع الحسيّ؛ فكثرت -مثلاً- الصور البصريّة التي اتخذت من اللون وسيلة للتعبير عن بعض المعاني الهجائية. فقد صوّر فتيان الشاغوري وعد قوم لم ينجز بالبرق الخُلّب الذي لا مطر فيه[4]:

وَعْدُكُمُ بالخُرْجِ والنّطع[5] برْقٌ ولكنْ خُلَّبُ اللَّمْعِ

وكثر استخدام اللون الأسود بصورة تسترعي النظر؛ ولعلّ ذلك مرتبط بما يثيره هذا اللون من كآبة وشؤم لدى بعض النّاس، ولما يحمله من دلالات سلبيّة قاتمة. فابن عنين يصوّر -بالاتكاء على التجسيم- عرض أحدهم أسود متمزّقاً، يقول[6]:

---

(١) هو ابن زيد بن خلف بن محمد بن أبي حامد بن العباس القرشيّ، يذكر العماد أنّه من أهل عصره. انظر: العماد، الخريدة (مصر): ٢/ ١٢٤.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ٢/ ١٢٤.

(٣) سورة النجم، الآية: ٩.

(٤) فتيان الشاغوري. ديوانه: ٢٦٩.

(٥) النّطع: بساط من جلد.

(٦) ابن عنين، ديوانه: ٢٠٧.

ما إنْ مدحتُكَ أرتجي لكَ نائلاً فحرمتَني فهجوتُ باستحقاقِ

لكنّني عاينْتُ عِرْضَكَ أسـوداً متمـزّقاً فقَدَحتُ في حُرَّاقِ

ويمزج أبو طالب الحلبي[1] بين اللونين الأبيض والأسود، ليقدح في جماعة أحسّ بزور مدحه لهم[2]:

وقائلٍ ليَ إذْ لفَّقْتُ مَدْحَـهُـمُ زُوْراً وميْناً وقدْ أزْرَى به الخَرَصُ

مبيضُّ مَدْحِكَ في مُسودٍّ فِعْلِهمُ كأنّما هـو فـي أعراضِهِمْ بَرَصُ

واستخدم الشّعراء ، في الإطار نفسه، الصّور الشّميّة. وما ورد منها يدلُّ -في الغالب- على الرائحة الكريهة غير المستحسنة، على نحو ما يتبدّى من قول أبي الغمر الإسناوي في أبخَر[3]:

مَنْ مُجيري منْ أبْخَـرٍ شَفَتَاهُ لـرياحِ الكنـيفِ جذّابتانِ

وإذا ما ألـفاظُهُ فَغَـرتْ فا هُ فَـوَيلُ الأُنُـوفِ والآذانِ

تَسْتَجيرُ البنانَ هذي من البُعْـ ـدِ وهـذي تلـوذُ بالأَرْدانِ

وبرزت في هذا الشعر الصّور الحركيّة التي أكسبت المشهد قدراً من الحيوية. كما في قول ابن قتادة المصري[4] الذي يجسّد لحظة موت الشاعر المكربل[5] بهذه الصّور

---

(١) من شعراء الخريدة. يذكر العماد أنّه من أهل هذا العصر -عصر العماد- وقد لقيه بحلب. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): ٢/١٨٨.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشّام): ٢/١٩٠.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر) : ٢/١٦١؛ وانظر مثل هذا في: أمية بن أبي الصلت، ديوانه: ٩٤؛ ابن دانيال، المختار من شعره: ٧٩-٨٠.

(٤) يذكر العماد أنّه توفي في عصره. واسمه أبو الفتح منصور بن إبراهيم بن قتادة الأنصاريّ، كان يعيش في مصر. انظر: العماد، الخريدة (مصر): ٢/٢٢٨.

(٥) هو الحسن بن سعيد، أبو علي العسقلانيّ، المعروف بالمكربل، كان بينه وبين أبي قتادة تهاج شديد. انظر: الصفدي، الوافي: ١٢/٣٠-٣١.

التي تداخلت فيها المثيرات الحركيّة مع المثيرات السَّمعيّة، لإخراج هذا المشهد التصويري[1]:

قالُوا المُكَرْبَلُ قدْ قَضَى فأَجَبْتُهُمْ ماتَ الهجاءُ وعاشَ عِرْضُ العالمِ

ما تَسْمَعُونَ ضجيجَ مالك مُعلناً وجُنُوْدُهُ: لا مَرْحَباً بالقادِمِ

أمّا الصور الذّوقيّة فهي قليلة. ومنها -على سبيل المثال- قول البوصيريّ في هجاء أحد الأدباء[2]:

.. إذا ما رآني عافَني واستقلّني كأنّي في قَعْرِ الزُّجاجةِ سُؤْرُ[3]

-٣-

وقد هدفت الصّورة في شعر الهجاء عموماً إلى التشويه والمسخ؛ بقصد تحقير المهجوّ، والغضّ من قدره. وانتقى الشعراء -في سبيل تأكيد هذا المقصد- صوراً تثير الاشمئزاز، وتصدم الذّوق السّويّ. ومن النماذج الدّالة التي تمثّل مثل هذا، قول فتيان الشاغوري في هجاء رجل يعرف بابن الخيميّ، حيث يتخيّر من الصّور، ما يمكن أن يحقّق لمهجوّه ذاك، مزيداً من الازدراء والتحقير[4]:

كلّما حادثني ابنُ الخيميّ قُلتُ هذا حَدَثٌ ليسَ حَديثا

سَمِجُ الإنشادِ غثٌّ لفظُهُ فاترُ الشّعرِ يُرَى فيه خَنيثا

فُوهُ كالمعْدَةِ ما مرَّ بها طيِّبٌ إلا أحالتْهُ خَبيثا

لا تُبطرِمْ ويْكَ إنّي عالِمٌ بكَ يا قِرْدُ قديماً وحديثا

---

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ٢/٢٢٩.

(٢) البوصيري، ديوانه: ١٤٨.

(٣) أصلها سؤر، وهي ما تبقى من الشارب في الإناء.

(٤) فتيان الشاغوريّ، ديوانه: ٧١.

وبقصد التشويه، قد يلجأ الشاعر إلى تقبيح صورة ما وقر في الذّهن أنّه حسن؛ فالخال -مثلاً- يرتبط في الغالب بدلالة جماليّة، ولذا نجد الشعراء يكثرون من التغزّل به، غير أنّ ابن قلاقس يحمّل هذه الدّلالة قيمة سلبيّة، حين يعمد إلى مقابلة «خال» أحدهم، بصورة منفّرة قبيحة[1]:

تاهَ بخالِ خدِّهِ كما يتيهُ النَّملُ
وظنَّ أنّ حُسْنَهُ وقدْ مَضَى مُقْتَبَلُ
وقالَ خدّي رَوْضَةٌ ترتعُ فيها المُقَلُ
فقلتُ ما أقبحَ ما جئتَ به يا رَجُلُ
لو كانَ وَرْداً لم يكنْ يَسْكُنُ فيه جُعَلُ

ويعمد الشاعر الهجّاء -بغرض التشويه والمسخ أيضاً- إلى تشنيع هيئة مهجوّه، وتقديمه بصورة غريبة وتكوين غير متجانس. وذلك على نحو ما يبدو -مثلاً- من قول محمد بن ناصر الإسكندراني[2] في هجاء أحد الأطباء[3]:

صديقُنا المستطبُّ نادرةٌ وقدْ أخَذتْ منهُ أعينُ الناسِ
أنيابُ غُوْلٍ ومِشْفَرَا جَمَلٍ ورأسُ بَغْلٍ وذقنُ نِسْناسِ[4]

وواضح ما في هذه الصورة من تنافر، لا يوحي بأيّ انسجام بين أجزائها.

---

(١) ابن قلاقس، ديوانه: ١٨٩-١٩٠.

(٢) من شعراء الخريدة، كان شاعراً ومنجّماً، وله علم بالهندسة والمنطق، توفي سنة ٥٢٥هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ٢/ ١٠٠ (الحاشية).

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (مصر): ٢/ ١٠٠.

(٤) النِّسْناس: نوع من القردة صغير الجسم، طويل الذّنب.

وحملت بعض الصّور مشاعر من الغضب والاستياء، وغالباً ما يكون ذلك ردّ فعل تجاه موقف لم يلق على إثره الشّاعر ما كان يرغب؛ فابن المسجّف العسقلانيّ، يصوّر شدّة استيائه وحنقه، من جماعة لم ترقه أطباعهم وصفاتهم، بهذه الصّور التي تعبّر عن موقفه الغاضب بحدّة[1]:

يا ربّ كيـــفَ بلوتني بعـصابةٍ ما فيهمُ فضْلٌ ولا إفـضالُ

متنافري الأوصافِ يصدقُ فيهمُ الـ ـهاجي وتكذبُ فيهمُ الآمالُ

غطّى الثَّراءُ علـى عيوبِهُـمُ وكَمْ من سوءةٍ غطّى عليها المـالُ

جبناءُ مـا اسْتَنْجَـدْتهُمْ لملمَّـةٍ لؤماءُ ما اسْتَرفَدْتهُمْ بُخّـالُ

فوجُـوهُهُـمْ عُوذٌ على أمْوالِهِمْ وأكفُّـهُمْ من دونها أقْفَـالُ

هُمْ في الرَّخاءِ إذا ظفرْتَ بنـعمةٍ آلٌ، وعنـدَ الشَّـدائدِ آلُ

وهدفت بعض الصّور إلى السخرية، عن طريق تجميع عدد من الصور الهازئة التي تتضافر مجتمعة لتقديم مشهد تهكميّ ساخر، من ذلك قول القاضي الفاضل في أحدهم، لاجئاً إلى تصوير جوانب خارجيّة من شخصيته بالاتكاء على ما يشبه التصوير (الكاريكاتوريّ) القائم على المبالغة والتضخيم[2]:

.. وَجْهٌ عليهِ منَ القَباحَةِ مِسْحَةٌ ظَلمَ النَّهارَ[3]، وَقَدْ رآهُ فأَظْلَمَا

وعليهِ أنفٌ قدْ أُجيْبَـتْ دعـوةٌ فيه من الدّاعي عليه؛ فَـأُرْغِما

فلو انّهُ ذَنْبٌ لكـــان كبـيرةً ولـو انّهُ طَـوْدٌ لكانَ مُقـطَّمَا

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات: ٢/ ٢٨٤.

(٢) القاضي الفاضل، ديوانه: ٢/ ٤٣٤.

(٣) أي أنّ وجهه لقبحه يحيل ضوء النهار ظلمة.

بَرَصٌ يُرِيْنا منْهُ جِـلداً أبيــضَاً وأذىً يُرينا منْــهُ جِلْداً أسْحما[1]

لو شئـتُ أنْ أرقى لِنيْلِ قُرُونِه لَجَـعلتُ ذاكَ الكتْفَ تحتي سُلَّما

وجنحت الصورة الهجائية -أحياناً- إلى السخرية الهادفة إلى الإطراف، وإثارة الضحك. وقد بدا مثل هذا في بعض هجاء ابن عُنين الساخر، على نحو قوله في هجاء أمير البيرة[2]؛ إذ يسخر منه عن طريق تطلُّب بعض الصور القائمة على المبالغة في تصوير العيوب الخَلْقيّة، ملامساً في ذلك الذّوق الشّعبي اليسير الذي يقترب من ألفاظ العامة وأسلوبهم[3]:

لنا أميـرٌ قــرْنُــهُ يَنْطَحُ في الأُفْقِ الــفَلكْ

ســبالُهُ وذَقْــنُهُ تدْخُلُ في استِ أمِّ بَلَكْ

عطــاؤهُ وطَـعْنُهُ ما غيرُ دقٍّ بـالخَنَكْ[4]

فهــو الذّنابى أبداً في أيّما جـيشٍ سَلَـكْ

كــأنّهُ في قَلْعَةِ الـ ـبيــرةِ صيّـادُ السَّمَكْ

ومن أهداف الصورة الهجائية الإقناع، وغالباً ما يتمّ ذلك بالاتكاء على التشبيه الضمنيّ، وهو توجّه كان وراء طبع بعض هذه الصور بنزعة عقليّة، فظهر فيها ما يعرف بالاستدلال المنطقيّ «وهو ما يقوم على تلخيص الفكرة، ثمّ اتباعها بصورة مبرهنة على

---

(١) الأسحم: الأسود.

(٢) البيرة: بلد قرب سُميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/٥٢٦.

(٣) ابن عنين، ديوانه: ٢٠٣.

(٤) دقّ الخَنَك: كناية عن الثرثرة والقول الذي لا يعقبه فعل. ولا يزال أهل دمشق يقولون: هذا كلام (طق حنك).

صحّتها»[1]. ومن الشواهد التي تمثّل ذلك قول أسامة بن منقذ في تصوير هذا النموذج البشريّ؛ ولعلّه يقصد واحداً من أبناء عمومته الذين ساءت علاقته ببعضهم[2]:

بُعْداً لَمَنْ شَرُّهُ أَعْمى، يُصيْبُ ولا ... يَرَى مكانَ الأعادي من ذوي النَّسَبِ

كالنّارِ تُحْرقُ طَبْعاً لا تُمَيِّزُ بَيْـ ... ـنَ المَنْدَلِ[3] الرَّطب، في الإحْراقِ والحَطَبِ

وقوله أيضا[4]:

زهّدني في العقل أنّي أرى ... عنايةَ الأيّامِ بالجهلِ

والدّهرُ كالميزانِ: ذوالفَضْلِ ينـ ... ـحطُّ، وذو النّقْصانِ يستَعْلي

وخلاصة القول في الصّورة الهجائيّة أنّها صورة جزئية بسيطة، لا أثر فيها للتعقيد، وكدّ الذّهن، وكأن الشّعراء وجدوا «أنّ التعمق في الخيال، والإسراف في الصناعة الشعرية، وفي تكلّف الجزالة وسمو العبارة، يضعف الهجاء، ويفقده قيمته»[5]، فاتّجهوا -بقصد تعويض هذا الجانب- إلى الإفادة من وسائل فنيّة أخرى، كفلت لشعرهم القبول والاستحسان، كالتّوسُّل بالمفارقات، واستثمار روح الدعابة، والنكتة الساخرة، والميل إلى الأسلوب الشعبيّ الميسّر، وغير ذلك مما سبق تفصيله.

---

(١) إبراهيم السعافين، مدرسة إحياء التراث، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م: ٣٩٠.

(٢) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٢٤٥.

(٣) المَنْدل: العود أو أجوده.

(٤) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٣٠٨.

(٥) محمد محمد حسين، الهجاء والهجاءون في الجاهلية، ط٣، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠م: ٣٩.

خاتمـــة

تناولت هذه الدّراسة شعر الهجاء في مصر والشّام زمن الحروب الصّليبيّة ، فوقفت عند بعض العوامل السّياسيّة التي من شأنها أن تضيء جوانب ذات ارتباط بهذا الموضوع، سواء ما تعلق منها بالوضع الخارجيّ (كالصّراع مع الفرنجة)، أو ما تعلّق منها بالوضع الداخليّ (كاختلاف أمراء البلاد المحلّيين ، وتفرُّق كلمتهم ، ونزاعات البيت الأيوبيّ ، وغير ذلك)، إضافة إلى إبراز ملامح محددة من الواقع الاجتماعيّ الصّعب الذي ترك آثاراً بادية في حياة الناس أنذاك . وقد اتّضح أن لهذه العوامل مجتمعة ـ إلى جانب بعض العوامل الشخصيّة الأخرى- أثرها في وجود مضامين مستجدّة؛ كالشّعر الذي تناول هجاء الفرنجة، والشعر الذي تضمن نقد بعض مظاهر الفساد في هذا العصر .

وتبدّى من خلال هذه الدّراسة كثرة الهجاء الشّخصيّ الذي يعد اتّجاهاً واضحاً من اتّجاهات هذا الشّعر . وقد تعدّدت مضامين هذا الهجاء ومحاوره ، وتباينت مستوياته بين نموذج وآخر ؛ ففي حين نجد - في هذا الجانب - هجاء يتميّز بروح الدعابة والسُّخرية الهادفة ، نجد هجاء آخر لا غناء فيه ، إذ لا يتعدّى دائرة السُّباب المحض الذي لا أثر فيه للفنّ.

أمّا الهجاء الاجتماعيّ، فقد تضمّن كشف بعض صور الفساد التي سادت بعض قطاعات الحياة الاجتماعيّة في هذه المرحلة، وتبيّن من خلاله إلى أيّ مدى كان الشّعر متّصلاً بمناحي حياة النّاس المختلفة، فكشف عن جوانب من ذوق العصر، وطرق التعامل اليوميّ، ومعاناة بعض الفئات الاجتماعيّة المحرومة، وغير ذلك مما لا تتوافر معرفته في مصادر أُخرى.

ولعلّه قد استبان من خلال دراسة الهجاء السّياسيّ كثير من المستجدّات السياسيّة والعسكريّة التي عاشتها مصر والشّام في هذه الفترة العصيبة من التاريخ الإسلاميّ. ويلاحظ أنّ هذا الهجاء لم يكن -في أغلب نماذجه- يشكّل موضوعاً مستقلاً بذاته،

وإنّما كان مرتبطاً بشعر المديح والجهاد بصورة واضحة. وقد تراوحت مضامين هذا الهجاء بين استثمار الفرصة والموقف لكسب بعض المصالح الشخصيّة، وبين التزام مواقف تتفق مع موقف الجماعة الإسلاميّة التي رأت أنّ الانضواء تحت راية الدّين والوحدة هما السبيل الأفضل في صدّ الأخطار الخارجيّة العاتية.

وفي الجانب الفنيّ، لوحظ أنّ شكل المقطوعة القصيرة هو الشّكل الغالب على شعر الهجاء في هذه المرحلة؛ ولعلّ ذلك يرتبط بطبيعة هذا الشّعر الذي يميل إلى الإيجاز والتكثيف لضمان أكبر قدر من الإصابة والتوصيل. أما القصيدة الطويلة، فكانت نماذجها قليلة، وهي لا تشكّل ظاهرة تسترعي النّظر.

ولوحظ أنّ شعر الهجاء مال -بصورة عامة- إلى اللغة السهلة الميسورة ، والأسلوب الشّعبيّ الذي يلامس ذوق العامّة. وقد تضمّن هذا الهجاء -مع ذلك- أبعاداً معرفيّة تمثّلت في تواصل الشعراء مع ثقافات عصرهم وتراثهم السابق.

وجاءت الصّورة الهجائيّة في أغلب نماذجها بسيطة، لا أثر فيها للتعقيد، وكدّ الذّهن. ولعلّ الشاعر الهجّاء كان يحرص على تطلُّب أمثال هذه الصُّور التي لن يجد المتلقّي عنتاً في فهمها وإدراكها.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

أولاً : المصادر المخطوطة :

- سيف الدين المشدّ، عمر بن قزل (ت ٦٥٦هـ)، ديوانه (ميكروفيلم) رقم ٨٣٣، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

- ابن الشّعار الموصليّ، المبارك بن أحمد (ت٦٥٤هـ) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، إصدار فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلاميّة، جامعة فرانكفورت، ١٩٩٠م .

- العزازيّ، أحمد بن عبدالعزيز (ت ٧١٠هـ)، ديوانه ، صورة عن النسخة المخطوطة بدار الكتب المصريّة القوميّة، رقم ٢٨٢، شعر تيمور .

- ابن عساكر ، علي بن الحسن (ت٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق ، صورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، دار البشير.

- ابن عُقيل الزُّرعيّ، أبو العبّاس أحمد (ت٦٢٣هـ)، المختار من ديوانه، مكتبة طبقبوسراي، تركيا، رقم ٢٨١٦ .

- ابن فضل العمريّ، شهاب الدين (ت٧٤٩هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، إصدار فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، ١٩٨٨م.

- ابن منير الطرابلسيّ، أبو الحسين أحمد (ت ٥٤٨هـ)، شعره، مخطوط رقم ٢١٠، مكتبة أمبروزيانا (وعنه شريط مصوّر في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنيّة).

ثانياً: المصادر المطبوعة:

- ابن الأثير، ضياء الدين الجزريّ (ت٦٣٧هـ) :

أ- رسائل ابن الأثير، دراسة وتحقيق: نوري القيسي وهلال ناجي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، بلا تاريخ.

ب- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ، القاهرة، ١٩٣٩م.

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن (ت٦٣٠هـ):

أ- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد، ١٩٣٢م.

ب- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

- الأُدفويّ، كمال الدين جعفر (ت٧٤٨هـ)، الطّالع السّعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية العامّة للتأليف، ١٩٦٦م.

- أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ):

أ- الاعتبار، تحقيق : فيليب حتّي، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠م.

ب - ديوانه، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبدالحميد ، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م.

- ابن أبي أُصيبعة، أحمد بن القاسم (ت٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق : نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ.

- امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م.

- أميـة بن أبي الصّلت (ت٥٢٢هـ)، ديوانه، تحقيق محمد المرزوقي، دار بو سلامة للطباعة، تونس، بلا تاريخ.

- ابن إياس الحنفيّ، محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ)، بدائع الزّهور في وقائع الدّهور، تحقيق : محمد مصطفى، ط٢، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

- البهـاء زهيـر (ت٦٥٦هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد الجبلاوي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

- البوصيريّ، محمد بن سعيد (ت٦٩٨هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبيّ، القاهرة، ١٩٧٣م.

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف، القاهرة، بلا تاريخ.

- التلعفريّ، محمد بن يوسف (ت٦٧٥هـ)، ديوانه، تحقيق ودراسة هنرييت سابا، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة القاهرة، ١٩٧٦م.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط٣، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٦٩م.

- ابن جبير، محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، ط٢، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م.

- ابن حجر العسقلانيّ، شهاب الدين أحمد (ت٨٥٢هـ)، الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد جاد الحقّ، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.

- ابن حجة الحمويّ، تقي الدين أبو بكر (ت٨٣٧هـ):

أ- ثمرات الأوراق، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧١م.

ب- خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، ط٢، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١م.

- الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت٨٧٦هـ) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون العراقية، ١٩٧٨م.

- ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

- ابن الخياط، أحمد بن محمد (ت٥١٧هـ)، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٨م.

- ابن دانيال الموصلي، الحكيم شمس الدين (ت٧١٠هـ)، المختار من شعره، اختيار صلاح الدين الصفديّ، تحقيق: محمد نايف الدليميّ، مكتبة بسام الموصل، ١٩٧٩م.

- دعبل بن علي الخزاعي (ت٢٤٦هـ)، شعره، صنعة: عبدالكريم الأشتر، ط٢، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٣م.

- ابن دنينير، إبراهيم بن محمد (ت٦٢٧هـ)، ديوانه، تحقيق ودراسة محمود شاكر سعيد، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة الأزهر، ١٩٨١م.

- ابن الدّهان، المهذّب عبدالله بن أسعد (ت٥٨١هـ)، ديوانه، تحقيق: عبدالله الجبوري، ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

- ابن رشيق القيرواني، (ت٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد قرقزان، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨م.

- الزّوزني، الحسين بن أحمد (ت٤٨٦هـ)، شرح المعلّقات العشر، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م.

- ابن الساعاتي، علي بن محمد (ت٦٠٤هـ)، ديوانه، تحقيق: أنيس المقدسي، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٣٩م.

- ابن سعيد الأندلسيّ، علي بن موسى (ت٦٨٥هـ):

أ- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط٤، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

ب- المغرب في حلى المغرب (قسم مصر)، تحقيق: زكي محمد حسن وآخرين، مطبعة جامعة فؤاد الأوّل، ١٩٥٣م.

- ابن سناء الملك (ت٦٠٨هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد جاد الحق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، الهند، ١٩٥٧م.

- السيوطيّ، جلال الدين عبدالرحمن (ت٩١١هـ):

أ- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر، ؟، ١٩٧٩م.

ب- الحاوي للفتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

ج- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٨م.

- الشّاب الظّريف، محمد بن سليمان (ت٦٨٨هـ)، ديوانه، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط١، مكتبة النهضة العربية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.

- أبو شامة المقدسيّ، شهاب الدّين عبدالرحمن (ت٦٦٥هـ):

أ- تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بالذّيل على الروضتين، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.

ب- كتاب الرّوضتين في أخبار الدّولتين، تحقيق: إبراهيم الزّيبق، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.

- ابن شدّاد، بهاء الدين يوسف (ت٦٣٢هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.

- شرف الدين الأنصاري، عبدالعزيز بن محمد (ت٦٦٢هـ)، ديوانه، تحقيق: عمر باشا، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٨م.

- شهاب الدين محمود الحلبيّ (ت٧٢٥هـ)، ديوان أهنى المنائح في أسنى المدائح، مطبعة جريدة الشّورى ، مصر، بلا تاريخ.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ):

أ- الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م.

ب- نكْت الهِمْيان في نُكَت العميان، تحقيق: أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، مصر، ١٩١١م.

ج- الوافي بالوفيات، باعتناء ديدرينغ، ط٢، فرانز شتانير، فيسبادن، ١٩٨٢م.

- الصقاعيّ، فضل اللّه بن أبي الفخر (ت٧٢٦هـ)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤م.

- ابن طباطبا، محمد بن أحمد (ت٣٢٢هـ)، عيار الشّعر، تحقيق: عبدالعزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥م.

- طلائع بن رُزّيك (ت٥٥٦هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد هادي الأميني، ط١، المكتبة الأهلية، النجف، ١٩٦٤م.

- ظافر الحدّاد (ت٥٢٩هـ)، ديوانه، تحقيق: حسين نصار، ط١، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٩م.

- العاملي، محمد بهاء الدين (ت١٠٣١هـ)، الكشكول، ط١، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣م.

- ابن عبدالظّاهر، محيي الدين (ت٦٩٢هـ)، الروض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

- عبدالمنعم الجلياني (-٦٠٠هـ)، ديوان المبشرات والقدسيّات، جمع وتحقيق ودراسة:

عبدالجليل عبدالمهدي، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٨٩م.

- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت٦٦٠هـ):

أ- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٨م.

ب- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٨م.

- عرقلة الكلبيّ، حسّان بن نمير (ت٥٦٧هـ)، ديوانه، تحقيق: أحمد الجنديّ، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.

- ابن عساكر، علي بن الحسن (ت٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق: عمر ابن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

- عماد الدين الأصفهاني، محمد بن محمد (ت٥٩٧هـ):

أ- البرق الشامي، (ج٣)، تحقيق: مصطفى الحياري، ط١، مؤسسة عبدالحميد شومان، عمان، ١٩٨٧م.

ب- خريدة القصر، وجريدة العصر:

- قسم شعراء الشّام، تحقيق: شكري فيصل، ط١، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٥م.

- قسم شعراء العراق، تحقيق: محمد بهجة الأثري، وزارة الإعلام العراقية، بلا تاريخ.

- قسم شعراء مصر، تحقيق: أحمد أمين ورفيقيه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م.

- قسم شعراء المغرب، تحقيق: محمد المرزوقي وآخرين، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٦م.

ج- ديوانه، تحقيق: ناظم رشيد، جامعة الموصل، ١٩٨٣م.

- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي (ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من

ذهب، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، بلا تاريخ.

- عمارة اليمني، نجم الدين بن أبي الحسن (ت٥٦٩هـ)، النكت العصريّة في أخبار الوزراء المصريّة، اعتنى بتصحيحه: هرتويغ درنبرغ، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

- ابن عُنين الأنصاريّ، أبو المحاسن محمد (ت٦٣٠هـ)، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، ط٢، دار صادر ، بيروت، بلا تاريخ.

- فتيان الشّاغوريّ (ت٦١٥هـ)، ديوانه، تحقيق: أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٦م.

- ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (ت٨٠٧هـ)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٢م.

- أبو فراس الحمدانيّ، الحارث بن سعيد (ت٣٥٧هـ)، ديوانه، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٣م.

- أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، تحقيق عبدالستار فرج، الدار التونسية، تونس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، ط١، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٠م.

- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر (ت٨٧٤هـ)، الكواكب الدريّة في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.

- القاضي الفاضل، عبدالرحيم بن علي (ت٥٩٦هـ)، ديوانه، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، ط١، دار الكتاب العربيّ، القاهرة، ١٩٦١م.

- ابن قتيبة الدينوريّ، عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ) الشّعر والشّعراء، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م.

- ابن قسيم الحموي، مسلم بن الخضر (-٥٤٢هـ)، ديوانه، جمع ودراسة وتحقيق: سعود عبدالجابر، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٩٥م.

- ابن قلاقس، أبو الفتح نصر الله (ت٥٦٧هـ)، ديوانه، تحقيق: سهام الفريح، مكتبة دار العروبة، الكويت، ١٩٧٩م.

- ابن القلانسيّ، حمزة بن أسد (-٥٥٥هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، ط١، دار حسّان، دمشق، ١٩٨٣م.

- القلقشنديّ، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وضبط نصوصه: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- ابن القيسراني، محمد بن نصر (ت٥٤٨هـ)، شعره، جمع وتحقيق ودراسة: عادل جابر، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنية، ١٩٨٧م.

- الكتبي، محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ):

أ- عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة داود، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٧م.

ب- فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.

- ابن كثير، أبو الوفاء الحافظ (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دقّق أصوله وحقّقه: أحمد أبو ملجم وآخرون، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- المتنبي، أحمد بن الحسين (ت٣٥٤هـ)، ديوانه، وضعه: عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٨٦م.

- المرزوقي، أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد أمين وعبدالسلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.

- مسلم النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم،

تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، بلا تاريخ.

- ابن مطروح، يحيى بن عيسى (-٦٥٠هـ)، شعره، جمع وتحقيق ودراسة: جودت أمين علي، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة القاهرة، ١٩٧٦م.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ):

أ- إغاثة الأمّة بكشف الغمّة، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م.

ب- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ط٢، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٧م.

ج- كتاب المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط١، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩١م.

- المنقري، نصر بن مزاحم (ت٢١٢هـ)، وقعة صفين، تحقيق: عبدالسلام هارون ، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م.

- ابن منير الطرابلسيّ، أبو الحسين أحمد (ت٥٤٨هـ)، ديوانه، جمعه وقدّم له: عمر تدمري، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦م.

- الميداني، أحمد بن محمد (ت٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢م.

- النابغة الذبياني، ديوانه، جمعه وشرحه: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للنشر، جانفي، ١٩٧٦م.

- ابن النبيه، علي بن محمد (ت٦١٩هـ)، ديوانه، تحقيق: عمر الأسعد، ط١، دار الفكر، ؟، ١٩٦٩م.

-النّعيميّ، عبدالقادر بن محمد (ت٩٢٧هـ)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، دمشق، ١٩٨٨م.

- ابن واصل، محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، بلا تاريخ.

- الوهرانيّ، ركن الدّين محمد (ت٥٧٥هـ). منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان، ومحمد نغش، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

- ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبدالله (ت٦٢٦هـ):

أ- معجم الأدباء، الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، بلا تاريخ.

ب- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

- اليونيني، موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ)، ذيل مرآة الزّمان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ١٩٦١م.

ثالثاً: المراجع الحديثة:

- إبراهيم السعافين، مدرسة إحياء التراث، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

- إبراهيم طرخان، النّظم الإقطاعيّة في الشّرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.

- إحسان عباس، تاريخ بلاد الشّام في عصر المماليك، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م.

- أحمد أحمد بدوي، الحياة العقليّة في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر للطبع والنشر، بلا تاريخ.

- أيمن فؤاد سيّد، الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢م.

- بدوي طبانة، السرقات الأدبية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦م.

- بكري شيخ أمين، مطالعات في الشّعر المملوكي والعثماني، ط٣، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.

- جمال الدين الألوسي، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٦٧م.

- جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبيّ على مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفاوسكور). دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٨١م.

- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.

- خير الدين الزركليّ، الأعلام، ط٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٩م.

- داود الأنطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، مكتبة الهلال، بيروت، بلا تاريخ.

- د. سي. ميويك. المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبدالواحد لؤلؤة، ط٢، دار الرشيد للترجمة والنشر، بغداد، ١٩٨٧م.

- رائد مصطفى عبدالرحيم، صورة المغول في الشّعر العربيّ - العصر المملوكي، رسالة ماجستير مخطوطة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٧م.

- رينيه ويلك وأوستن وارين، نظريّة الأدب، ترجمة محيي الدّين صبحي، ط٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.

- سعيد عاشور:

أ- المجتمع الإسلاميّ في بلاد الشّام في عصر الحروب الصليبيّة (ضمن كتاب: مؤتمر بلاد الشام: تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر) الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م.

ب- المجتمع المصريّ في عصر سلاطين المماليك، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.

- شفيق الرّقب، الشعر العربي في بلاد الشّام في القرن السادس الهجري، ط١، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٣م.

- شوقي ضيف:

أ- عصر الدول والإمارات (مصر)، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م.

ب- الفن ومذاهبه في الشّعر العربيّ، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

- عبدالجليل عبدالمهدي:

أ- بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ط١، دار البشير ، عمان، ١٩٨٩م.

ب- بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، (جمع وتحقيق وتقديم) دار البشير، عمان، ١٩٨٩م.

- عبدالسّلام المحتسب، القصائد المنصفات في الشّعر العربي (من العصر الجاهلي إلى آخر العصر الأمويّ)، رسالة ماجستير مخطوطة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢م.

- عبدالعليم القباني، مع الشعراء أصحاب الحرف، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

- عبدالقادر الربّاعي، صور من المفارقة في شعر عرار، (ضمن كتاب: بحوث عربيّة مهداة إلى الدكتور محمود السّمرة)، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٦م.

- عبدالقادر القط، في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م.

- عزالدين إسماعيل، في الشعر العباسي (الرؤية والفنّ)، ط١، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٤م.

- فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي)، ط٤، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٨م.

- فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسيّ، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

- فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأوّل (قضايا المجتمع والفنّ) ، دار المعرفة الجامعية، بيروت، ١٩٩٣م.

- قحطان رشيد التميميّ، اتّجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجريّ، دار المسيرة، بيروت، بلا تاريخ.

- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، نقله إلى العربية: رمضان عبدالتّواب، ط٣، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

- مأمون جرّار، أصداء الغزو المغولي في الشّعر العربيّ، ط١، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٣م.

- مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون، دار الفكر، ؟، بلا تاريخ.

- محمد زغلول سلام :

أ- الأدب في العصر الأيوبيّ، دار المعارف، مصر. بلا تاريخ.

ب- تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجريّ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بلا تاريخ

-محمد محمد حسين :

أ- الهجاء والهجّاؤون في الجاهليّة، ط٣، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠م.

ب- الهجاء والهجّاؤون في صدر الإسلام، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت. ١٩٦٩م.

- محمد مصطفى هدارة، اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن الثاني الهجريّ، دار المعارف، مصر، ١٩٨١م.

- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجيّة التّناص)، ط٢، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦م.

- محمد الهرفي، شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبية، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.

-محمود إبراهيم :

أ- حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٨٧م.

ب- صدى الغزو الصليبيّ في شعر ابن القيسراني، ط٢، دار البشير، عمان، ١٩٨٨م.

- محمود أبو الخير، الشّعر الشّاميّ في مواجهة الصليبيين، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة الأزهر، ١٩٧٩م.

-محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ط١، دار الحمامي للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥م.

- محمود السرطاويّ، نور الدين زنكي في الأدب العربيّ (في عصر الحروب الصليبية)، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٩٠م.

- مصطفى زايد، النثر الفني في عهد الدولتين الزّنكيّة والأيوبيّة بمصر والشّام، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنيّة، ١٩٩٣م.

- نزار اللبدي، صورة فنّ الحرب في أدب الدّولتين الزنكيّة والأيوبيّة بمصر والشّام، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنيّة، ١٩٩٢م.

- نور ثرب فراي، تشريح النّقد، محاولات أربع، ترجمة : محمد عصفور، منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩١م.

- هنرييت سابا، اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن السّابع الهجريّ في بلاد الشّام، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة القاهرة، ١٩٨٠م.

- يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبيّة، دار الفكر، عمّان، بلا تاريخ.

رابعاً : الدّوريات :

- إحسان عباس، نماذج من القصيدة القصيرة في الشّعر العربي الحديث، جريدة الدستور الأردنية، ع٩١٨٨، عمان، ١٩ آذار ١٩٩٣م.

- حلمي الكيلاني :

أ- الخطر الصليبي: أبعاده ومقاومته (من خلال شعر معاصريه)، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، م١٠، ع٢، جامعة مؤتة، ١٩٩٥م: ٢٦٣ - ٢٩٧.

ب- الغربة في شعر أسامة بن منقذ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، م٨، ع٢، جامعة مؤتة، ١٩٩٣م: ٦٩ - ١١٨.

-خالد سليمان، نظرية المفارقة، مجلّة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، م٩، ع٢، جامعة اليرموك، ١٩٩١م: ٥٥ - ٨٤.

- سامح الرواشدة، المفارقة في شعر أمل دنقل، مجلّة دراسات (السلسلة : أ : العلوم الإنسانية، م٢٢(أ)، ع٦(الملحق)، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٥م.

- شفيق الرقب :

أ- ظاهرة الحزن في شعر أسامة بن منقذ، مجلّة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، م٢٤، ع٢، الجامعة الأردنية، ١٩٩٧م : ٤٥٩ - ٤٧٩.

ب- النزعة الاجتماعية في شعر البوصيريّ، مجلّة مؤتة للبحوث والدراسات، م١٠، ع٢، جامعة مؤتة، ١٩٩٥م :١٦٣ - ٢١٢.

- عبدالكريم حتاملة، صلاح الدين وموقفه السّياسيّ من أمراء الشّام بعد وفاة نورالدين زنكي، مجلّة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية،م١، ع٢، ١٩٨٥م : ٧ - ٢٨.

- عبدالله المهنا، إبراهيم المعمار، شاعر العامة في عصر المماليك، دراسة في الشاعر وشعره، المجلّة العربية للعلوم الإنسانية، ع٥٨، السنة ١٥، جامعة الكويت، ١٩٩٧م.

- محمد رجب النّجار، الشعر الشعبيّ الساخر في عصور المماليك، مجلّة عالم الفكر، م١٣، ع٣، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٨٢م.

- مصطفى عليان، صورة البطل والتصوّر الإسلامي في شعر الحروب الصليبية، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والتراث، م١١، ع٤، الجامعة الأردنية، ١٩٨٤م : ١٥٩-١٧٧.

- ناظم رشيد، الأدب عند بني أيوب، مجلة المورد، م٥، ع٣، وزارة الإعلام العراقية، خريف ١٩٧٦م.

- نبيلة إبراهيم، المفارقة، مجلة فصول، م٧، ع٣+٤، القاهرة، ١٩٨٧م.

Abstract

Satire Poetry in Egypt and Al-Sham During the Crusades

This paper addresses the satire poetry in Egypt and Al-Sham (Syria) during the Crusades. It aims at identifying the implications and characteristics of this poetry.

This paper is divided into an introduction and four chapters. The introduction unveils the reasons that induced the poets to say satire poetry. Chapter one dealt with the individual satire, and its depictions such as satirizing individuals, family, kinship members and satire attacks between the poets themselves.

Chapter two dealt with the social satire that uncovers some negative aspects of the social life during that time, such as the corruption of the state officials, Ministers, servants and judges etc. The social satire also revealed the glowing denominational or doctrinal conflicts taking place from time to time, as well as the complaint and suffering from the defects of values and behaviour.

Chapter three addressed the political satire into two dimensions, the first dimension dealt with the stand of the poets from some internal incidents wintnessed in Egypt and Al-Sham during this time such as the revolts of AL-sham rulers and their attempt to undermining the unity at the time of Nour El-Din Zinki and Salah El-Din Al-Ayoubi, and highlighting some aspects of the conflicts between Bani-Ayoub themselves and its negative impact on the Islamic position which was facing, at that time, many overwhelming external threats. This dimension also dealt with the frequent political conflicts witnessed on Egypt by the end of the Fatimade rule.

The second dimension dealt with the stand of the poet from the external conflict, specifically, the crusades conquest against the Islamic Eastern lands during the sixth and sevnth decades (Hejri).

Chapter four addressed the characteristics of this poetry. During this time, the stanza was frequently used in satire poetry. Generally, this poetry was characterized in the simple language, simplified popular style and partial depiction which is closer to the people's conception and senses.